

من خلال شرح منظومة

المباحث الأصليّة

لابْنِ البنّا السَّرَقُسْطِيّ (ت ٨٢١ هـ)

الدكتور معاذ سعيد حوى

الطبعة الرابعة

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾

[الشمس: ٩-١٠]

«اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها»

أخرجه مسلم

المقدمة

ـ الإنسان عالَم عظيم، خَلَقَه اللهُ بقدرات وإمكانات تتناسب مع ما أراد الله منه؛ من إيمان وعبادات وأعمال وعمارة للكون.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقال عز وجل: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ ﴾ [هود: ٦١].

ـ وخَلَقَ الله في الإنسان من الطبائع والاستعداد والاختيار ـ ابتلاءً له واختباراً ـ ما يمكن معه أن يكون عاملاً بالخير الذي أراده الله منه، أو يكون عاملاً بالشر الذي نهاه عنه.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

ـ وأعطى الله الإنسان قَلْباً ذا عواطف وإحساسات وميول، ليكون متعلقاً بالله، ليكون بحاله قائلاً: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فهو يشتغل بالعبادة ليكون ذاكراً لله ﴿ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: ١٤]، وإذا اشتغل بالدنيا والمال والأهل لحاجته إليها لم تشغلْه عن الله وذكره، فلا يكون حالهم حال من قال: ﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ [الفتح: ١١].

ـ وأمر الله عِباده بحسن الخلق والمعاملة، وجعل لهم قدوة جَمَعَ الأخلاق الحميدة ومحاسن الآداب، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وأمرنا ربنا سبحانه أن نسعى جميعاً إلى إقامة العدل والإحسان فيما بيننا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

ـ وجاءت شريعة الإسلام فيها جميع أسباب صلاح البشرية وهداية الإنسان، والالتزام بها يصلح الفرد والمجتمع، ويصلح الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

ـ وقد عُرِفَ العِلم الشرعي الذي يُعنَى بإصلاح النفس وتهذيبها والترقي بها؛ بعلم التزكية، أو بعلم الإحسان، أو بعلم القلوب، لكن غلب عليه عبر التاريخ؛ اسم التصوف، فكان مصطلحاً على ذلك العلم الذي يَضُمُّ المعارف والعلوم والحقائق التي يجب الاعتقاد بها وتصورها والإيمان بها، والتي تكون أساساً لإصلاح النفس، ويضم الأعمال المطلوبة والمجاهدات النافعة والأخلاق الطيبة والسلوك الراقي، للتحقق بصلاح النفس واستقامتها، في عباداتها ومعاملاتها وأحوالها القلبية، ويضم هذا العلم الثمرات المرجوة لتلك المعارف والعلوم والأعمال والمجاهدات.

ـ وشأن هذا العلم ـ كشأن سائر العلوم ـ تجد فيه مؤلفاتٍ معتمدةً منضبطةً بالكتاب والسنة، وعلى منهج أهل السنة، وتجد فيه كُتباً خالية من الضبط والتحقيق العلمي، أو تتضمن مسائل مُنكَرَة، أو أحاديث ضعيفة وموضوعة، أو تُدخِل في العلم وأعماله ما لا تُقِرُّه مذاهب أهل السنة والجماعة المعتبرة في العقيدة والفقه والسلوك.

وقد حرصت في هذا الكتاب أن أبين أهم معالم تزكية النفس وجوانب علم التصوف، على منهج أهل السنة والجماعة، منبهاً إلى بعض ما ينكره بعض الناس مما هو مقبول عند أهل السنة، وإلى بعض ما يقبله بعض الناس وهو محل إنكار عند أهل السنة، ومبيناً ضوابط بعض المسائل التي تحتاج إلى ضبط يحدد حدودها المشروعة وحدودها المنكَرة.

وهذا العلم هو علمُ عملٍ، فلا يُتعلَّم ليُحفظ ويكتفى بذلك، بل نفعه إنما يكون بالعمل به، لكن العمل يجب أن يكون مبنياً على علم صحيح وقواعد سليمة ومنهج قويم.

وقد كان الناس عبر تاريخ الأمة الإسلامية يحبون التصوف ويمدحونه، ويعلمون أنه الطريق إلى الولاية والصديقية، وعلى الرغم من أنهم يعلمون أن من الناس من ينتسب إلى التصوف لشرفه وعلو شأنه من غير تحقق بمقاماته وحقائقه؛ فإن ذلك لم يمنع الناس أن يبحثوا عن التصوف الحق وعن أهله وأئمته المستقيمين، وعن مفرداته ومسائله المستنبطة من الكتاب والسنة، والمقررة عند أهل السنة.

وقد نشأ في القرن العشرين من يُنكِر التصوفَ جملة وتفصيلاً؛ بحجة وجود منحرفين من أهل التصوف، وبحجة وجود عبارات منكرة في بعض كتب التصوف، وبحجة وجود نصوص موضوعة وضعيفة واستدلالات غير قويمة في بعض كتب التصوف.

وذلك خلل منهجي خطير، فالخطأ مردود لذاته، ولا يجوز أن يكون حجة لرد الصواب، بل الواجب التحقيق والتحرير والتمييز، لا سيما أن تسعين بالمئة من نصوص الكتاب والسنة تتعلق بإصلاح النفس وأخلاقها وتزكيتها، بينما النصوص التي يستنبط منها الفقه لا تمثل عشرة بالمئة، فكيف يُهمَل العلمُ الذي يَعتني بإظهار هذه النصوص، ويُبيِّنُ طريق التحقق بها.

وهذه الحرب التي أُعلِنتْ على التصوف في زماننا؛ أبعدت الناس عن أخلاق الإسلام، الظاهرة والباطنة، حتى قلَّ في المسلمين من يعتني بصلاح قلبه، وصار الدين كأنه رسوم وأشكال، لا تجد معها حقائق الإخلاص، ولا جمال الأخلاق، وإذا عاملت بعض المسلمين تفاجأت بخبث وحسد وحقد وكيد وغِلظة، تنفرك منه، وتجعله تهمة للإسلام، حتى صار بعض الكفار ينظر إلى الإسلام من خلال هؤلاء على أنه دِين لا أخلاقي، وأن الإسلام دِين جفاء وتكبر، ودِين بَطْش وقتل، ودِين تحايل وكذب، وكل ذلك ناشئ عن تضييع علم التصوف الذي يعتني بإصلاح القلوب والأخلاق.

وأسأل الله تعالى أن يكون هذا الكتاب قد قَدَّم جزءً مهماً من حقيقة التصوف السني، وأهم علومه وأعماله وأدلته، ليطمئن المتشكك إلى أن التصوف العليم السُّنِّيَّ جزءٌ أساس من منهج أهل السنة، وليحرص بعد ذلك كل مسلم على الانتفاع من هذا العلم والعمل به[١].

والله ولي التوفيق، وهو المستعان، ومنه نرجو القبول.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) في موقع اليوتيوب www.youtube.com للمؤلف شرح لمادة هذا الكتاب (طبعة٢) في ٤٥ فيديو: مادة التصوف (التزكية) الدكتور معاذ سعيد حوىdr. moath hawwa

الباب الأول

مقدمات

الفصل الأول: مقدمات في التزكية

الفصل الثاني: مقدمات عن التصوف

الفصل الأول
مقدمات في التزكية

تعريف التزكية وأهميتها

تعريف التزكية لغة: أصل التزكية والزكاء والزكاة يدور حول عدة مَعانٍ، هي: الطهارة، والنَّماء والزيادة والبَرَكةُ، والصلاح، والْمَدْح، وكله قد استعمل في القرآن والحديث[1].

فأما مدح الإنسان نفسه فقد ذمه الله تعالى[2]، وأما باقي المعاني فهي داخلة في معنى التزكية المطلوبة شرعاً، والتي نتحدث عنها، وهي تتضمن جانبين: جانب التطهير، وجانب الترقي والزيادة، وكلاهما عامل في صلاح الإنسان.

تعريف التزكية اصطلاحاً: لا يخرج معنى التزكية اصطلاحاً عن معناه اللغوي، فهي: **صلاح الإنسان بطهارتِهِ من السوء والباطل، وارْتقائِهِ في الخير والحق.**

وهذا التعريف هو وصف لحقيقة التزكية من حيث هي، وتطلق التزكية ويراد بها عملية التزكية وفعل التزكية، فتكون التزكية عندئذ بمعنى: **إصلاح الإنسان بتطهيره من السوء والشر، وتنمية الخير عنده، وتَرَقِّيه فيه.**

وإنما يوصف الإنسان بالصلاح بقدر ما يكون عنده من الطهارة والارتقاء، وبقدر ما يَطْهُرُ الإنسان ويرتقي؛ بقدر ما يكون مُزَكىً أو زَكِيّاً.

وطهارة الإنسان من السوء تشمل طهارة عمله وطهارة قوله، تشمل ظاهره وباطنه، تشمل طهارة عقله وقلبه وجسده، تشمل طهارة اعتقاداتِهِ وأفكاره ونياته ورغباته وعباداته

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ج١٤، ص٣٥٨-٣٥٩، والنهاية في غريب الحديث: ج٢، ص٣٠٧-٣٠٨.

(٢) في قوله سبحانه: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم: ٣٢].

ومعاملاته وأخلاقه وأحواله، وتشمل طهارته من التأثُّر بما حوله من بيئة فاسدة ووسوسة شيطانية. وترقية الإنسان في الخير تشمل ذلك كله، فتشمل ترقية العمل والقول والظاهر والباطن ...

ومعرفة الخير والسوء ترجع إلى الله ورسوله ﷺ، فكل ما كان حسناً خيراً في شرع الله فهو خير وحَسَن، وكل ما كان سوءً وشراً في شرع الله فهو سوء وشر، والعقول مهما عَقَلَت واهتدت إلى معرفة الخير والسوء؛ فإن عِلم الله فوق كل عِلم.

وحيثما ذكرت التزكية في القرآن الكريم فهي شاملة لهذين المعنيين: التطهير والترقية، كما بيّنه كثير من المفسرين(١).

فإذا أراد الإنسان أن يطهر نفسه؛ يطهرها من الكفر والشرك والنفاق والرياء، يطهرها من أمراض القلوب، يطهرها من المعصية كبيرها وصغيرها، يطهرها من الجهل والشبهات والشهوات والبدع، يطهرها من الأخلاق المذمومة.

وإذا أراد الإنسان أن يرقّي نفسه؛ يرقيها بالإيمان واليقين، يرقيها بالسريرة الصادقة، يرقيها بالعلم النافع، يرقيها بالأعمال الصالحة فرائضها ونوافلها، يرقيها بالأخلاق الحميدة والمعاملات المشروعة.

قال المناوي: « التزكية: إكساب الزكاة، وهي نماء النفس بما هو لها بمنزلة الغذاء للجسم » وقال: « وأصل التزكية: نفي ما يستقبح قولاً أو فعلاً »(٢).

وقال والدي الشيخُ سعيد حوى رحمه الله وجزاه عني خير الجزاء: « فزكاة النفس: تطهيرها من أمراض وآفات، وتحققها بمقامات، وتخلقها بأسماء وصفات »(٣).

---

(١) انظر مثلاً: تفسير الطبري: ج ٣ ص ٨٨، وتفسير ابن كثير: ج ٨ ص ٤١٢.

(٢) التعاريف: ص١٧٤.

(٣) المستخلص في تزكية الأنفس: ص٣. وقال في موضع آخر: « تزكية النفس تعني باختصار: تطهيرها من الشرك وما يتفرع عنه، وتحقيقها بالتوحيد وما يتفرع عنه، وتخلقها بأسماء الله الحسنى، مع العبودية الكاملة لله بالتحرر من دعوى الربوبية، وكل ذلك من خلال الاقتداء برسول الله ﷺ »، المستخلص ص١٥٣.

تعريف النَّفْس التي تزكَّى وصفاتها

تطلق النفس عند أهل اللغة ـ وكذا عند علماء التزكية ـ على أمور كثيرة أهمها مما يتعلق بالإنسان ونَفْسه:

أنها تطلق على الروح، وتطلق على الجسد، وتطلق على العقل والتمييز، وتطلق على خاطر الإنسان وسره ورُوعه، وتطلق على القلب، وعلى ما يميل القلب إليه، وتطلق على الإنسان كله بجميع ما فيه من جسد وروح وعقل وقلب، وتطلق النفس على هِمَّة الإنسان، وتطلق على أَنَفَته وكِبْرِه، وغير ذلك(١).

وعند علماء التزكية تطلق النفس بالمعاني اللغوية السابقة كلها، لكن حينما تطلق النفس مضافة إلى التزكية فغالباً ما يقصد بها أحد أمرين:

إما جانب الشر في الإنسان، وإما الإنسان كله بذاته، بكل ما يحتويه من عقل وقلب وجسد وغيره.

فقد تقول: زَكِّ نفسَك؛ وتقصد تطهير جانب الشر فيها، فيكون المراد جانباً من النفس والإنسان، وقد تقصد بهذا القول تطهير جانب الشر مع تنمية جانب الخير وزيادته، فيكون المراد جميع نفسك.

والأَوْلى أن تُحمَل النفسُ على معنى الذات؛ حينما نضيفها إلى التزكية، لما علمنا من شمول معنى التزكية للتطهير والترقية، إلا إذا كان سياق الكلام يدل على تقييد النفس بأحد معانيها الأخرى.

والنفس تشمل على **العقل والقلب والجسد**، وكل ذلك يحتاج إلى تزكية، **وتشمل الروح**.

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور: ج٦، ص٢٣٣ وما بعدها، والمفردات للأصفهاني ص٥٠١.

والروح: هي اللَّطِيفة(١) التي بها حياة الجسم وقيامه وبقاؤه، ووجودها شرط في إدراك العقل وإرادة القلب وميله، وهي أمر غيبي لم تتعلق به أوامر الشرع إلا باعتبار مخالطته للجسد، وقد تسمى الروح نفساً باعتبار مخالطتها للجسد وإمدادها له، وتسمى روحاً بالنظر إلى تجردها، وسماها بعض العلماء عقلاً باعتبار أن التعقل لا يكون إلا بوجودها(٢).

والعقل: وهو اللطيفة التي يدرك بها الإنسان العلوم والمعاني والأشياء، وبها يميز بين الخير والشر، وبذلك يَعْقِل صاحبه ويحجزه عن المهالك، وقد اختلف العلماء في محلها، فقال بعضهم: محلها الدماغ في الرأس، وقال آخرون: محلها القلب في الصدر، ولذلك **يسمى العقل قلباً أحياناً**(٣).

والقلب: وهو يطلق على تلك اللحمة الصنوبرية الشكل في الجانب الأيسر من الصدر، ويطلق على اللطيفة المعنوية الموجودة في هذه اللحمة، وهو محل الإدراك والتعقل والتفهم(٤)، وهو محل الإرادة، وهو محل الخواطر والرغبات والأهواء فيتقلب بين رغبة وأخرى، بين خير وشر، وهو المخاطَب من الإنسان والمطالَب والمعاتَب(٥).

والجسد: هو الشيء المحسوس من الإنسان، الذي يتوقف عليه صدور الأعمال الحسية، ويسمى الجسم، ويسمى البدن أو الأعضاء، ويسمى الجثة والجثمان(٦).

---

(١) اللطيفة: شيء موجود، لا يُدْرَك بالحِسِّ وليس كَثِيفاً.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ج٢، ص٤٥٨، والتعريفات، الجرجاني، ص١٥٠، رقم ٧٤٣، ومفردات القرآن، الراغب، ص٥٩٥.

(٣) انظر: لسان العرب، ج١١ ص٤٥٨ -٤٦٢، والتعريفات، ص١٩٦-١٩٧، رقم ٩٨٥، والحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا الأنصاري، ص ٦٧. وقال ابن النجار الفتوحي الحنبلي في شرح الكوكب المنير ج١ ص ٨٣ «"وَمَحَلُّهُ" أَيْ مَحَلُّ الْعَقْلِ "الْقَلْبُ" عِنْدَ أَصْحَابِنَا وَالشَّافِعِيَّةِ وَالأَطِبَّاءِ، وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] أَيْ عَقْلٌ. فَعَبَّرَ بِالْقَلْبِ عَنْ الْعَقْلِ، لأَنَّهُ مَحَلُّهُ».

(٤) ويرى بعض العلماء أن العقل هو محل التعقل والتفهم، وأنه غير القلب.

(٥) انظر: لسان العرب، ج١ ص٦٨٥–٦٨٧، ومفردات القرآن، ج١، ص١٢٠٤، والتعريفات، ص٢٢٩ رقم ١١٤٩.

(٦) بعض التعريف مستفاد معناه من: لسان العرب، ج١٢، ص٩٩، ومفردات القرآن، ص ٢٥٣.

الإنسانُ ونفسه

حينما نقول: يجب أن يزكي الإنسان نفسه أو يجاهدها، فكأنما نقول: هما اثنان، يزكي أحدهما الآخر أو يجاهده، وذلك كقول الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، فكأن الإنسان طرفان، شاهدٌ، ومشهودٌ عليه، وما هو إلا واحد يشهد بعضه على بعض(١).

وكقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه سبحانه: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا **نفسه**»(٢)، فاللائم والملوم كأنهما طرفان في الإنسان.

وفي الحقيقة ليست نَفْسُ الإنسان إلا هو، وإنما جاز مثل هذا الإطلاق لِما ذكرناه من أن النفس تطلق على الإنسان كله بجميع ما فيه، كما تطلق على أجزاء منه كالعقل والقلب والروح والجسد، فحينما نقول يزكي الإنسان نفسه، فإن الجانب الذي يُزكِّي في الإنسان يكون غيرَ الجانب الذي يُزكَّى.

يجب على طالب التزكية أن يُدْرِك أن عواملَ إصلاح ذاتِه كلَّها موجودةٌ فيه، كما أن عواملَ إفسادها كلَّها موجودةٌ فيه، وأنت الذي تُغَلِّب جانباً على جانب لتزكي نفسك أو تدسيها، وهذا ما يستفاد من قول الله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أي فتحنا أمامه سبيل الخير والشر، كما يستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

ولما كان في نفس الإنسان من الاتجاهات المتعارضة والمتضادة، فإن الإنسان ـ وخاصة طالب التزكية ـ يعاني من هذه الصراعات داخل نفسه، فيَغْلِبُ نفسَه حيناً وتَغْلِبُه

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ج ٢٤ ص ٦٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٢٥٧٧.

أحياناً، أي يغلب جانب الخير فيها على جانب الشر، وأحياناً يغلب الشر على الخير، لذلك جاء أمر النبي ﷺ بأن يصارع الإنسان جانب الشر فيه فقال: «المجاهد من جاهد **نفسه**»(١).

النفس كما وردت في النصوص ومعانيها (٢)

النفس بمعنى الروح:

قال الله تعالى ذاكراً قول الملائكة للظالمين عند الموت: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، أي أرواحكم.

وقال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]، أي الأرواح.

النفس بمعنى الذات:

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ [آل عمران: ٣٠]، أي كل ذات، فتشمل الإنسان كله بظاهره وباطنه، بروحه وعقله وقلبه وجسده.

وقال الله عز وجل: ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [فاطر: ١٨]، أي لذاته كلها، فينتفع بكُلِّه.

النفس بمعنى الجسد:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء: ١]، يعني جسد آدم عليه الصلاة والسلام، والمراد تناسل الأجساد من جسده، أما الأرواح فلكل جسد روحه الخاصة التي تنفخ فيه.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه رقم ١٦٢١ وقال: «حديث حسن صحيح»، وأخرجه أحمد في المسند رقم ٢٤٠٠٤ وابن حبان في صحيحه، الإحسان رقم ٤٨٦٢ والحاكم في المستدرك رقم ٢٤.

(٢) انظر: الأساس في السنة وفقهها قسم العقائد الإسلامية، سعيد حوى، ج١ ص٢١- ص٧٩.

وبعض النصوص تحتمل أن يكون المراد بالنفس فيها الجسد، وتحتمل أن يكون المراد الجسد مع ما معه من عقل وقلب وروح، فمن ذلك:

قال الله جل وعز: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ **نَفْسًا** إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أي لا يكلف جسداً إلا قدرته، ويجوز أن يكون المقصود الذات.

النفس بمعنى القلب:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ **أَنفُسِكُمْ** ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ **أَنفُسِكُمْ** فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، فالأُولى تتحدث عمّا خبأتم في قلوبكم، والثانية تتحدث عمّا نويتم، والنية في القلب، والله يعلم ما في قلوبكم وبواطنكم وخواطركم وأسراركم.

وقال الله سبحانه: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ **أَنفُسِكُمْ** أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، أي ما تخفون في قلوبكم من نوايا وقرارات، وإنما يبديها الإنسان ويظهرها بكلامه أو أفعاله.

النفس بمعنى العقل:

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]، فالآية ذكرت الأنفس التي تُتَوَفّى حين الموت وهي الأرواح، والأنفس التي تتوفى في منامها وهي العقول.

وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]، وموضع اليقين هو العقل، فأنفسهم هنا تعني عقولهم.

من صفات النفس
التي تحتاج إلى تطهير وتزكية

هذه نماذج مما بينه الله تعالى ونبيه ﷺ من صفات النفس التي يجب تطهيرها ومجاهدتها وتزكيتها:

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣] فبين أن من طبائع النفس إذا تركت من غير تزكية وتطهير أنها تميل إلى السوء وتأمر به.

قال الله جل وعز: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]، فالنفس تُطَوِّع وتهوِّن فعل السوء والمعصية الكبيرة والجريمة.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ[1]: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨و٨٣]، فالنفس تحدث بالسوء وتزينه وتحببه وتحسنه وتدفع إليه.

ومثله قوله تعالى ذاكراً قول السامري: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦].

قال الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، فالنفس تهوى أشياء وتميل إليها وتحبها، وتعرض عن أشياء فتكرهها ولا تميل إليها، تخالف بذلك أمر ربها.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩ والتغابن: ١٦]، فمن صفات النفس عادة الشحُّ، أي البخل، ويجب التطهر منه.

---

(١) أي يعقوب عليه الصلاة والسلام.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ـ إذا هو نام ـ ثلاثَ عُقد، يضرب كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد[1]، فإن استيقظ **فذكر** الله انحلت عقدة، فإن **توضأ** انحلت عقدة، فإن **صلى** انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً **طيب النفس**، وإلا أصبح **خبيث النفس** كسلان»[2]، فالنفس توصف بالنشاط والطيب، كما يمكن أن تكون خبيثة كسلانة، وأعمال الطاعات تكون سبباً في طيبها ونشاطها، وتركُ الطاعة والشيطانُ يكونان سبباً في الخبث والضعف.

قال النبي ﷺ : «إن الله كتب على ابن آدم حظَّه مِن الزِّنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، **والنفس تمنى وتشتهي**، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه»[3]، فمن صفات النفس أنها تشتهي شهواتٍ وتمنى أماني، وما ذكره الحديث هو أماني النفس الباطلة وشهواتها المحرمة، لأنه عدها من الزنا.

---

(١) أي ما زال الليل طويلاً فنم.

(٢) أخرجه البخاري ١٠٩١ ومسلم ٧٧٦.

(٣) أخرجه البخاري ٥٨٨٩ ومسلم ٢٦٥٧.

درجات النفس بين التدسية والتزكية

يقول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا[1]﴾ [الشمس: ٧-١٠].

تبين الآيات أن النفس قابلة لصفات متقابلة، وليست صفات السوء والخبث والغواية ملازمةً لها، بل يمكن أن تتزكى وتَطْهُر؛ لتصير طيبة طاهرة محبة للخير والحق، لتصير ذات صفات حسنة كريمة زاكية، يتطلع إليها كل مسلم.

والمراحل التي يمكن أن يمر بها الإنسان في ترقيه أو تدنيه:

١. النفس الأمارة بالسوء:

أسوأ حالات النفس وأخبثُها أن تكون مُحِبَّةً للسوء والشر والباطل، تأمر به، وترغب فيه، ولا ترى فيه عيباً، قال الله تعالى فيما قصه عن امرأة العزيز:

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣]، والآية تدل على أن الإنسان ما لم يدخل في رحمة الله وهدايته، فإن الأصل في نفسه أنها تميل إلى السوء وتأمره به.

وأعظم السوء سوء الأدب في حق الله تعالى؛ بالكفر والإنكار لوجوده أو صفاته، ثم من السوء: معصية الله بفعل المنكَرات والمذمومات والمستحقَرات.

وصاحب هذه النفس الأمارة بالسوء؛ تحب نفسه السوء وتأمره به، فيندفع إلى السوء والباطل والمعصية، ولا يبالي، كما وصف عبدُ الله بنُ مسعودٍ ﷺ الفاجرَ حين قال: « إن

---

(١) دساها تدسية: أي جعلها خسيسة خبيثة. انظر: لسان العرب لابن منظور: ج٦، ص٨٢، ذكر البخاري عن مجاهد قال: «دساها: أغواها»، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة والشمس وضحاها ... قبل حديث رقم ٤٦٥٨.

المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا »[(١)].

وصاحب هذه النفس يجعل من أهوائه وشهواته حاكماً عليه، فكأن نفسَه إلهُه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وصاحب النفس الأمارة بالسوء تأمره نفسه بالسوء والمعصية والشر، ولا يكره ذلك من نفسه، ولا يرجع إلى عقله، ولا يرجع إلى أحكام الله ليزن بها رغباتِه وأعمالَه، **فإذا أراد أن يزكيها وَجَّه قلبه إلى معرفة الخير والحق، وبحث عنهما، ورغب فيهما.**

وديننا كله حق وخير، فالله تعالى قال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النساء: ١٠٥] وقال: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، والحقُّ والخيرُ في هذه الآيات: الإسلامُ وما فيه من أحكام.

٢. النفس اللوامة:

فإذا زكّى الإنسان نفسه شيئاً ما، فزكى سرّه وقلبه وخاطره وتَوَجُّهَه، فتوجه نحو الخير وأحبه ورغب فيه، وكره الشر وأعرض عنه ولو بفكره وعقله وخاطره وقلبه، فإنه يترقى إلى مرتبة أخرى، فعندئذ لو وقع في المعصية أحياناً فإنه لا يرضى بها، ويحزن على نفسه من وقوعه فيها، ويرفضها بعقله وفكره، قال الله تعالى فيمن هذا شأنه: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ١-٢].

فهذا إنسان تطهَّرت نفسه من حب الشر، لكنه قد يميل بقلبه إلى الشهوة والمعصية أحياناً، فتغلبه نفسه فيقع فيها، لضعفٍ ما زال فيه، أو لغفلة تنوبه، لكنه يراجع نفسه ويلومها إذا أخطأ، ويحزن لمعصيته.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٩٤٩.

وإذا لامَ الإنسان نفسه على المعصية وصدق في كرهه لها؛ استغفر منها، وبحث عن سبيل التخلص منها، وابتعد عن أسبابها، كما يحرص على البعد عن النار، وشغل نفسه بالحق عنها، ورافق الصالحين ليتشبه بصلاحهم، فيوشك أن يترقى إلى حال أحسن وأزكى.

٣. النفس الملهمة:

إذا تعمَّقّ حبُّ الخير وبُغضُ الشر في النفس؛ صار حديث العقل والقلب والنفس في السر والباطن كلُّه متوجهاً نحو الخير والصلاح، فتصير النفس تلهم صاحبها بهما، قال تعالى في شأن هذه النفس: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧-٨].

فالتي ألهمت الفجور هي النفس الأمارة بالسوء، وللنفس اللوامة نصيب من ذلك، والنفس التي ألهمت التقوى هي هذه النفس الطيبة التي نتكلم عنها.

وصاحب النفس الملهمة قد تحقق بصفة المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ [الحجرات: ٧].

والنفس تلهِمُ وتُوسوس، كما للملك إلهام وللشيطان وسوسة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق: ١٦]، توسوس لصاحبها بما تميل إليه وتحبه وترغب به، فإن كانت ترغب في الخير وسوست به وألهمت صاحبها به وتحدثت إليه فيه، وإلا كان حديثها شراً.

وإذا قوّى صاحب هذه النفس حب الخير والتقرُّب؛ تزكّى وترقّى إلى حالة أسمى، لا يرضى معها أن يترك خيراً أو يتأخر عنه؛ فرضاً أو نافلة، خلقاً أو أدباً، عملاً أو قولاً، حالاً أو مقاماً، ظاهراً أو باطناً.

٤. النفس المطمئنة:

إذا أحب العبد الخير والحق وجرى خاطره دائماً فيهما، وصل إلى حد الاطمئنان بهذا الخير والحق، فهو مطمئن إلى الله سبحانه، مطمئن إلى وعد الله، مُسَلِّم له في مقاديره،

مسلِّم له في شريعته وأحكامه، فلا يعارض شيئاً من الحق، قال الله تعالى في حق صاحب هذه النفس: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

وتَعَلُّقُ العبد بربه ـ بكثرة ذكره وتعظيمه ـ هو أعظم ما يورث هذا الاطمئنان، وهذا الاعتماد على الله وهذا الاستقرار على شرع الله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

فلو حدثته نفسه أو شيطانه بشهوة أو معصية؛ فلا اطمئنان عنده إليها، ولا ارتياح عنده منها، وإذا حدثته نفسه أو المَلَكُ بالخير ارتاح إليه وتحرك نحوه ولم يتردد.

صاحب النفس الملهمة الذي لم يطمئن بعد: قد يتجاوب مع ما أُلهم به وقد لا يتجاوب، فيحتاج فيما لم يتجاوب معه إلى مجاهدة نفسه حتى يأتي بالطاعة والخير.

أما المطمئن فلا يجد في نفسه تعباً ولا مكابدة ولا معارضة فقلبه مستسلم لحكم الله عز وجل، لا يرضى معه حَكَماً غيره، لا حُكْمَ نفسه ولا غيره، فهذا الذي تحقق بالإيمان حقاً: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

أهمية التزكية ومكانتها في دين الله وفي حياة الإنسان

١. جاءت الشريعة الإسلامية لتعطي الإنسان الخير كله في الدنيا والآخرة، فبين الله للعبد العلمَ الصحيح، وبين العمل المطلوب، وهيأ وسائل ذلك، وبعث الرسل وهيأ لهم خلفاء يرشدون إلى فعل الخير وترك الشر.

فأعطى ديننا كل الاهتمام لِتطهير الإنسان من سيئاته ولإصلاحه وترقيته، وقد سمّى الله تعالى حال الإنسان بهذا الاعتبار تزكيةً، فقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فكما جاء النبي ﷺ ليتلوَ علينا ما أوحى الله إليه، ويعلمَنا ما في القرآن والسنة من علم وحكمة وأحكام، فقد جعل الله من وظيفته تزكية النفوس، كما بينت الآية.

وكل نصوص الشريعة تزكي النفوس، حتى الآياتُ والأحاديثُ التي تُعلِّمُنا العقائدَ وتُشَرِّعُ الأحكامَ الفقهية، فهي تحتوي معاني التزكية والتربية والهداية.

وبين الله تعالى أن على العبد أن يزكي نفسه وأن تزكيته لنفسه هي فلاحه وتحقيق مصلحته، فقال:

﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤].

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩-١٠].

وبين الله تعالى أن الأعمالَ الصالحة تزكي النفس:

قال سبحانه: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل: ١٧-١٨]، فمِنَ العمل الصالح الذي يتزكى به الإنسان ويتطهر إيتاء المال، وكذلك قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وبيّن النبي ﷺ أن التزكية راجعةٌ إلى الله تعالى، فهي فعله وتقديره ومشيئته، كسائر الأعمال، فكان يدعو: « اللهم آت نفسي تقواها، **وزكها** أنت خير من **زكاها**، أنت وليها ومولاها »(١).

مما سبق يتبين لك أن التزكية واجب عليك **أنت** مأمور به أيها المكلف، وهي من وظائف **النبي** ﷺ أن يرشدك إلى ما فيه تزكيتك، وهي وظيفة وُرَّاثِه العلماءِ من بعده، **والشريعة** قد بينت كلَّ عمل تحصُل به التزكية، وكلَّ صفة من صفات التزكية والطهارة والرُّقِيّ، وكل ذلك يكون بتوفيق **الله** وتقديره ومشيئته.

٢. والتزكية هي التي يستحق بها الإنسان الفلاح والجنة، فلا يكفي علم ولا عمل، ما لم يكن معه تزكية للنفس، قال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن **زَكَّىٰهَا** * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ * جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ **وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ** ﴾ [طه: ٧٥-٧٦].

٣. إن النفس هي المحل الذي **يعلم** الحق، وهي المحل الذي يمكن أن **يعمل** بالخير، فإذا كانت النفس سيئة أو مريضة لم تنتفع مما تعلم من الحق، بل إذا كانت متكبرة معرضة عن الحق صورت الحق باطلاً، ولم تنتفع من الحق، بل تحاربه، وإذا كانت النفس كسولة مائلة إلى الشهوات تركت الخير ولم تعمل به، لذلك كان لا بد من العناية بإصلاح النفس، حتى تكون مستقيمة طاهرة، لتحمل الحق وتعمل به وتتحلى به.

فالنفس الصالحة الزاكية لا تكتفي بمعرفة الحقائق والعقائد من غير أن تتفاعل معها، بل تكون الحقائق محل اهتمامه، فيخضع لها ويوقن بها، ويجعلها المولِّد والمحرِّك لحياته وأعماله وواقعه، فعنها يَصْدُرُ، ومنها يَنطَلِق، فيتحوَّل الاعتقاد إلى واقع يعيش على أساسه، ويسير في الحياة بناءً عليه، وهذا المعنى يطلق عليه الصوفية اسم: **الحال**، إذ يقولون: الدينُ علمٌ وعمل وحال.

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه رقم ٢٧٢٢ عن زيد بن أرقم ﷺ.

٤. التزكية مطلوبة من كل فرد في المجتمع المسلم، ولا يمكن أن ترى الأثر العظيم لتزكية النفس حتى تظهر في المجتمع كله، فتظهر **حقيقة العبودية** فيه لله، وحقيقة الاستقامة، وجمال الخلق الراقي والأدب الرفيع، وحسن المعاملة، وغير ذلك.

ولا يمكن أن تقوم **حضارة** راقية تسعد البشرية إلا على معاملة طيبة وأخلاق راقية، وكل حضارة تنقصها الأخلاق والمعاملات الصالحة فهي مهددة بالزوال والدمار، وأذاها لشعوب الأرض وإفسادُها أكبرُ من الخير الذي تقدمه أو تسعد به البشرية.

والتزكية إذا وجدت في المجتمع المسلم، فإنها وحدها من أعظم وسائل **الدعوة** إلى دين الله، فإن الناس إذا رأوا جمال خلق المسلم وحسن معاملته وأدبه وطيب كلامه، ينجذبون إليه ويميلون إلى دينه الذي تربى عليه وأوصله إلى هذا الجمال والرُّقِيّ، ألا ترى إلى الإسلام كيف دخل كثيراً من البلاد ـ كشرق آسيا وبعض إفريقيا ـ بأخلاق تجار المسلمين وحسن معاملتهم وصدقهم.

٥. وإذا زكى الإنسان نفسه صار إنساناً **طيباً صالحاً جميل الأخلاق جميل الحال، صالحاً بين يدي الله، محبوباً عند الناس، مرتاح الضمير، سليم التفكير، سعيداً في دنياه وأخراه،** فالتزكية تخرِّج رجلاً ربانياً طاهراً زكياً مقبولاً محبوباً خلوقاً عابداً عاملاً داعية مهذباً في قلبه وقالبه، لا تخرِّج مستكبراً مبغوضاً مغروراً وقحاً دعيّاً.

أهداف التزكية ومقاصدها

أهداف التزكية ومقاصدها تندرج تحت هدفين عامّين: تطهيرٌ للنفس، وترقية لها.

وأهداف التزكية إنما هي هدف واحد، هو الهدف الأسمى الذي نتطلع إليه ونسعى إليه، لكنه يمكن أن نسمي هذا الهدف بعشرات التسميات ونَصِفَه بعشرات الأوصاف، وكلها تصب في النهاية في معنى واحد، فكل وصف من هذه الأوصاف يحمل في طياته الأوصاف الأخرى، فيمكن ـ مثلاً ـ أن نسمي الهدف الأسمى بأنه العبودية ويمكن أن نسميه بأنه الإحسان، ولا يكون الإنسان محسناً إلا إذا تحقق بالعبودية، وإذا تحقق بالعبودية على أحسن أوجهها كان محسناً.

وهذا بيان هذه الأهداف:

١. **العبودية**: وهي أهم مطلب إذ لأجلها خلقنا.

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

ومن جعل العبودية بإخلاصها وأعمالها وأخلاقها مقصوده ثبت على الطاعة والعبودية حتى يتوفاه الله.

لكن الذي يجعل لنفسه هدفاً آخر كأن يكون ولياً أو يذوق حلاوة الإيمان؛ فربما أوقف بعض عمله ونوافله وقصَّر في اجتهاده إذا ظن أنه بلغ ما يريد، أو يتوقف عن اجتهاده إذا يئس عن بلوغ المقام الذي جعله لنفسه هدفاً، لكن العبودية وأعمالها لا انتهاء لها إلا بالموت، فمن جعلها مقصوده لا يتركها إلا بالموت.

قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]، واليقين هنا هو الموت، سماه الله يقيناً لأن كل بشر مستيقن من أنه سيأتيه(١).

٢. **الصديقية**: وهي أعلى المقامات وأعظم الدرجات.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، فأرقى الناس النبييون ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون، على تفاوت درجات كل مرتبة.

والعاقل لا يرضى لنفسه بالدون والقليل، فليس بعاقل من لم يطمح إلى الأعلى والأكمل والأعظم أجراً عند الله، وذلك ممكن: « وإنه ليسير على من يسره الله عليه »(٢)، قال تعالى: ﴿ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ﴾ [البقرة: ٦١].

وقدوتُنا في هذا رسولُ الله ﷺ يطلب المزيد، قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا ﴾ [طه: ١١٤]، وقدوتنا فيه أيضاً الصِّدّيقُ أبو بكر ﷺ إذ يطمع بأعلى المراتب ويطمع بأبواب الخير كلها، فقد قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ

---

(١) أنكر أئمة الصوفية على مَن يَدَّعي **سُقوطَ التَّكليفِ** وأحكامِ الشريعة إذا بلغ رتبة اليقين وقوة الإيمان، وممن أنكر ذلك الإمام الجنيد رحمه الله، فالتكليف لم يَسْقُط عن رسول الله ﷺ وهو أعظم الناس يقيناً، وقد استدل بعضُ الصوفية بهذه الآية استدلالاً لطيفاً توهم منه البعض أنهم يقولون بسقوط التكليف، فقال الصوفي: إن الأحكام الشرعية فيها كلفة ومشقة، فإذا بلغ المؤمن رتبة اليقين، ذهبت تلك المشقة وصار يعمل بالأحكام بسجية وحُبّ، لا بتكلف وتثاقل، وقالوا: فالآية تأمرنا بالعبادة حتى ننال رتبة اليقين، فإذا نلنا رتبة اليقين، فعندئذ تصح عبادتنا وتصير تامة ومقبولة، فالآن فلنجتهد، وقد كانت عبادتنا قبل ذلك ضعيفة لا تخلو من حظوظ النفس أو انحراف النية أو التثاقل عن الطاعة، فكانت تحت الصفر، فإذا بلغ اليقين، فقد بلغ نقطة الصفر، فصارت عبادته صالحة يؤديها بحق، فالآن فليتعبد، ليقُوم بحقّ الله بالشكل المطلوب منه، والله أعلم.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٦١٦ والنسائي وابن ماجه.

كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ »، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، **فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا** ؟ قَالَ: « نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ » وفي رواية: « أنت منهم »[1]، فانظر كيف طمع أبو بكر بأن يُدعَى من الأبواب جميعاً، فهو يجتهد في كل باب يستطيعه من أبواب الخير والطاعة.

٣. **الإحسان**: وهو أن يكون العبد طالباً للأحسن في كل شيء، فهو يجعل عبادته على أحسن حال في أداء أركانها وهيئاتها وسننها وخشوعها وتحقيق مقاصدها، وهو في كلامه يتكلم بأحسن الكلام وأزكاه، وفي معاملاته يتصرف بأرقى التعاملات وأحسنها، وفي أخلاقه يكون على أرفعها وأجملها وأرقها وألطفها أعظمها وأحسنها.

وقد أمرنا الله بالإحسان وبين لنا أن المحسن محبوبٌ عنده: ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والنبي ﷺ حينما عرف الإحسان بقوله: « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[2]، إنما عَرَّف الإحسانَ بأعظم وسائل الوصول إليه، وهي مراقبة الله وتذكر رؤيته لك.

٤. طلب **التقوى** وآثارها: لما كانت المكرمة عند الله بالتقوى فهي مطلب الصادقين وسبيل الفلاح ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، والتقوى هي حالة الحذر والخوف من الله تعالى التي تحجز العبد عن فعل المعاصي وتدفعه إلى فعل الطاعات ليقي نفسه من غضب الله وعذابه.

والتقوى لا تخرج عن هذا المعنى حقيقة، لكنّ من العلماء من عرّف التقوى بثمراتها وآثارها، ومنهم من عرّفها بمقدماتها، ومنهم من عرفها بما يرافقها من الأحوال، وغير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٧٩٨ ومسلم رقم ١٠٢٧، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٠ ومسلم رقم ٩، عن أبي هريرة ﷺ.

والتقوى درجات، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا **ٱتَّقَوا۟** وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ **ٱتَّقَوا۟** وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ **ٱتَّقَوا۟** وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣]، فذكر الله تعالى التقوى مع رتبة الإسلام، ثم التقوى مع رتبة الإيمان، ثم التقوى مع رتبة الإحسان، ثم ندبنا الله تعالى إلى أن نتطلع إلى تقوى المحسنين فقال: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، والله يحب المسلمين والمؤمنين لكنه ذكر حبه للمحسنين لنتطلع إلى رتبة التقوى العليا التي هي التقوى مع الإحسان.

والتقوى كما هي سبب في نجاة صاحبها، فهي سبب في ثمرات عظيمة:

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]، والصادق الراغب في تزكية نفسه يحتاج إلى تفريق بين الحق والباطل، حتى لا يزيغ من حيث لا يشعر، وقد جعل الله التقوى سبيلاً إلى ذلك، وعداً منه سبحانه.

ويقول عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، فالتقوى سبيل السعادة والراحة والاطمئنان والنجاة، فلا يقع العبد في مأزق أو مصيبة إلا ويجد من الله العون والخلاص، فيصفو قلبه، ويركن إلى ربه، وذلك من أعظم أسباب وسُبُل الإقبال على الله والاشتغال بطاعته ودعوته.

ويقول جل جلاله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]، وبتيسير الله تقضى الحوائج وتتيسر المطالب، وتُبارك الأعمال والأوقات، وتنتفي المنغِّصات والمكدرات.

ثم إن التقوى سبيل بركة الأجر وتكثيره، كما هي سبيل مغفرة الذنوب، يقول سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥]، فهنيئاً لأهل التقوى.

٥. **طلب الكمال**: ولا يزال الرجل يطلب الأعلى والأكمل، حتى ينافس الرجال في الكمال، وليس هذا كمالَ ألوهية، فإن كمال الألوهية والربوبية هو لله وحده، لا يشاركه فيه أحد لا بقليل ولا بكثير، أما كمالُ العباد فهو كمالُ عبودية، وقد بين النبي ﷺ أن هذا الكمال موجود وممكن وأهله كثير، فلِمَ لا نتطلع لأن تكون واحداً من الكاملين ؟

قال رسول الله ﷺ : « **كَمُلَ من الرجال كثيرٌ**، ولم يكمل من النساء إلا آسيةُ امرأةُ فرعون ومريمُ بنتُ عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »(١)، على أن هذا الكمال نسبي يتفاوت فيه أهله، فليس كمال الصديقين ككمال الأنبياء، ومن لم يستطع نوال الكمال فليبذل جهده للقرب منه، وللسير في طريقه.

٦. **إرادة وجه الله تعالى ورضوانه والجنة**: فكل ما يفعله المسلم ينبغي أن يكون مريداً به وجه الله ورضوانه، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى يصف حال المؤمن الذي جعل هدفه رضوان الله فهو يبحث عما يرضي الله ويتبع طريق ذلك: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

واتباع رضوان الله هو سبب في هداية اللهِ للعبدِ: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٢٣٠ ومسلم رقم ٢٤٣١، عن أبي موسى الأشعري ﷺ.

والجنة هدف لمن يزكي نفسه، فهي جزاؤه على تزكيته لنفسه، كما قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٦].

وإذا كانت الجنة هدفاً للمسلم، وهي نعم الهدف والمقصد، فرضوان الله أيضاً هدف، وهو أعظم وأكبر من الجنة، كما بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

٧. **الاستقامة**: وهي أن يلتزم الإنسان بأمر الله كله، في الجملة، والاستقامة هي سبيل إلى الهدف من وجه، لكنها من حيث هي مطلوبةٌ من العبد في الدنيا تصير مقصوداً له يبحث عنه ويهدف إليه.

قال سبحانه: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[هود: ١١٢].

وقال ﷺ: « قل آمنت بالله ثم استقم »(١).

والاستقامة تشمل **استقامة الباطن والظاهر** على أمر الله « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن الله ينظر إلى **قلوبكم وأعمالكم** »(٢).

٨. **السبق والقرب**: إن الذي يضع في باله أن يسابق الناس في دراسة أو عمل أو رياضة، لا شك أن مسابقته تفتح أمامه باب الاجتهاد والمنافسة في الرتب العالية، وأولى ما يتنافس فيه الناس مراتب الآخرة، وقد أمرنا الله بالمسابقة: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[الحديد: ٢١].

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤.

وقد ميز الله السابقين عن أهل الجنة حينما خصهم بالقرب فقال سبحانه: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ١٠-١٤]، فذكر لهم جنة وميزهم بأنهم مقربون.

بينما لم يذكر لأصحاب اليمين إلا جنتهم: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ... ﴾ [الواقعة: ٢٧-٢٨].

ولا شك أن للمقرب حظوة ليست لغيره، ألا ترى لو أن ملكاً من ملوك الدنيا قضى جميع حوائجك، وأعطاك جميع شهواتك ورغباتك، وأسكنك قصراً وبستاناً، وجعل لك خدماً ورتبة، لكنه لم يخُصَّك بمجالسته، ولم يفتح لك بابه في كل وقت تشاء، هل تكون كمن أعطاه ذلك العطاء ثم زاد عليه أن قال له: ادخل عليَّ متى شئت، وجعله نديماً له، ومقدماً عنده ومُكرَّماً، فهل يستويان ؟

لأجل ذلك فالقرب واللقاء أعظم من الجنة، قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، فسمى الجنة حسنى، وسمى النظر إلى وجهه زيادة، ليبين لنا أنه أعظم منها وأزيد.

وقد بينت الآيات السابقة أن هؤلاء المقربين قليل في آخر الزمان، فاطمع أيها العبد المسلم أن تكون منهم، وشمّر واتخذ الأسباب للوصول إلى هذه الرتبة.

٩. **الولاية**: وهي مقصود للعبد يصل به إلى الأمان عند الله، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٣].

وقد بين الله تعالى كم هي كرامة وليه عنده حينما قال في الحديث القدسي: « مَنْ عادَى لي ولياً فقد آذنته بحرب »(١).

(١) أخرجه البخاري رقم ٦١٣٧ عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ .

ـ **ومن أهداف المسلم** أن يتحقق بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ وقوله: ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾.

وما ذكرناه جميعاً يتعلق بالفرد ابتداءً ثم يكون نفعه على **المجتمع** من حوله، ويجوز أن يكون قصد الإنسان وهدفه بعد ذلك متعلقاً بأهل الإيمان **وأهل الأرض** جميعاً، **كمن يهدف إلى إقامة حكم الله** وشرعه في الأرض، لينقل العبودية إلى غيره، فالله لا يريدك عبداً وحدك، وإنما يريد أهل الأرض جميعاً عباداً له.

قال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال عز وجل: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ** فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

حُكْمُ التزكية

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾، في هذه الآية وغيرها رَتَّب الله الفلاحَ ودخولَ الجنة على وجود التزكية عند الإنسان، ورتب الخيبة ودخول النار على عدم التزكية، فدل ذلك على أن التزكية أمر واجب لا ينجو الإنسان إلا به.

ومن التزكية وأعمالها ـ الفكرية والقلبية والعملية ـ ما أوجبه الله تعالى، ومنها ما هو مندوب، فيكون أصل الفلاح مترتباً على واجباتها، ويكون كمال الفلاح وزيادته مترتباً على مندوباتها، فإذا كانت التزكية تتعلق بالعقائد، كتطهيرِ الإنسانِ فكرَه من الشكوك في صفات الله وكتابه واليوم الآخر، فالتزكية التي يحتاجها هذا الإنسان هي من أعلى الفرائض، لأنها قضية إيمان واعتقاد[١].

ـ وقد يكون الفعل الذي نزكي به أنفسنا مندوباً، لكنه وسيلة إلى تحقيق فرض من الفرائض؛ فيصير المندوب واجباً لأجل ذلك، لأن «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، والتزكية هي السبيلُ لتحقيق أوامر الله وترك معاصيه؛ لذلك فهي واجبة وفرض حيثما كانت وسيلةً لإقامة فروض العين. وتكون التزكية مندوبة حيثما كانت وسيلة لإقامة المندوب.

وكل وسيلة مشروعةٍ نتوصل بها إلى التزكية من علم أو مجاهدة للنفس أو صحبة للصالحين أو ذكر أو غير ذلك؛ تأخذ حكم ما تؤدي إليه من تثبيت الإيمان أو إقامة الفرائض أو التحقق بالفضائل.

ولا يزال المؤمن العاقل يطلب المزيد من التزكية، يطلب **حدها الأعلى** والأكمل وهو أن يشابه رسول الله ﷺ ويتشبه به قدر استطاعته، ويتابعه في كل شيء، ظاهراً وباطناً، وعلماً وعملاً، ومعاملةً وهيئةً، وخُلُقاً وعبادة، وحالاً وصفاءً، ودعوة وتعليماً، وجهاداً وحكماً.

(١) هناك فرائض إيمانية اعتقادية إذا تركها الإنسان كفر، وهناك فرائض فقهية عملية إذا تركها الإنسان صار فاسقاً.

نماذج من تزكية النبي ﷺ لأصحابه

من وظائف النبي ﷺ تزكية أصحابه، وهذه نماذج نذكرها من تزكيته لأصحابه رضي الله عنهم:

١. سمع رسول الله ﷺ بعض الناس يقولون: (ما شاء الله وشئتَ) فقال ﷺ: « لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن **قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان** »[١]، ومعلوم أن الصحابي حينما يقول: (ما شاء الله وشئت) يعلم أن مشيئة رسول الله ﷺ ليست كمشيئة الله عز وجل، وأن مشيئة الله غالبة، فإذا لم يشأ الله شيئاً فلا مشيئة لغيره، لكن ظاهر عبارته يُشعِر بأنه يُسوِّي بين مشيئة الله ومشيئة غيره، فيُخشى أن يُظن به أنه يعتقد اعتقاداً باطلاً، فصحح له ﷺ عبارته، وعلَّمنا كيف نقول، بما لا يورث إشكالاً عند الآخرين إذا سمعوا هذه العبارة، فقال له: « قل: ما شاء الله ثم ما شاء فلان » وفي هذا تطهيرٌ وتزكيةٌ لأقوال الإنسان وعباراته، وتزكيةٌ للاعتقاد من أن يدخله الباطل، وتنبيهٌ إلى التأدب بعدم الإخلال بالتوحيد لله أدنى إخلال.

٢. قال ﷺ لأبي أمامة الباهلي رضي الله عنه حينما طلب منه أن يدله على عمل ينفعه ويدخله الجنة، فقال ﷺ: « **عليك بالصيام**، فإنه لا عِدْلَ له »[٢]، والنبي ﷺ بهذا التوجيه يريد تزكيته، فيحركه إلى التزكية من خلال عمل ظاهر هو الصيام، مبيناً له أن لا عِدْلَ له، أي لا مثيل له في الأجر ولا مثيل له في أثره في تزكية النفس، إذ كل عبادة لها أثرها الخاص في تزكية النفس.

وقد عمل أبو أمامة بوصية رسول الله ﷺ، فما رؤي أبو أمامة ولا امرأته ولا خادمه إلا صياماً، قال أبو أمامة: فلبثت بذلك ما شاء الله ثم أتيته فقلت: يا رسول الله أمرتنا

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٣٣١٣ وأبو داود رقم ٤٩٨٠ والنسائي في سننه رقم ١٠٨٢١ عن حذيفة رضي الله عنه، وللحديث شواهد.

(٢) أخرجه ابن حبان رقم ٣٤٢٦ وفي رواية: «لا مثل له»، والحاكم وصححه رقم ١٥٣٣، وأحمد نحوه رقم ٢٢١٩٤.

بالصيام فأرجو أن يكون قد بارك الله لنا فيه، يا رسول الله فمرني بعمل آخر، قال: «اعلم أنك لن تسجد لله سجدة إلا رفع الله لك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة»[١]، وهذا أيضاً توجيه آخر إلى عمل يكون سبباً في التزكية، شجعه عليه بما ذكر من أجره العظيم وتطهير النفس به من الذنوب والخطايا.

٣. قال الرسول ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: « **لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل** »[٢]، فوجهه إلى المحافظة على عمل كان يعمله، يريد تزكية عبد الله بذلك ودفعه إلى عمل صالح يزيده طهارة وقرباً من ربه، ويعلمه المحافظة على الأعمال لما فيها أيضاً من المحافظة على صلاح النفس.

٤. أتى شابّ إلى النبي ﷺ وقد اشتدت شهوته وغلبت عليه حتى صار يفكر بالزنا، ولكنه مع ذلك لم يستعجل إلى الحرام فجاء يستأذن رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله ائذن لي بالزنا»، فلم يزجره النبي ﷺ ولم يوبخه أو يستحقره، ولكنه طهره من الميل إلى الفاحشة وزكاه بالإقناع والدعاء.

عن أبي أمامة ﷺ أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي في الزنا، قال: فصاح القوم به وقالوا: مَهْ مَهْ[٣]، فقال رسول الله ﷺ: اُدْنُهْ[٤]، فدنا حتى كان قريباً من رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أتحبه لأمك؟ فقال: لا يا رسول الله، جعلني الله فداك، فقال رسول الله ﷺ: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٢١٩٤، والنسائي في السنن الكبرى نحوه رقم ٨٦٩٨، والعبارة الأخيرة قال النبي ﷺ نحوَها لثوبان ﷺ، كما في حديث مسلم رقم ٤٨٨.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١١٠١ ومسلم رقم ١١٥٩.

(٣) أي اسكت.

(٤) أي قَرِّبْ مني.

لأخواتهم، ثم ذكر مثل ذلك في العمة والخالة، ثم طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو له، فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه»، فلم يكن بَعْدُ ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1].

فنَبَّه عقل الشاب من خلال هذه الأسئلة، ونأخذ من هذا قاعدة، أن من أعظم ما يزكَّى به الإنسان الفكرةَ الصحيحة التي تُقنع الإنسان، وتُغْرَسُ في عقله وقلبه، ثم دعا النبي ﷺ وهذا سبيل لتزكية الآخرين أيضاً فخرج وقد طارت الشهوة من قلبه وفكره.

٥. عن أبي بن كعب ﷺ قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فَقَرَأَا، فحسن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية[2]، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني **ضرب في صدري، ففضت عرقاً، وكأنما أنظر إلى الله** عز وجل فَرَقاً[3]، فقال لي: « يا أُبَيّ أُرْسِلَ إليّ أنِ اقْرَإِ القرآنَ على حَرْفٍ، فرددت إليه أن هَوِّن على أمتي، فرد إلي الثانية: اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتي، فرد إلي الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، فلك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم ﷺ »[4].

فهاهنا كانت تزكية النبي ﷺ على سبيل المعجزة الخارقة، فبضربة من سيدنا نبي الله ﷺ على صدر أُبيّ انتقل أُبيّ من حالة شك وتكذيب تزيد على حالة الجاهلية إلى أعلى

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد في مسنده ج٥ ص٢٥٦ رقم ٢٢٢٦٥ والبيهقي في شعب الإيمان ج٤ ص٣٦٢ رقم ٥٤١٥ والطبراني في الكبير.

(٢) أي شك بالنبي ﷺ أكثر من شكه الذي كان عنده قبل أن يُسلم.

(٣) «فرقاً»: شدة الخوف والهيبة والخشية.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٨٢٠.

مقامات الإحسان وكأنه يرى الله، وحصل له فيها من تعظيم الله والهيبة منه شيئاً عظيماً وهو ما عبر عنه بقوله: « فَرَقاً » أي من شدة الخشية.

٦. وقد كانت أفعالُ رسول الله ﷺ وأقوالُه بجمالها وكمالها سبيلاً من أعظم سبل تزكيته لأصحابه، تدعوهم إلى متابعته والاقتداء به، لما يرون من حُسن حاله ومقاله وفعله، فالقدوة الحسنة من وسائل تزكية الآخرين، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكما أن رسول الله ﷺ كان من وظيفته أن يزكي أصحابه، فإن هذه الوظيفة تنتقل إلى وُرّاثِ النبي ﷺ مِن بَعده، الذين ورثوا من علمه وورثوا من عمله وورثوا من صلاحه وحاله ومن دعوته وجهاده ﷺ ، فمِنْ واجبِ العلماء والصالحين والمربين أن يقوموا بتزكية الناس بالقول السديد والحال الطيب والقدوة الحسنة.

الفصل الثاني
مقدمات عن التصوف

من أقوال أئمة الصوفية في
تعريف التصوف وبيان حقيقته

قال **الكلاباذي**[١] **ت ٣٨٠ هـ** في كتابه (**التعرف لمذهب أهل التصوف**):

« وقال أبو علي **الرّوذباري** (ت ٣٢٢ هـ) - وسئل عن الصوفي - فقال:

"من لبس الصوف على الصفاء، وأطعم الهوى ذوق الجفاء، وكانت الدنيا منه على القفا، وسلك منهاج المصطفى".

وسئل سهل بن عبد الله **التستري**: من الصوفي؟ فقال:

"من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر[٢]، واستوى عنده الذهب والْمَدَر".

وسئل **أبو الحسن النوري**: ما التصوف؟ فقال:

"ترك كل حظ للنفس".

وقال سيد الطائفتين الإمام **الجنيد** رحمه الله (ت ٢٩٧هـ):

"التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني" »[٣].

---

(١) وهو حنفي المذهب، عالم بالعقائد والحديث والتصوف وعلوم أخرى.

(٢) (وانقطع إلى الله من البشر): أي لم ينشغل بهم عن الله وعبادته وذكره، و(المدر): التراب.

(٣) النصرة النبوية، مصطفى المدني، ص٢٢، نقلاً عن كتاب: حقائق عن التصوف: الشيخ عبد القادر عيسى، ص ٨، وانظر: الرسالة القشيرية، ص ١٢٦.

وسئل الجنيد عن التصوف؟ فقال:

«تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية[١]، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة».

« ونقل القشيري (٤٦٥ هـ) في رسالته عن سعيد بن عثمان يقول: سمعت **ذا النون المصري** (٢٤٥ هـ): "من علامات المحب لله: متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسُننه".

ويحكى عن **السري** أن قال: "التصوف اسم لثلاثة معان، وهو الذي لا يطفئ نورُ معرفته نورَ ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله" »[٢].

وقال بهاء الدين محمد **النقشبندي** (٧١٧-٧٩١ هـ): « طريقتنا هي الأدب ».

وقال أبو الحسن **الشاذلي** رحمه الله (ت ٦٥٦هـ): « التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية »[٣].

وقال القاضي شيخ الإسلام **زكريا الأنصاري** رحمه الله (٨٢٣-٩٢٦هـ): « التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن، لنيل السعادة الأبدية »[٤].

---

(١) (ومفارقة الأخلاق الطبيعية): كالشهوة والكِبْر والحسَد، (وإخماد الصفات البشرية): كالعجلة والحرص والطمع، (ومجانبة الدواعي النفسانية): كالرياء والنفاق، (ومنازلة الصفات الروحانية): كالصفاء والطمأنينة والتوكل والخشية.

(٢) مذكرات في منازل الصديقين والربانيين، ص ٩.

(٣) نور التحقيق، حامد صقر، ص٩٣، نقلاً عن كتاب: حقائق عن التصوف، ص ٩.

(٤) شرح الشيخ زكريا الأنصاري على الرسالة القشيرية، مطبوع على هامش « الرسالة القشيرية »، ص ٧.

وقال **ابن عجيبة** رحمه الله (ت ١٢٢٤هـ): « التصوف: هو علم يُعرَف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفيةُ البواطن من الرذائل، وتحليتُها بأنواع الفضائل ... وأولُه علم، ووسطُه عمل، وآخره موهبة »[١].

قال الدكتور محمد الصادق عرجون في تعليل تعدد تعريفات الصوفية للتصوف إلى مئات التعريفات التي تختلف اختلافاً بيناً: « إن كل سالك في الطريق إلى الله تعالى له حال أو أحوال، وله ذوق ومشرب، بل أذواق ومشارب تتجدد معه بتجدد سيره وهمته في السير، وما يُكشَفُ له من معالم الطريق في سيره، فإذا أراد أن يعبر عن مشاهده وحاله؛ عبَّر بما يُمليه عليه حاله في وقته، فإذا جاوزه تغيرت المشاهد والمعالم، ولا بد أن يتغير التعبير، ومن هنا يمكن فهم ما يُرى في علوم القوم وكلماتهم من اختلاف في التعبير »[٢].

---

(١) معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ابن عجيبة الحسني، ص٧.
(٢) التصوف في الإسلام، منابعه وأطواره، ص ٦.

عقيدة الصوفي عند أهل السنة

قال القشيري: « اعلموا ـ رحمكم الله ـ أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة، من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، وعرفوا ما هو حق القدم، وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم، ولذلك قال سيد هذه الطريقة الجنيد رحمه الله: التوحيد إفراد للقدم من الحدث، وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد، كما قال أبو محمد الجريري ـ رحمه الله ـ: من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده؛ زلت به قدم الغرور في مهواة من التلف »[١].

قال أبي الشيخُ سعيد حوى رحمه الله: «الصوفي الحق ليس له عقيدة خاصة به، بل عقيدته هي عقيدة أهل الحق، ولكنه سائر في الطريق التي تصبح فيها هذه العقيدة شعوراً عنده، فلا يكون انفصام بين فكره وقلبه، ومن ثم فهو لا يستحدث عقيدة، بل يستشعرها، وإذا تحدث فإنما يتحدث عن شعور، ويسجل تجربة، فإذا تجاوز هذا فقد ظلم، وإذا لم يحمل كلامه على هذا مع اعتقاده عقيدة الحق؛ فإنه مظلوم، والعدل طيب»[٢].

وقال أبي: « ومن ههنا نعلم أن التصوف مبني على مذاهب أهل السنة والجماعة في الاعتقاد والفقه، فالصوفي مقيد في العقائد بمذهب أهل السنة والجماعة، ومقيد في الفقه بفتاوى أهل السنة والجماعة، والسير على مذاهبهم الاعتقادية، ويحكم ذلك كله الكتاب والسنة، فهو يمتاز على غيره بالعمل والتحقق»[٣]، ثم ذكر نماذج على ما ذَكَر من كلام أئمتهم، ومن ذلك: « وقال الشيخ أحمد الزروق في قواعده: (فنكفر من آل قوله لمحال في معقول

---

(١) الرسالة القشيرية، ص ٢.

(٢) جولات في الفقهين الكبير والأكبر، ص ١٠٧.

(٣) مذكرات في منازل الصديقين والربانيين، ص ٦.

العقائد، ونبدع من آل به لذلك في منقولها(١)، إن التزم القول باللازم، وإلا نظر في شبهته، فنجري له حكمها على خلاف بين العلماء، في لازم القول).

والشيء الذي أخذناه عن شيوخنا في الله، أنهم كانوا وهم يدرسوننا كتب عقائد أهل السنة والجماعة يقولون: ما ترونه مخالفاً لهذه العقيدة الحق، فارْم به ورُدَّه »(٢).

---

(١) ومعنى كلامه أن من أثبت في العقائد أمراً مستحيلاً عقلاً، فإنه يكفر، ومن استند إلى نصٍّ قطعيّ الثبوت ففهمه على وجه مستحيل عقلاً، فإنه مبتدع، أضاف إلى عقائد الدين ما لا يصح، أما إن فوض معناه إلى الله، فلا إشكال، ومِثْل ذلك يكون مبتدعاً: مَن أنكر شيئاً من نصوص الشرع الآحاد، لا ينفيه العقل ولا يثبته، فهو مبتدع مخالف لطريق أهل السنة والجماعة.

(٢) مذكرات في منازل الصديقين والربانيين، ص ٧.

أهل السنة والتصوف

أهل السنة: اتجاه عقائدي وفقهي وصوفي، ولهم أئمتهم المعتبرون في العقائد والفقه والتصوف:

أولاً: الحاجة إلى علم التصوف، وتكميله للعقيدة والفقه، **ومبررات نشوئه ووجوده:**

كما أن علم العقيدة والفقه يرجع إلى الكتاب والسنة، ووجود موضوعاتهما في الكتاب والسنة لم تمنع من نشوء عِلْم باسم العقيدة وعِلْم باسم الفقه، فكذلك مضمونات علم التصوف موجودة في الكتاب والسنة، وذلك لا يمنع نشوء علم يختص بذلك(١)، فالأمة احتاجت إلى علماء يتخصصون في هذه العلوم، ويستنبطون مسائلها ويقربونها إلى الناس، فالله أمر الناس أن يرجعوا إلى أهل العلم والذكر والاستنباط.

«فعندما تقرأ الكتاب والسنة تجد كلاماً كثيراً عن القلب والإيمان والذوق وأمراض القلوب ودواء هذه الأمراض، وتجد كلاماً عن صمم القلب وعماه، وعن سلامته وسقمه، وعن تقواه وفسوقه، وعن النفس البشرية، عن زكاتها وعن فجورها، وأمثال هذه المعاني، فشيء عادي أن يسجل علماء المسلمين كل ما له علاقة بهذه المعاني وهذه القضايا

---

(١) وينبغي احترام أهل كل تخصص، والرجوع إليهم في علمهم، قال الإمام أبو نصر السراج الطوسي رحمه الله (ت ٣٧٨ هـ): « ولكل صنف من أهل العلم في علمه دواوين ومصنفات وكُتب وأقاويل، ولكل صنف منهم أئمة مشهورون قد أجمع أهل عصرهم على إمامتهم، لزيادة علمهم وفهمهم، ولا خلاف في أن أصحاب الحديث إذا أشكل عليهم علم من علوم الحديث وعلل الأخبار ومعرفة الرجال لا يرجعون في ذلك إلى الفقهاء، كما أن الفقهاء لو أشكل عليهم مسألة في الحَلِيَّة والبَرِيَّة والدُّور والوصايا لا يرجعون في ذلك إلى أصحاب الحديث، وكذلك مَن أشكل عليه علم من علوم هؤلاء الذين تكلموا في مواجيد القلوب ومواريث الأسرار ومعاملات القلوب، ووصفوا العلوم واستنبطوا في ذلك بإشارات لطيفة ومَعانٍ جليلة؛ فليس له أن يرجع في ذلك إلا إلى عالم ممن يكون هذا شأنه، ويكون ممن قد مارس هذه الأحوال ونازلها واستبحث عن علومها ودقائقها، فمن فعل غير ذلك فقد أخطأ، وليس لأحد أن يبسط لسانه بالوَقِيعَة في قومٍ لا يعرف حالهم، ولم يعلم علمهم، ولم يقف على مقاصدهم ومراتبهم، فيَهْلِك ويَظُنُّ أنه من الناصحين، أعاذنا الله تعالى وإياكم » اللمع في التصوف، ص٢٣.

ضمن سجل خاص، وأن ينشأ نتيجة لذلك علم خاص في كل ما له علاقة في حيثيات هذه المعاني، وكان هذا العلم هو علم التصوف والسلوك»[١].

«هل كل إنسان أحاط بالكتاب والسنة، وعنده قدرة أن يجمع النظير إلى النظير، وأن يعرف تفصيل المجمل، وأن يضع الأمور في مواضعها، وهل الناس متساوون في الفهم، وفي بعد النظر وفي عمق الإدراك؟

إن الذين ينفرون المسلم العادي من أخذ العلوم من كتبها وأهلها يطولون عليه الطريق، بل يمنعونه من الوصول...

فذلك الطريق الأقصر لتحصيل العلم والتعرف عليه، وإذا كان لا بد من وجود علم فلا بد كذلك من تحريره وتنقيحه، فكيف إذا حدث لهذا العلم ما حدث لعلم التصوف المحرَّر من كونه سار في وادٍ والتصوف العملي سار في واد آخر؟

ونقصد بعلم التصوف المحرر ههنا: التصوف العلمي المحرر على ضوء الكتاب والسنة، والمرضي من قبل العلماء الراسخين في العلم»[٢].

«إن للمسلمين خلال العصور أئمتهم في الاعتقاد، وأئمتهم في الفقه، وأئمتهم في التصوف والسلوك إلى الله عز وجل.

فأئمتهم **في الاعتقاد** كأبي الحسن الأشعري، وأبو منصور الماتريدي.

وأئمتهم **في الفقه** كثيرون، منهم أبو حنيفة والشافعي ومالك وأحمد بن حنبل والإمام زيد والإمام جعفر الصادق.

وأئمتهم في **التصوف** كالجنيد[٣].

---

(١) تربيتنا الروحية، ص ١٧.

(٢) تربيتنا الروحية، ص ١٨.

(٣) ومنهم: الحسن البصري والمحاسِبي والكَرْخي والغزالي والرفاعي.

وهؤلاء وأمثالهم كل في اختصاصه حيث ثبت النقل عنه؛ قدم أصفى فهم للكتاب والسنة، ومن ثم أجمعت الأمة على اعتماد أقوالهم وقبولها، في خضم اتجاهات لا تعد ولا تحصى من الاتجاهات الباطلة والزائفة، ومنها الذي مات، ومنها الذي لا زال حياً»[١].

ـ ولا يستغنى بالعقيدة والفقه عن علم التصوف، « افتح الآن كتاب توحيد وكتاب فقه؛ فإنك لا تجد فيهما أي إشارة لقضية القلب وعلومه، فكتب التوحيد تعصم العقل من الخطأ في باب العقائد، وكتب الفقه تعصم العمل من الخطأ، ولكن لا تجد في هذه الكتب أي تفصيل في باب القلب والنفس والشعور، وهذا وحده يشير إلى أن هناك علماً مكملاً لهذه العلوم، وقد اصطلح على أن يسمى هذا العلم علم التصوف، أو علم السلوك إلى الله عز وجل.

ثم افتح الآن كتاب عقائد أو كتاب فقه؛ فإنك لا تعثر فيهما على بحث عن أدب الحياة والتعامل، وهذا يشير إلى أن هناك فراغاً ما موجوداً لا بد أن يملأه علم من العلوم، يكمِّل بناءَ عِلْمَيِ الفقه والعقائد في هذا الباب، وينبثق عن الكتاب والسنة كما انبثق ذانك العِلْمان.

وفعلاً فإننا نجد أن كتب التصوف هي التي تسد هذا الفراغ، ومن ثم فإنك تجد أن كل باب من أبواب العقائد لا بد أن يوجد ما يكمله في باب التصوف، وكل باب تقريباً من أبواب الفقه لا بد أن يوجد ما يكمله في باب التصوف والسلوك »[٢].

ولما كان التصوف هو التزكية وهو أحد جوانب الدين عند أهل السنة والجماعة؛ كان لا بد من نشوء هذا العلم ونشوء من يعتني به، ومن هنا نَشَأَتْ **الطُرُق الصوفية** التي تعتني بهذا الجانب، **وهي طرائق في السلوك ومناهج في تربية السالكين**، ترجع كلها إلى الكتاب والسنة، كما أن الفقهَ مذاهبُ في فَهْمِ الكتاب والسنة واستنباط أحكامه، وكلهم من رسول

(١) جولات في الفقهين الكبير والأكبر، ص ١٩.

(٢) جولات في الفقهين الكبير والأكبر، ص ١٠٤-١٠٥.

الله ﷺ ملتمس، وهي طرق لاقت القبول في الأمة، ولا يَغُرَّنَّك تَطَفُّلُ المدَّعِين والمنتسبين بغير صدق ممن شَوَّهُوا التصوف.

قال الدكتور صلاح أبو الحاج وهو يعدد الجوانب التي اعتنى بها أهل السنة والجماعة، فذكر الفقه والعقيدة والسلوك، فقال: « والثاني: **الجانب السلوكي**: ويمثّله طُرُقٌ عديدةٌ **كالرِّفاعية والقادرية والنَّقْشَبَنْدِيَّة والشاذلية والتِّيجانِيّة**، وكُلّها تسلك سُبُلاً تعين على تزكية النفس وتخليصها من رذائلها، وتعمق الأدب والإخلاص لله ﷻ، معتمدة في ذلك على الهدي القرآني والنبوي وما أُثِرَ عن الصحابة والتابعين وأئمة الدين في تطهير النفس وتَنْقِيَتِها »[1].

وقال: « ومن الدّلائل الظّاهرة على أن التصوفَ يمثِّل الجانب السلوكي عند أهل السنة أنك تجد كبار الأئمة وعلماء الأمّة كانوا يأخذون به ويسيرون فيه، **كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والنوويّ والسُّبْكِيّ والغَزاليّ والسُّيوطي وابن حَجَر العَسقلاني وابن حَجَر الهيتمي والقاريّ والزبيديّ وابن عابدين واللكنويّ** وغيرهم »[2].

ثانياً: التصوف تبع للعقيدة السليمة والفقه المعتبر، وليس العكس:

قال أبي يرحمه الله: « من أعظم أعلام التصوف المجمع على إمامتهم عند المسلمين: الجنيد، والجنيد نفسه كان على مذهب أبي ثور في الفقه، أي لم يكن مجتهداً، ومن ثم فالصوفي في العقائد محكوم بكلام الأصوليين، وفي الفقه محكوم بكلام أئمة الاجتهاد، فالتصوف إذن محكوم بالعقائد والفقه، فهو علم، ولكن هو علم التحقق بما ذكره الأصوليون والفقهاء، أو علم التحقق بالكتاب والسنة على ضوء الفهم الصحيح لهما، فالصوفي لا تأتي إمامته إلا من حيث كونه متحققاً عملياً بما ذكرَته النصوص من أخلاق باطنة، تنبع عنها أخلاق ظاهرة.

---

(١) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، ص ٦٥.

(٢) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، ص ٥٠.

فإذا خرج التصوف عن ذلك، وتكلم الصوفي بغير ذلك فعندئذ تكون الكوارث، وقد كانت ... فالتصوف مقيد في الأعمال بالفقه، وفي النظريات بأصول العقائد، والكل مقيدون بالكتاب والسنة، وبضوابط الاستنباط من الكتاب والسنة، فماذا حدث؟

اعتبر الصوفي نفسه هو الأصل، فأصبح هو الحاكم على الفقيه وعلى الأصولي، فصار يقرر مسائل العقيدة والأصولي له فيها تبع، ويُحدِّث عن العمل والفقيه له تبع، فصرت تجد كتب التوحيد تقرر ما أثبته الصوفي مما هو خارج عما قرره أئمة التوحيد، وصرت تجد كتب الفقه تقرر ما أثبته الصوفية وما فعلوه مما لم يتعرض له في الأصل إمام من أئمة المذاهب، ومما لا يجري على أصولهم.

وتكلم بعض الصوفية بما لو سمعهم به الصحابة لقتلوهم دون تردد.

وتوسعوا في دوائر الفهم للنصوص حتى خرجوا على بديهيات الفهم، فتراهم مثلاً يحملون الإرادة التشريعية على الإرادة القدرية، مما هو إخراج للكلم عن مواضعه.

وغلا بعض الصوفية بأئمتهم حتى عاملوهم كأرباب، لدرجة أن بعضهم ترك الصلاة والأعمال بأمر شيخ من شيوخ الضلالة ... »[1].

ورجوع الصوفي إلى الفقيه والمحدث والأصولي أَمْرٌ قَرَّره أئمةُ التصوف ونبهوا إليه:

قال الشيخ **أحمد زروق** رحمه الله (٨٤٦-٨٩٩ هـ): مبيناً فائدة التصوف والتكامل بينه وبين العقيدة والفقه:

« **التصوف** علم قُصِد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله عما سواه.

والفقه لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام.

والأصول [علم التوحيد] لتحقيق المقدمات بالبرهان، وتحلية الإيمان بالإيقان »[2].

(١) جولات في الفقهين الكبير والأكبر، ص ١٠٥.

(٢) قواعد التصوف، قاعدة ١٣، ص ٣٠.

وقال **أبو نصر الطُّوسِي**(١) رحمه الله (ت ٣٧٨هـ): « ثم إن طبقات الصوفية أيضاً اتفقوا مع الفقهاء وأصحاب الحديث في معتقداتهم، وقَبِلُوا عُلُومَهم، ولم يخالفوهم في معانيهم ورسومهم، إذا كان ذلك مجانباً للبدع واتباع الهوى، ومنوطاً بالأسوة والاقتداء وشاركوهم بالقبول والموافقة في جميع علومهم »(٢).

(١) وهو إمام من أئمة التصوف عند أهل السنة، لا يخرج عن عقائدهم وفقههم ومنهجهم وأصولهم، وهو من أوَّل مَن أَلَّفَ في التصوف؛ ذاكراً التصوف في عنوان كتابه، قال الذهبي في تاريخ الإسلام ٦٢٦/٢٦: « عبد الله بن علي بن محمد بن يحيى، أبو نصر السَّرّاج الطُّوسِي، الصوفي، مصنف كتاب اللمع في التصوف... قال السُّلَمِيّ: كان أبو نصر من أولاد الزهاد، وكان المنظور إليه في ناحيته في الفُتُوّة ولسان القوم، مع الاستظهار بعلم الشريعة، وهو بقية مشايخهم اليوم، ومات في رجب، ومات أبوه ساجداً »، وقال عبد الحي الحنبلي في شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٩١/٣ : وفيها [أي في سنة ثمان وسبعين وثلثمائة توفي] أبو نصر السراج عبد الله بن علي الطوسي، الزاهد شيخ الصوفية، وصاحب كتاب اللمع في التصوف، ... وقال السخاوي: كان على طريقة السنة »، وانظر: الأعلام للزركلي ٤/ ١٠٤، وقد ذكر بعض الباحثين أنه كان يلقب بطاووس الفقراء، وأنه كان يختم القرآن خمس مرات في صلاة التراويح، وأنه تنقل بين القاهرة وبغداد ودمشق والرملة ودمياط والبصرة وتبريز ونيسابور، انظر: اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، ص ٤.

(٢) اللمع في التصوف، ص١٥-١٦. وقد طبع الكتاب في القاهرة، سنة ١٩٦٠، بتحقيق: د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، باسم: اللمع في التصوف، وهو الصحيح، بينما النسخة التي ننقل منها ـ وهي من ضبط كامل مصطفى الهنداوي ـ بِاسْمِ: اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي.

نشأة اسم التصوف واشتقاقه

قال عبد الكريم بن هوازن **القشيري** (٣٧٦-٤٦٥ هـ): « اعلموا، رحمكم الله تعالى، أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يَتَسَمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم، سوى صحبة رسول الله ﷺ، إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم: **الصحابة**.

ولمَّا أدركهم أهل العصر الثاني سمى من صحب الصحابة: **التابعين**، ورأوا في ذلك أشرف سِمة. ثم قيل لمن بعدهم: **أتباع التابعين**.

ثم اختلف الناس، وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس مِمَّن لهم شدة عناية بأمر الدين: **الزّهاد والعُباد**.

ثم ظهرت البدع، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادَّعوا أن فيهم زهاداً، فانفرد خواصُّ أهل السُّنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة بِإْسم: **التصوف**.

واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة »[(١)].

---

(١) الرسالة القشيرية، ص ٦. وذكر أبو نصر الطوسي رحمه الله في كتاب اللمع في التصوف، أن اسم التصوف بدأ يطلق في حوالي سنة المائة والخمسين هجرية، بل قبل ذلك، بل يحتمل وجوده قبل الإسلام، فقال في « باب الرد على من قال: لم نسمع بذكر الصوفية في القديم، وهو اسم مُحْدَث »، قال: « وأما قول القائل: إنه اسم مُحْدَثٌ، أحدثه البغداديون فمحال، لأن في وقت الحسن البصري رحمه الله كان يُعرف هذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، وقد رُوي عنه أنه قال: رأيت صوفيّاً في الطواف، فأعطيته شيئاً؛ فلم يأخذْه، وقال: معي أربعة دوانيق، فيكفيني ما معي، وروي عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال: لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء، وقد ذُكِرَ في الكتاب الذي جُمِع فيه أخبار مكةَ عن محمد بن إسحاق بن يسار، وعن غيره، يَذْكُر فيه حديثاً: أنه قبل الإسلام قد خَلَتْ مكةُ في وقت من الأوقات، حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي، فيطوف بالبيت وينصرف، فإن صح ذلك؛ فإنه يدل على أنه قَبْلَ الإسلام كان يعرف هذا الاسم، وكان يُنسب إليه أهل الفضل والصلاح، والله أعلم »، اللمع في التصوف، ص ٢٥.

قد كان اسم التصوف عبر تاريخ المسلمين ـ منذ ظهر هذا الاسم ـ ممدوحاً، ولا يذم إلا من ادعاه بغير حق، وانقلب الحال اليوم فصار هذا الاسم في كثير من بلاد المسلمين مذموماً بشكل مطلق، من غير تفريق بين من يحمله بحق أو يحمله بباطل.

وهذا أدى بكثير من الناس أن ينكروا مضمونات التصوف الحق التي ترجع إلى الكتاب والسنة، فصاروا ينكرون شيئاً من الدين من حيث لا يشعرون، والأصل في المسلم أن ينظر إلى المضمونات لا إلى التسميات، فالمضمون الموافق للكتاب والسنة والذي سار عليه أهل السنة وأئمتهم يجب أن يكون مقبولاً ومُتابَعاً، والمضمون المخالف يجب أن يكون مرفوضاً ومتروكاً، أما التسميات فلا مشاحة في التسميات، ولا ينبغي أن تكون محل معركة واختلاف عليها.

« إنه لا يصح للمسلم أن يستقبل اسم التصوف بتشنج، ولا يصح للمسلم المعاصر أن يستقبل اسم السلفية بتشنج، وإنما عليه أن يكون ذا بصيرة نافذة يدرك بها جوانب الضرورة في كل دعوة، وأن يكون ذا إدراك شامل يضع به كل شيء ضمن حدوده.

إن الصوفية رجال غير معصومين، والسلفية رجال غير معصومين، والمعصوم هو الكتاب والسنة...

إن نشأة علم يبحث أحوال الصحة والمرض للقلب والنفس، وطرائق الصحة، وأنواع المرض؛ شيء عادي، وأن يسأل المسلم كل داع إلى شيء عن دليله؛ شيء عادي، ومن سار في النور لا يخاف، ومن كان معه الدليل لا يخاف، والعصبية التي تصد عن الحق مقيتة، والقاعدة الصحيحة يجب أن تطبق على الجميع »[١].

وقال أبي يرحمه الله بعد أن ذكر أن ناساً في زماننا ينكرون التصوف كله لمجرد اسمه، ويتشنجون إذا ذكر اسمه، فقال: « لم ينكر خلال العصور اسم التصوف أحد من الناس، لأنه

---

(١) جولات، ص ١٠٧.

اصطلاح على علم، كعلم النحو والبديع والمعاني والفقه، وغير ذلك، ولا مشاحة في الاصطلاح، كما يقول العلماء، وحتى في عصرنا هذه فتاوى ابن تيمية خرج منها مجلدان تحت اسم التصوف والأخلاق، ولم أر على ذلك منكراً، ... فإذا تجاوزوا هذه النقطة ـ وينبغي تجاوزها ـ فإن المضمون هو الذي ينبغي أن يكون محل النقاش، فليكن همنا هو الوصول إلى الحق في المضمون، بدلاً من مناقشة في جانب لا يترتب على النقاش فيه أي طائل...

فالسير إلى الله لا يمكن أن يلغى، بل يجب أن يكون حثيثاً، ولكن ينبغي أن يحرر ويدقق، وتحرر مسائله تحريراً دقيقاً، فليس الصوفية ولا غيرهم معصومين، والمعصوم هو الكتاب والسنة.

وقديماً قال أكبر أعلام الصوفية في عصره **أبو سليمان الداراني** رحمه الله (ت ٢١٥ هـ): (ربما وقعت النكتة من كلام القوم في قلبي فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة، لأن الله عز وجل ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي فيما سوى ذلك)، ومن هنا ندرك خطأ الصوفي الذي يريد أن يجعل كل حرف قاله صوفي معصوماً»[١].

اشتقاق اسم التصوف[٢]:

كثرت الأقوال في اشتقاق اسم التصوف، فقيل من الصوفة، لأن الصوفي مع الله تعالى كالصوفة المطروحة، لاستسلامه لله تعالى.

وقيل: إنه من الصِّفَة، إذ جملته اتصافٌ بالمحاسن، وترك الأوصاف المذمومة.

وقيل: من الصفاء، قال أبو الفتح البستي رحمه الله تعالى:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ... وظنه البعض مشتقاً من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غيرَ فتىً ... صفا فصُوفِيَ حتى سُمي الصوفي

---

(١) تربيتنا الروحية، ص ٩.

(٢) انظر: قواعد التصوف، قاعدة ٧، ص ٢٥، وإيقاظ الهمم في شرح الحكم، ابن عجيبة، ص٦، وانظر: حقائق عن التصوف، ص ٩-١٠.

وقيل: من أهل الصُّفَّة، لأن صاحبه تابعٌ لأهل الصُّفَّة فيما أثبت الله لهم من الوصف، حيث قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم ... ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقيل: من الصَّفوة، وقيل: من الصَّف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله تعالى، وتسابقهم في سائر الطاعات.

وقيل: إن التصوف نسبة إلى لبس الصوف الخشن، لأن الصوفية كانوا يؤثرون لبسه للتقشف والاخشيشان[1].

وقيل نسبة إلى رجل اسمه: صوفة، انفرد إلى الطاعة في بيت الله الحرام.

ومهما يكن من أمر، فإن التصوف أشهر من أن يحتاج في تعريفه إلى قياس لفظٍ، واحتياج اشتقاق.

وإنكار بعض الناس على هذا اللفظ بأنه لم يُسمع في عهد الصحابة والتابعين مردود، إذ كثيرٌ من الاصطلاحات أحدثت بعد زمان الصحابة، واستُعملت ولم تُنكَر، كالنحو والفقه والمنطق.

والتصوف الذين ندعو إليه: هو تزكية النفوس، وصلاح القلوب وصفاؤها، وإصلاح الأخلاق، والوصول إلى مرتبة الإحسان، وهو الجانب الروحي والمعنوي في الإسلام.

---

(١) وقد بين بعض أئمة الصوفية الأقدمين أنه لا يستنكر التسمية نسبةً إلى اللباس، فذلك أمر محتمل، وله شبيه في التسميات الربانية التي ذكرها الله في القرآن، قال أبو نصر الطوسي: « ألا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام، فنسبهم إلى ظاهر اللبسة، فقال عز وجل: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ ﴾ [المائدة: ١١٢] الآية، وكانوا قوماً يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك، ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التي كانوا مترسمين، فكذلك الصوفية عندي، والله أعلم »، اللمع في التصوف، ص٢٤.

نشأة علم التصوف

التصوف هو الإحسان، وهو جانب من جوانب من الإسلام، إلا أنه ظهر باسم التصوف بعد حوالي قرنين، ليدل على جانب إصلاح النفس، وتصفية القلب، والاهتمام بالعبادة والذكر، والتحقق بالزهد، والتطلع إلى مقام الإحسان والصديقية، والتحقق بوصف النبي ﷺ للإحسان: « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[١].

والله أمرنا بالعدل والإحسان، فالعدل إعطاء كل ذي حقه، والإحسان زيادة فوق ذلك بما لا يعارض العدل، ولا يكون المسلم صوفياً إلا أن يكون متحققاً بالعدل حريصاً على الإحسان فوق ذلك.

قال **ابن خلدون** في مقدمته: « وهذا العلم ـ يعني التصوف ـ من العلوم الشرعية الحادثة[٢] في الملَّة، **وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة** وكبارها من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم طريقة الحق والهداية.

وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة.

وكان ذلك عامّاً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية »[٣].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠ ومسلم رقم ٩، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) بين الدكتور محمد الصادق عَرجُون أن تعبير ابن خلدون بأن التصوف حادث يتحدث به عن **التصوف النظري**، كعلم له نظرياته وكتبه واصطلاحاته، وأما نسبته التصوف إلى النبي ﷺ وأصحابه في نهاية الفقرة؛ فيتكلم فيه عن **التصوف العملي**، الذي هو السلوك الخلقي، والتطبيق الواقعي لروح الشريعة وآدابه، والذي هو طريق الحق والهداية، وعكوف على العبادة، وانقطاع إلى الله، وإعراض عن الدنيا، انظر: التصوف في الإسلام، ص ٧-٨.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٢٩.

وقال الشيخ عبد القادر عيسى: « التصوف ليس أمراً مستحدثاً جديداً، ولكنه مأخوذ من سيرة الرسول ﷺ وحياة أصحابه الكرام، كما أنه ليس مستقى من أُصول لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما يزعم أعداء الإسلام من المستشرقين وتلامذتهم الذين ابتدعوا أسماءً مبتكرة، فأطلقوا اسم التصوف على الرهبنة البوذية، والكهانة النصرانية، والشعوذة الهندية فقالوا: هناك تصوف بوذي وهندي ونصراني وفارسي، يريدون بذلك تشويه اسم التصوف من جهة، واتهام التصوف بأنه يرجع في نشأته إلى هذه الأصول القديمة والفلسفات الضالة من جهة أخرى، ولكن الإنسان المؤمن لا ينساق بتياراتهم الفكرية، ولا يقع بأحابيلهم الماكرة، ويتبين الأمور، ويتثبت في البحث عن الحقيقة، فيرى أن التصوف هو التطبيق العملي للإسلام، وأنه ليس هناك إلا التصوف الإسلامي فحسب »[١].

وقال الدكتور محمد الصادق عرجون: « ويظهر أنه كان في طليعة من وَطَّدَ لهم قواعد التأليف المنظَّم الشامل في علوم الزهد والورع والإخلاص، وأقام لطريقتهم دعائمها، ووَطّأ لهم سبيله: الإمام أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، وفي كتابه **الرعاية** ما يشهد بذلك، فهو أول كتاب جامع لأبواب السلوك العملي، في أسلوب علمي، على نهج الزاهدين العُبّاد من أهل العلم بالله، وكان المحاسبي معاصراً للإمام أحمد بن حنبل، وكان عليماً بظاهر الشريعة وأصول الدين على قواعد المتكلمين، وخبيراً حاذقاً بعلوم المعاملات والدلالة على الله، وقد ردَّ على المبتدعة »[٢].

---

(١) حقائق عن التصوف، ص ١٤.

(٢) التصوف في الإسلام، منابعه وأطواره، ص ٨٦.

استمداد علم التصوف

يستمد علم التصوف قواعده وأسسه وخصاله ومبادئه من الكتاب والسنة الشريفة، ومن اجتهادات العلماء العاملين، وتجاربِ الصالحين وأحوالِهم في سيرهم إلى الله، ومن فتوحات العارفين، بما يوافق الكتاب والسنة والآثار الثابتة، فهو لا يخرج عن هذا.

وكل ما أُدْخِل في التصوف مِن بِدَعٍ، فهو بريء منها، إذْ لم ترجع إلى أصوله وقواعد استمداده.

وهذه **أقوال بعض أئمة التصوف في أصل التصوف** واستمداده(١):

قال الإمام **الجنيد** رحمه الله: « علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة »، وقال: « الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على مَن اقتفى أثر الرسول، واتَّبع سُنَّته، ولزمَ طريقته، فإن طُرُقَ الخيرات كلها مفتوحة عليه ».

وقال الإمام سهل **التُّسْتَرِيّ** (ت ٢٨٣ هـ): « أصولنا .. التمسكُ بكتاب الله تعالى، والاقتداء بِسُنّة رسوله ».

وقال إبراهيم **النصرآباذي** (ت ٣٦٩ هـ): « أصل التصوف: ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ ».

وقال الإمام أبو الحسين **الوَرَّاق**: « لا يصل العبدُ إلى اللهِ إلا بالله، وبموافقة حبيبه في شرائعه، ومَن جعل الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء يضِلُّ من حيث ظن أنه مُهتدٍ ».

وقال الإمام سَرِيُّ **السَّقَطِي** (ت ٢٥٣ هـ): « المتصوف لا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة »، وقال: « قليلٌ في سُنَّةٍ خير من كثيرٍ مع بدعة، كيف يَقِلُّ عَمَلٌ مع التقوى؟! ».

---

(١) انظر: كتاب: حقائق عن التصوف: الشيخ عبد القادر عيسى.

وقال الإمام أبو يزيد **البسطامي** (١٨٠ - ٢٦١ هـ): « لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة ».

وقال الإمام محمد **السلمي** (ت ٤١٢ هـ): « ليس بصوفي مَن جهل أحكامَ الله تعالى، وأحكام رسول الله.

ومَن لم يُحكِم أحكام الظاهر، لم يُوفّق لتهذيب أحكام الباطن، فمن جهل أحكام الله تعالى عليه في الظاهر، فليس بصوفي.

ومن خالفت أحوالُه العلمَ فليس بصوفي، ومَن باينَت أحوالُه السُّنةَ فليس بصوفي.

ومَن لم يكن أخلاقه وآدابه على مُوجَب الكتاب والسنة، فليس بصوفي ».

قال الإمام **مالك** (ت ١٧٩ هـ): « من تفقه ولم يتصوف فقد تفسّق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ». « ومن جمع بينهما فقد تحقق »[(١)].

والتصوف هو التحقق بالربانية، وهي الانتساب إلى الله قولاً وعملاً:

ولقد نبه أبي رحمه الله إلى أن كل الناس مطالبون بأن يتحققوا بالربانية، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وأن الضمير في قوله ولكن ﴿ كُونُوا۟ ﴾: يعود على الناس، فيجب أن يكون في الأمة ربانيون، ويدعون الناس جميعاً إلى الربانية[(٢)].

(١) العبارة الأخيرة: من حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزبة في الفقه المالكي. منقولاً.

(٢) انظر: مذكرات في منازل الصديقين والربانيين، ص ٢٩.

موضوع علم التصوف

موضوعه ومباحثه التي تُدْرَسُ فيه هي: معرفة أحوال القلب والنفس والروح، وأفعالها الظاهرة والباطنة، من حيث تزكية النفس وتطهير القلب وتصفية الروح، والوصول إلى الله ومعرفته حق المعرفة.

أهمية التصوف[١]

التصوف هو الذي اهتم بالجانب القلبي، ورسَمَ الطريق العملي الذي يوصل المسلم إلى **أعلى** درجات الكمال الإيماني والخُلُقي، **وليس** ـ كما يظن بعض الناس ـ قراءةَ أوراد وحِلَقَ أذكار فحسب.

فلقد غاب عن أذهان الكثيرين أن التصوف منهج عملي كامل، **يحقق انقلاب الإنسان من شخصية منحرفة إلى شخصية مسلمة مثالية متكاملة**، يجمع الناحية الإيمانية السليمة، والعبادة الخالصة، والمعاملة الصحيحة الحسنة، والأخلاق الفاضلة.

فالتصوف روح الإسلام وقلبُهُ النابض، إذ ليس هذا الدين أعمالاً ظاهرية وأموراً شكلية فحسب لا روح فيها ولا حياة.

قال أبو الحسن **الشاذلي** رحمه الله: « من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مُصِرّاً على الكبائر، وهو لا يشعر »[٢].

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: « عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريقَ الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين.

(١) انظر: حقائق عن التصوف: عبد القادر عيسى.

(٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ابن عجيبة، ص ٧.

وكلما استوحشت من تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغُضَّ الطرف عن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله تعالى شيئاً، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك؛ فلا تلتفت إليهم، فإنك متى التفتَّ إليهم أخذوك وعاقُوكَ »[١].

قال أبو نصر السَّرّاج الطُّوسِي رحمه الله: « وليس التَّفقه في أحكام هذه الأحوال ومعاني المقامات التي تقدم ذِكْرُها بأقلَّ فائدة من التفقه في أحكام الطلاق والعتاق والظهار والقصاص والقسامة والحدود، لأنَّ تلك أحكامٌ ربّما لا تقع في العمر حادثةٌ تحتاج إلى علم ذلك، فإذا وقعت تلك الحادثة فمن سأل عنها قَلَّدَ في ذلك، وأَخَذَ بقول بعض الفقهاء، فقد سقط عنه فرضُ ذلك إلى أن تقع به حادثة أُخرى، وهذه الأحوال والمقامات والمجاهدات التي يتفقه فيها الصوفية ويتكلمون في حقائقها، فالمؤمنون مفتقرون إلى ذلك، ومعرفةُ ذلك واجبة عليهم، وليس لذلك وقت مخصوص دون وقت، وذلك مثل الصدق والإخلاص والذكر ومجانبة الغفلة وغير ذلك، ليس لها وقت معلوم، بل يجب على العبد في كل لحظة وخَطْرَة أن يعلم أَيْش قَصْدُهُ وإرادته وخاطره، فإن كان حقاً من الحقوق؛ فواجبٌ عليه أن يلزمه، وإن كان حَظّاً من الحظوظ؛ فواجبٌ عليه مجانبته، قال الله تعالى لنبيه وصَفِيِّه محمد ﷺ : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]، فمن ترك حالاً من هذه الأحوال ما تركها إلا من غلبة الغفلة على قلبه »[٢].

(١) المنن الكبرى، للشعراني ج١ / ص٤، نقلاً عن كتاب: حقائق عن التصوف، ص ١٩.
(٢) اللمع في التصوف، ص ٢١.

من أقوال أئمة الصوفية
في التحذير من الانحراف عند بعض الصوفية
ومما دخل على التصوف

يحدثنا **الكلاباذي** ت ٣٨٠ هـ عن منهجه في كتابه "**التعرف لمذهب أهل التصوف**" وعن دواعي تأليف الكتاب، فيقول في مقدمة كتابه: « وادعاه من لم يعرفه وتحلى به من لم يصفه. وأنكره بفعله من أقر به بلسانه. وكتمه بصِدْقِه من أظهره ببيانه. وأدخل فيه ما ليس منه. ونسب إليه ما ليس فيه. فجعل حقه باطلاً، وسَمَّى عالمه جاهلا. وانفرد المتحقق فيه ضَنّاً به. وسكت الواصف له غيرةً عليه. فنفرت القلوب منه. وانصرفت النفس عنه.

فذهب العلم وأهله. والبيان وفعله. فصار الجهال علماء، والعلماء أذلاء. فدعاني ذلك إلى أن رسمت في كتابي هذا وصف طريقتهم. وبيان نحلتهم وسيرتهم. من القول في التوحيد والصفات وسائر ما يتصل به مما وقعت فيه الشبهة عند من لم يعرف مذاهبهم، ولم يخدم مشايخهم. وكَشَفْتُ بلسان العلم ما أمكن كشفه. ووصفتُ بظاهر البيان ما صلح وصفه. ليفهمه من لم يفهم إشاراتهم. ويدركه من لم يدرك عباراتهم. وينتفي عنهم خَرْص المتخرصين، وسوء تأويل الجاهلين. ويكون بياناً لمن أراد سلوك طريقه، مفتقراً إلى الله تعالى في بلوغ تحقيقه. بعد أن تصفحت كتب الحذاق فيه. وتتبعت حكايات المتحققين له بعد العِشرة لهم والسؤال عنهم ». اهـ الكلاباذي.

وقد قدم لكتاب الكلاباذي التعرف لمذهب أهل التصوف؛ **عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور**، فقالا: « ولقد خلط الكاتبون بين هذه الدراسات والتصوف فزعموا أن في التصوف مذاهب وفرقاً وطوائف. ولو أنعموا النظر لعرفوا أن التصوف تجربة روحية وليس نظراً عقلياً. وإذا كان النظر العقلي يفرق الناظرين إلى طوائف وفرق، فإن التجربة لا يختلف

فيها اثنان. وإذا كانت الفلسفةُ، لأنها نظر عقلي، مذاهبَ متعددة، فإن التصوف، وهو تجربة، مذهب واحد لا تعدد فيه ولا اختلاف ».

قال زين الإسلام: عبد الكريم بن هوازن **القشيري** (٣٧٦-٤٦٥ هـ): « هذا هو ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة، وكان الغرضُ من ذكرهم في هذا الموضع التنبيهَ على أنهم مجمعون على تعظيم الشريعة، متصفون بسلوك طرق الرياضة، مقيمون على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آداب الديانة، متفقون على أن من خلا من المعاملات والمجاهدات ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى، كان مفترياً على الله سبحانه وتعالى، فيما يدعيه، مفتوناً، هلك في نفسه، وأهلك من اغتر به ممن ركن إلى أباطيله »(١).

قال الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ): « أيها الولد.. ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداءِ الشرع ضلالةٌ، وينبغي لك **ألا تغترّ بشطح الصوفية وطاماتهم**، لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس وقتل هواها بسيف الرياضة، لا بالطامات والتُّرّهات، واعلم أن اللسانَ المطلَقَ والقلبَ المطبَقَ المملوءَ بالغفلة والشهوة علامةُ الشقاوة، حتى لا تَقتُلَ النفسَ بصدق المجاهدة، لنْ يُحيَى قلبُك بأنوار المعرفة.

واعلم أن بعض مسائلك التي سألتني عنها، لا يستقيم جوابه بالكتابة والقول، إن تبلغ تلك الحالة تعرف ما هي، وإلا فعلمها من المستحيلات، لأنها **ذوقية**، وكل ما يكون ذوقياً، لا يستقيم وصفه بالقول »(٢).

قال الشيخ أحمد زروق في قواعد التصوف: (فغلاة المتصوفة كأهل الأهواء من الأصوليين، وكالمطعون عليهم من المتفقهين، يُرَدُّ قولُهم، ويجتنب فعلهم، ولا يترك المذهب الحق الثابت بنسبتهم له، وظهورهم فيه، والله أعلم)(٣).

---

(١) الرسالة القشيرية، ص ٣٠.

(٢) رسالة أيها الولد.

(٣) قواعد التصوف: القاعدة ٣٥، ص ٤٧.

الإنكار على التصوف

أولاً: إنكار من أنكر على التصوف لا يقع على التصوف السني، المبني على الكتاب والسنة، والذي حدده أئمة التصوف الذين قَبِلَتْهم الأمة وتابعتهم، وإنما يقع على الانحرافات عن التصوف السني، والتي وقعت من أدعياء أو مبتدعة، وليس من أهل العلم والاستقامة من الصوفية الصادقين الْمُعتَرَف لهم بالإمامة في التصوف:

قال الحافظ السيوطي رحمه الله في «تأييد الحقيقة العلية»:

« إن التصوف في نفسه علم شريف، وإن مداره على اتباع السنة وترك البدع، والتبري من النفس وعوائدها وحظوظها وأغراضها ومُراداتها واختياراتها، والتسليم لله والرضا به وبقضائه، وطلب محبته واحتقار ما سواه.

وعلمت أيضاً أنه قد كثُر فيه الدَّخيل من قوم تشبَّهوا بأهله ليسوا منهم، فأدخلوا فيه ما ليس منه، فأدَّى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع، فوجّه أهل العلم للتمييز بين الصنفين ليُعلم أهل الحق من أهل الباطل، وقد تأملتُ الأمور التي أنكرها أئمة الشرع على الصوفية، فلم أر صوفياً محقِّقاً يقول بشيء منها، وإنما يقول بها أهل البدع والغلاة الذين ادَّعوا أنهم صوفية وليسوا منهم»[١].

ثانياً: التصوف كغيره من علوم الإسلام قد اختلط بما ليس منه، وبما يشوشه المشوشون والأدعياء، والواجب أن يبحث المسلمون وأهل السنة عن العلم المعتبر عند الصوفية، ويميزوه عن الانحراف والباطل، لا أن يُلغُوا العلم كله، فبعض العلماء هو من أهل السنة لكن له أقوال غير معتبرة ولا معتمدة عندهم، وبعض الكتب محسوبة على أهل السنة وفيها أقوال واختيارات مردودة غير معتبرة، أو غير مقبولة عند أهل السنة، فالواجب تمييزها وردها، لا رد المقبول معها، ولا رد العلم كله.

---

(١) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية، السيوطي، والنص المنقول بالمعنى من عدة مواضع في الكتاب.

وكما أن أكثر كتب الفقه عند المذاهب الأربعة وعند أهل السنة، ليست كتباً معتمدة في المذاهب، فلا يؤخذ الراجح منها، وقد تزيد هذه الكتب على تسعين بالمئة مما أُلِّفَ في الفقه، وبعض الكتب المعتمدة فيها أقوال قليلة غير معتمدة عند أهل العلم والتخصص، فكذلك في التصوف تجد ألوف الكتب عند أهل السنة، لكن المعتمد منها قليل، وبعض المعتمد منه لا يخلو من أقوال أخطأ فيها أصحابها، وهذا لا يوجب رفض هذا العلم وهذه الكتب، وإنما يقتضي تنقيتها، والرجوع إلى العلماء المعتبرين الذين ورثوا التمييز بين الصحيح والباطل، والذين يميزون العبارات الموزونة من الشطحات، والذي يعرفون قيود العبارات، ومعاني الإشارات.

وقد بين أبي رحمه الله أن وجود عبارات غير مستقيمة، ومؤلفات فيها انحرافات أو خرافات، نسبت إلى التصوف، مع عدم التمييز بين المعتبر المعتمد وبين غيره، أوجد شكاً في تراث التصوف، ودفع بعض العلماء أن يشككوا أو أن يرفضوا، كما نرى من بعض العلماء التشكيك بتراث الأمة العقائدي والفقهي، وذلك غير مقبول منهم، إنما واجبهم التحري والبحث عن المعتبر عند أهل السنة والإسلام.

وبين أبي يرحمه الله أن النبي ﷺ بين أن الأمة ستمر بمرحلة خيرية، وتمر بمرحلة فيها خير وفيها دخن[1]، أي شيء من التشويش والانحراف والخطأ، لنحذر من الخطأ والانحراف

---

(١) أخرج البخاري رقم ٣٦٠٦ ومسلم رقم ٤٨٩٠ عن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﵁ يَقُولُ كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ قَالَ « نَعَمْ » فَقُلْتُ هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ قَالَ « نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ ». قُلْتُ وَمَا دَخَنُهُ قَالَ « قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ ». فَقُلْتُ هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ « نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا ». فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ « نَعَمْ قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ قَالَ « تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ ». فَقُلْتُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ قَالَ « فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ ». وانظر: جولات في الفقهين الكبير والأكبر، ص ١٠٣، وقد بين فيه أن المرحلة التي نمر فيها هي مرحلة الدعاة على أبواب جهنم، لكن ورثنا كتباً كثيرة من مرحلة الدخن.

والدخيل، لا لنترك الخير الذي معه، فقال أبي رحمه الله: « فحدث أن تزعزعت الثقة بالتراث الإسلامي الذي قدمته العقول المسلمة خلال العصور، من دون تمييز بين مرحلة الخيرية الخالصة، أو مرحلة الشر، أو مرحلة الخير المخلوط بالدَّخن، ومن دون تمييز بين العقليات المجددة، والعقليات المنحرفة، وبين الاتجاهات التي تمثل بها صيغة الحق خلال العصور، وبين غير ذلك، فالتضليل والتكفير والتفسيق للأمة أصبح ديدن الكثيرين.

إنه بدلاً من أن تكون ردة الفعل ضد الدخن؛ هي تحرير الخير من دخنه، وجدت دعوات تريد أن تنسف الخير بحجة الدخن »(١).

ثالثاً: والتصوف بطبيعته لا يتكلم عن مسائل عقلية كالعقيدة، أو مسائل عملية كالفقه، وإنما في جزء كبير منه يتكلم عن أذواق وعواطف وإحساسات وشعوريات وبواطن وأمور نفسية(٢).

لذلك كثر في عبارات بعض الصوفية المجاز والكناية والاستعارة والتشبيه، وهذه العبارات إذا أخذها الناس على ظاهرها أنكروا كثيراً منها، أو فهموها على غير وجهها ومقصودها، وهذا أوجب الرجوع إلى أهل التصوف في فهم عباراتهم، كما يوجب على علماء

---

(١) جولات في الفقهين الكبير والأكبر، ص ٨.

(٢) بين الإمام أبو نصر الطُّوسِي رحمه الله أن الصوفية اختصوا عن أهل العلم بجوانب لا يتحدث فيها غيرهم، واستنباطات من الكتاب والسنة لا يعتني بها غيرهم، وهم في ذلك يأخذون بآيات وأحاديث لم تُنسَخ، فاعتنوا بمكارم الأخلاق، وبحثوا عن معالي الأحوال وفضائل الأعمال، وتكلموا عن مقامات عالية في الدين، ومنازل رفيعة، مما كان من أدب النبي ﷺ، ومما حرص عليه جماعة من الصحابة والتابعين، ثم قال: « وليس لغير الصوفية من أولي العلم القائمين بالقسط في ذلك نصيب غير الإقرار به والإيمان بأنه حق، وذلك مثل حقائق التوبة وصفاتها، ودرجات التائبين وحقائقهم، ودقائق الورع وأحوال الوَرِعين، وطبقات المتوكلين، ومقامات الرّاضِين، ودرجات الصابرين، وكذلك في باب الخشية والخضوع، والمحبة والخوف والرجاء والشوق والمشاهدة، والإنابة والطمانينة، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، واليقين والقناعة، وعِدَّة أحوال أكثر من أن يحصي عددها، ولكل حال من ذلك أهل وطبقات، ولهم في ذلك حقائق ومشاهدات، وأحوال ومراقبات، وأسرار واجتهادات، ومقامات ودرجات متباينات، وإرادات متفاوتة، وتفاضل في قوة الإرادة، واعتراض الفترة، وغلبات الوجد، ولكل واحد من ذلك حَدٌّ ومقام، وعلم وبيان، على مقدار ما قُسِمَ له من الله عز وجل»، اللُّمَع: ص ١٨.

التصوف المحققين في كل زمان أن يبينوا المقاصد الصحيحة لهذه العبارات ويرفعوا عنها اللبس، دفاعاً عن التصوف الحق، ومنعاً لتمسك الأدعياء والكذابين والمبتدعة والزنادقة بها على غير وجهها.

وكثير مما يستنكر على التصوف يرجع إلى هذه القضية، قضية أسلوب بعض الصوفية في التعبير، قال أبي رحمه الله:

« وإن كتب التصوف توسعت في التعبير عن قضايا الشعور، دون أن تذكر تقييدات ذلك »(١).

ثم بين أن ذلك يقتضي تأليفات جديدة في علم التصوف ليعالج ذلك، ويبين مقاصد العبارات وقيودها، حتى يزول الإشكال الذي يظهر فيها.

ـ ومما يواجه الكُتّاب المعاصرين الذين يريدون تحرير التصوف الحق وتنقيته من الباطل والانحراف والغلو ـ كما ذكر والدي رحمه الله ـ أن المؤلف إذا نقل نقلاً سليماً من كتاب صوفي فيه الخير وفيه الدخن؛ قيل له: كيف تنقل من كتاب كذا، وفيه كذا، وإذا نقل قولاً سليماً قال به رجل من الصوفية؛ قيل له: كيف تنقل عن فلان، وهو يقول كذا؟ فبين والدي أنه لا يجوز أن نترك خيراً لاقترانه بخطأ، بل يجب ترك الخطأ دون الصواب، ولا يجوز أن يُحَمَّل ناقلٌ لعبارة صحيحة إثم خطإ القائل الذي قالها أو الكتاب الذي احتواها، ولا يجوز إلزام الناقل بأنه يلتزم أقوال ذلك الرجل أو يلتزم ما في كتابه، ولا أن يتهم بأنه يتبنى منهجه إن كان فيه خطأ أو انحراف(٢).

ونؤكد على ذلك، فإننا إذا نقلنا عبارة فإنما انتقيناها لصدقها وصلاحها وموافقتها للدليل، فلا ينبغي أن نُحَمَّل غيرَها من العبارات التي لم ننقلها، بل ربما نحن من أشد المنكرين عليها.

---

(١) جولات في الفقهين الكبير والأكبر، ص ٧٠.

(٢) انظر: تربيتنا الروحية، ص ١٥.

وقد لخص الشيخ أحمد زروق **أسباب الإنكار على الصوفية** فقال:

« دواعي الإنكار على القوم خمسة:

أولها: النظر لكمال طريقهم، فإذا تعلقوا برخصة، أو أتوا بإساءة أدب، أو تساهلوا في أمر، أو بدر منهم نقص، أُسرع للإنكار عليهم، لأن النظيف يظهر فيه أقل عيب، ولا يخلو العبد من عيب، ما لم تكن له من الله عصمة أو حفظ.

الثاني: دِقَّة الْمَدْرك، ومنه وقع الطعن على علومهم في أحوالهم، إذ النفس مسرعة لإنكار ما لم يتقدم لها علمُه.

الثالث: كثرة المبطلين في الدعاوى، والطالبين للأغراض بالديانة، وذلك سبب إنكار حال من ظهر منهم بدعوى، وإن أقام عليها الدليل، لاشتباهه.

الرابع: خوف الضلال على العامة باتباع الباطن، دون اعتناء بظاهر الشريعة، كما اتفق لكثير من الجاهلين[1] .

الخامس: شحة النفوس بمراتبها، إذ ظهور الحقيقةِ مُبطِل حقيقةً، ومن ثم أولع الناس بالصوفية أكثر من غيرهم، وتسلط عليهم أصحاب المراتب أكثر من سواهم، وكل الوجوه المذكورة صاحبها مأجور[2] أو معذور، إلا الأخير، والله أعلم »[3].

---

(١) فيكون التحذير من التصوف هنا لا لانحرافه، وإنما من باب سد الذريعة، خشيةً من الجهلة وأصحاب النوايا السيئة.

(٢) أي له أجر عند الله، على الرغم من أنه أخطأ في إنكاره، لأنه مقصده صحيح.

(٣) قواعد التصوف: القاعدة رقم ٢٠٨، ص ١٨٩.

نماذج من الانحرافات التي دخلت على التصوف
وتحتاج إلى تصحيح المسار

ولا ينكر المنصف أن الصوفية قد دخل عليهم دخن وانحرافات كثيرة، من خلال دجالين وأدعياء ومنتفعين ومتصنعين ومبتدعة، حتى وجدنا من ينبه إلى ذلك منذ القرن الرابع.

فالكلاباذي ت ٣٨٠ هـ يؤلف كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف في القرن الرابع، ويبين أنه ألفه ليميز الحق في التصوف مما دخله من باطل نسب إليه ودخل عليه.

ونجد **الرفاعي** (٥١٢-٥٧٨ هـ) في القرن السادس يحذر في كتبه وفي حِكَمِه مرات كثيرة من أدعياء التصوف، بل يقول:

« أي بني إذا نظرت في القوم الذين ادعوا التصوف اليوم؛ رأيت أن أكثرهم من **الزنادقة والحرورية والمبتدعة**، ورأيتهم أكثر الناس جهلاً وحمقاً، وأشدهم مكراً وخديعة، وأعظم عجباً وتطاولاً، وأسوأهم ظناً بأهل الزهد والتقوى، وأهل الصدق والصفاء »[١]، أي إنهم أدخلوا في العقيدة باطلاً ليس منها، ونسبوه إلى الدين، وأدخلوا في العمل والفقه ما ليس منه، ونسبوه إلى الدين، وأدخلوا غلواً كغلو الخوارج في جوانب جاوزوا فيها الدين ووسطيته.

وابن البنا السَرَقُسْطِي من أئمة التصوف في **بداية القرن التاسع**، وهو صاحب منظومة **المباحث الأصلية** التي نشرحها في هذا الكتاب، يبين فيها عظيم شأن التصوف، ويرد على من أنكره، لكنه في الوقت نفسه يبين أن أهل الطرق من صوفية زمانه أكثُرهم على جهل وانحراف، فقال:

---

(١) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص ٩٤، الحديث الخامس والعشرون.

وهذه طريقةٌ قد دَرَسَت		وشجرٌ أغصانُها قد يَبِسَت
كانت إذن مواردًا شريفة		فاستبدلت مذاهباً سخيفة
قد أُسست على صحيح العقل		وإنها الآن بمحض الجهل
يُدعى الذي يمشي عليها سالك		وسالكوها اليوم حزب هالك

ثم يقول بعد أبيات:

يا قاصدا علم الطريق السالف		لا تقتدي بهذه الطوائف
ما منهم من علم المقصودا		منه ولا الوارد والمورودا
لم يعرفوا حقيقة الطريقة		فالقوم جهال على الحقيقة
فاحذرهمو خشية يفتنوكا		واترك سبيلا لم يزل متروكا

وقد ذكر والدي الشيخ **سعيد حوى** رحمه الله بعض الغلو وبعض الانحرافات الخطيرة التي دخلت التصوف، فقال:

« هذا العلم قد دخل فيه ما لم يدخل في غيره، إذ أصبحت **خواطر الشيوخ** جزءً منه، بصرف النظر عن انطباقها على أصول الشريعة.

وأصبحت فيه **كشوفات الشيوخ** أعظم الحقائق التي يعامَل مُنكِرها معاملة الكافر، ولو كانت لا تندرج تحت أصول صحيحة.

وأصبحت **كثير من القضايا تأخذ طابع العقائد**، مع عدم وجود نص من الكتاب والسنة الصحيحة يشهد لها، مع أن العقائد لا تنبني إلا على القطعيات.

وأصبحت **المشاعر والأحاسيس أصلاً** توزن به العقائد والرجال، بدلاً من أن تكون النصوص هي التي توزن بها هذه الأحاسيس والمشاعر.

وأصبح **الشيخ** بمجرد أن يكون ذا حال ومأذوناً في إعطاء الأوراد **يفتي بكل قضية** من القضايا، ويُلزِم مريده أن يطيعه، وأن يستشيره في كل شأن، فأقام الكثير منهم نفسه

مقام المجتهد المطلق في الأحكام، من دون علم ينطلق منه، أو أصل يستند إليه، إلا ما يؤدي إليه اجتهاده، وليس أهلاً للاجتهاد.

وأصبح **كل شيخ** عند أتباعه و**كأنه خليفة المسلمين**، وما أكثر الشيوخ، وما أوسع الشقة بينهم.

وأصبحت **المنامات والخواطر والواردات أصولاً** برأسها.

وأُوجِدت **طقوس وشعائر خاصة لكل طريقة.**

ورُبِّيَ أبناء كل طريقة وأتباع كل شيخ على **الكره** للغير.

وأصبح **المُطالِع للكتب في** ضَياع، **والمصاحب للشيوخ في تناقض**، إلا من رحم الله تعالى.

ومع أن هذا العلم يحتاج إليه كل إنسان؛ فقد أصبح بهذا يجد كل إنسان لنفسه الحجة في ترك هذا العلم ...

إن علم السير إلى الله وعلم التزكية للنفس وعلم التحقق بمقامات الإسلام والإيمان والإحسان والتقوى والشكر؛ فرائض لا بد منها، فإذا اختلط الكلام عن هذه المعاني بدخن كثير فعلينا أن ننقيه من الدخن »[1].

وقال أبي يرحمه الله: « ثم إن هذا العلم في مسيرته التاريخية اختلط فيه ـ أكثر من أي علم آخر ـ أمور **جعلته كالألغاز**، وجعلته أحياناً **وكأنه شيء آخر غير العلم وغير النصوص**، وجعلته أحياناً **مستقلاً عن علوم التوحيد والفقه وأصول الفقه**، بل جعلته أحياناً **إلهامياً له قوة الوحي في التشريع أو في التقرير**، وكل ذلك عجيب غريب في علم يجب أن يكون كبقية العلوم الإسلامية محرراً منقحاً ...

---

(١) جولات، ص ١٠٨.

ولعل أبشع ما في الأمر أن تجد كثيراً من المتحذلقين **يأتون إلى آية من آيات الله لا تفهم إلا على وجه واحد، ويحاولون أن يعطوها مضمونات أخرى**، ويبنون على مثل هذا جبالاً من الأمور والمسائل، والأمر كله وهم أو تحريف، وكان يغنيهم عن هذا كله الوقوف عند النصوص، ومحاولة فهمها، وتفهيمها، والسير للتحقق بها »[١].

وبين والدي رحمه الله أن كثرة **الدَّخَن** في كتب الصوفية يجعل العالم لا يتجرأ ولا يكاد يجد كتابا يستطيع أن يدل الناس عليه من كتبهم، خشية أن يؤخذ منه الدخن مع الخير، قال أبي: « إنني كنت أستشعر حرجاً أن أذكر لإنسان كتاباً في التصوف، وذلك لأن الكثير من كتب التصوف داخلها ما لا يرتاح له العالم، فتجد **عبارات غير منضبطة**، أو **شطحات غير متزنة**، أو **تضخيماً لأمر على حساب أمر ...**

إن كثيرين ممن كتبوا في هذا العلم **جعلوه علمَ الخاصة**، مع أنه العلم الذي يطالب به كل إنسان، لارتباطه بقضايا يطالب بها كل إنسان، كصحة القلب وزكاة النفس وغير ذلك من أمور كلها تكليفية في حق عامة الخلق »[٢].

ـ وكما أن التصوف قد داخله انحرافات وزيادات في هذه الأمور وأمثالها، فإنك **تجد في المقابل** من أنكر على أهل التصوف مسائلَ فيها دليل وموافقة للحق، فتجد من ينكرها ويخالفها ويتجنى على التصوف والصوفية فيها.

فإذا كان بعض الصوفية قد وقعوا في بدع، فإن كثيراً مما يقال فيه اليوم إنه بدعة، ليس ببدعة، والقضية فقهية يُرجَع فيها إلى علماء الفقه والأصول.

وإذا كان بعض الصوفية قد غالوا في الكشوفات والإلهامات أو أنزلوها فوق منزلها، فإن بعض الناس اليوم ينكر الكشف والإلهام مطلقاً، وهذا أمر يتنافى مع أدلة الكتاب والسنة.

---

(١) تربيتنا الروحية، ص ٦.

(٢) تربيتنا الروحية، ص ٥.

فيحتاج الصادق المنصف أن يبحث عن الحق والثابت من هذه الأمور، ويحرص على حد الاعتدال، ويحرص على النهج السليم في التعامل مع هذه المسائل والمفردات علماً وعملاً، ويتجرد عن التقليد الأعمى والعصبية المجاوزة حد التمسك بالحق.

وكثيراً ما **تجد الإنكار على الصوفية** من ناس لم يتحققوا بالتصوف المستند إلى الكتاب والسنة، **فلا اهتمام لهم بإصلاح النفوس** وإصلاح القلوب وإخلاصها وتوكلها وزهدها وقربها، ولا اهتمام لهم بالخشوع والتدبر، ولا اهتمام لهم بالآداب والأخلاق، فلا ينتقلون من الإيمان العقلي إلى الإيمان القلبي الذوقي الذي يذوق فيه المؤمن طعم الإيمان وحلاوته، أولئك الذين « يبقى إيمانهم في حدود الأعمال الظاهرة والأقوال الظاهرة، لاحظ هذا الحديث الصحيح:

(سيخرج قوم في آخر الزمان حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، **يقرؤون القرآن، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم**، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة)[(١)].

فهنا ظاهرة عبّر عنها الحديث (إيمانهم لا يجاوز حناجرهم)، فهو لا ينتقل من الحناجر إلى القلب، أي يتجاوز الكلام إلى الفؤاد، إنها ظاهرة مرضية تعني انقطاع الإنسان عن السير في دين الله ... »[(٢)].

قال أبي: ... ابن عربي نفسه [يقول]: « احذر هذا الطريق، فإن أكثر الخوارج منه، وإنما هو طريق الهلك والملك، فمن حقق علمه وعمله وحاله؛ فقد نال عز الأبد، وإلا فقد هلك مع من هلك ».

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، ومعناه أنهم صغار في السن والفهم والحكمة، يتكلمون بالقرآن، لكنهم لا يفهمونه فهماً صحيحاً، ولا يصل فهمه إلى قلوبهم، فيقرؤونه على ألسنتهم ولا تتشبع به قلوبهم، يمرون على آياته مروراً سريعاً، كما أن السَّهْم يَدخُل في الفَرِيسة أو الغَزالِ فيَمُرُّ منه ولا يَحْمِلُ لَحْماً لا دَماً.

(٢) تربيتنا الروحية، ص ٢٧.

قال أبي بعد هذا النقل: « هذا التصوف الذي أريد له في الأصل أن يكون تكميلاً للمسلم في **العمل والحال مع العلم**، أصبح في كثير من الأحيان طريقَ ضلالٍ عن الحق، والعياذ بالله »(١).

ومن المسائل التي يكثر الإنكار على الصوفية فيها التفريق بين الشريعة والحقيقة، قال القشيري: (**الشريعة والحقيقة:**

الشريعة: أمر بالتزام العبودية.

والحقيقة: مشاهدة الربوبية.

فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول.

وكل حقيقة جاءت غير مقيدة بالشريعة فغير مقبول.

فالشريعة جاءت بتكليف الخالق، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق.

فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده(٢).

والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدر، وأخفى وأظهر.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق، رحمه الله، يقول: قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾، حفظ للشريعة، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، إقرار بالحقيقة.

واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره.

والحقيقة أيضاً شريعة، من حيث إن المعارِفَ به سبحانه أيضاً وجبت بأمره »(٣).

---

(١) جولات في الفقهين الكبير والأكبر.

(٢) تشهده: أي تكون كأنك تراه، بمعنى تعرفه وتشهد فعله، وبمعنى الشهادة في قولنا: شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

(٣) الرسالة القشيرية، ص ٤٢. ومعنى العبارة الأخيرة: أن معرفة الله تؤخذ من نصوص الشريعة، فليست الحقيقة شيئاً زائداً عن الشريعة، وإنما ذكرت قسيماً على سبيل التخصيص والتنبيه، لا على سبيل التفريق والتمييز.

مؤلفات في التصوف معتمدة عند أهل السنة

مئات الكتب في التصوف، معتمدة عند أهل السنة في مجملها، وإن كان لا يخلو كتاب من عبارات أو ملاحظات، فالعبرة بما قَبِلَه علماء الأمة من تلك الكتب، أما العبارات التي أنكر عليها العلماء فهي مما لا يجب أن يُتَّبَع، ولا أن يعتبر من منهج أهل السنة، ولو صدر عن شيخ معتبر، فالعبرة عندنا بالعلوم والمدارس التي استقر عليها أهل السنة، لا بالأشخاص وأقوالهم المفردة.

ولا يجوز أن يأتي بعض الناس إلى نحو عشرة كتب، منسوبة إلى التصوف، وفيها أمور مستنكرة جداً، فيتهم التصوف والصوفية وأهل السنة بالانحراف، ويجعل من هذه الكتب القليلة التي يُنكِر عليها أهلُ السنة وعلماءُ التصوف، يجعل منها حجة على التصوف كله.

ـ ومن كتب التصوف المعتمدة في الجملة:

رسالة المسترشدين: للمحاسبي (ت ٢٤٣ هـ)، و **الرعاية لحقوق الله**: له.

تنبيه الغافلين: لأبي الليث السمرقندي[١] (ت ٣٧٥هـ).

اللمع في التصوف: لأبي نصر الطوسى (ت ٣٧٨ هـ).

التعرف لمذهب أهل التصوف: للكلاباذي (ت ٣٨٠ هـ).

قوت القلوب: لأبي طالب المكي (ت ٣٨٦ هـ).

---

(١) واسم الكتاب: تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، وهو لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، الفقيه الحنفي المشهور، وهو من تلاميذ الهِنْدُواني، وتكلم في كتابه عن موضوعات كثيرة في التزكية وإصلاح القلب والسلوك، ولا يخلو من أحاديث موضوعة وضعيفة، لا تزيد على ثلاثة وعشرين، لكنه في المجمل حسن ومفيد.

الأمد الأقصى: لعبد الله بن عمر بن عيسى: أبي زيد الدبوسي[1] (ت ٤٣٠ هـ).

أدب الدنيا والدين: لأبي الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ).

الرسالة القشيرية: للقشيري (ت ٤٦٥ هـ)، **وشرحها**: لزكريا الأنصاري (ت ٩٢٦ هـ).

إحياء علوم الدين: للغزالي (ت ٥٠٥ هـ).

حِكَم الرفاعي، والبرهان المؤيد: لأحمد الرفاعي (ت ٥٧٨ هـ).

عوارف المعارف: للسهروردي (ت ٦٣٢ هـ).

شجرة المعارف والأحوال: للعز بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ).

الحكم العطائية: لابن عطاء الله السكندري (ت ٧٠٩ هـ).

الآداب الشرعية والمنح المرعية: لمحمد بن مفلح الحنبلى (ت ٧٦٣ هـ).

الزواجر عن اقتراف الكبائر: لابن حجر المكى الهيتمى (ت ٩٧٤ هـ).

عُدَّة المريد الصادق: لأحمد زروق (ت ٨٩٩ هـ).

قواعد التصوف: لأحمد زروق (ت ٨٩٩ هـ).

المكتوبات الربانية: لأحمد السرهندي (ت ١٠٣٤ هـ)، ويستفاد كثير من مفرداته المهمة من كتاب الندوي عن الإمام السرهندي.

آداب سلوك المريد: لعبد الله الحداد (ت ١١٣٢ هـ).

فذلكة الحقيقة: لبهاء الدين محمد مهدي الروّاس (ت ١٢٨٧ هـ).

---

(١) وهو الأصولي الحنفي أول من صَنَّفَ في علم الخلاف، صاحب كتاب: الأسرار في الأصول والفروع في تقويم أدلة الشرع، ويعد كتابه الأمد الأقصى من كتب الأخلاق ونفي العلل القلبية والنفسية كالرياء والعجب.

وقد اعتنى بعض الصوفية ممن له باع في علم الحديث **بتخريج كتب أئمة الصوفية**، ومنهم: الشيخ الإمام زين الدين **قاسِمُ بنُ قُطْلُوبُغا** الحنفى (٨٠٢ - ٨٧٩ هـ)، وهو عالم كبير بالفقه والأصول والحديث والعقائد والأدب والتصوف، وقد خرَّج أحاديث **الشِّفا** للقاضى عياض، وخرّج **عوارف المعارف** للسهروردي، وخرج أربعة كتب للغزالي: **منهاج العابدين، والأربعين في أصول الدين، وجواهر القرآن، وبداية الهداية**، وله: إتحاف الأحياء بما فات من تخريج أحاديث الإحياء.

ـ ومن الكتب المعاصرة في التصوف والتزكية والأخلاق:

حقائق عن التصوف: عبد القادر عيسى.

دستور الأخلاق في القرآن الكريم: لمحمد عبد الله دراز.

خلق المسلم: لمحمد الغزالي.

تربيتنا الروحية: سعيد حوى.

المستخلص في تزكية الأنفس (وهو اختصار لكتاب إحياء علوم الدين): سعيد حوى.

مذكرات في منازل الصديقين والربانيين: سعيد حوى.

الباب الثاني

شرح منظومة المباحث الأصلية في التصوف

تعريف بصاحب المنظومة

شرح المنظومة، وفيه:

مدخل

الفصل الأول: في أصل التصوف

الفصل الثاني: في فضل التصوف

الفصل الثالث: في أحكام التصوف

المبحث الأول: ضرورة الشيخ وحكم اتخاذ شيخ

المبحث الثاني: حكم الاجتماع مع الشيخ والمريدين وآداب ذلك

المبحث الثالث: حكم اللباس وآدابه

المبحث الرابع: حكم الأكل وآدابه

المبحث الخامس: الأدب عند الصوفية

المبحث السادس: حُكْم السَّماع وآدابُه

المبحث السابع: حكم السفر والقدوم على المشايخ والإخوان وحكمته وآدابه

المبحث الثامن: حكم سؤال المال وأسبابه وآدابه

المبحث التاسع: تربية الشيخ للمريد وتدريجه في مراحل السلوك إلى أن يصير شيخاً

الفصل الرابع: في الرد على من رد التصوف

الفصل الخامس: في فقراء العصر، ومتشبهة الوقت

التعريف بصاحب المنظومة

ابن البنا السَّرَقُسْطِي
أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف التُّجِيبيّ

(ت ٨٢١ هـ الموافق ١٤١٨ م)

هو الشيخ الفقيه الصالح الناصح، المعروف بابن البنا السرقسطي، نسبة إلى سَرَقُسْط، بلدة بالأندلس، كان أصل نسبه منها، ولد بالمغرب بفاس وتوفي فيها، ولم يكن مشهوراً بالعلم، لكن دلت منظومته على قدم له راسخ في العلم والسلوك[1].

وهذه المنظومة أكثر معانيها مأخوذة[2] من كُتِب الشيخ أبي عبد الرحمن السُّلَمِي (ت ٤١٢ هـ)[3].

---

(١) ترجم هذه الترجمة للناظم: الشيخُ أبو العباس أحمد زَرُّوق الفاسي (٨٤٦-٨٩٩هـ)، في شرحه على المنظومة: «**اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية**» الذي ألفه سنة ٨٧٧هـ، **وقد اعتمدت على شرحه كثيراً** في هذا الكتاب من غير أن أشير إليه، إلا مواضع يسيرة نقلت منه بحرفه فنبهت إليها.

(٢) كما ذكر ابن عجيبة الحسني (١١٦٢ - ١٢٢٤ هـ) في شرحه على المنظومة: «الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية»، ذكر ذلك في عدة مواضع.

(٣) هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى، الأَزْدِيّ، السُّلَمِيّ الأمّ، (٣٢٥-٤١٢هـ)، الإمام الحافظ المحدث، شيخ خراسان وكبير الصوفية، أبو عبد الرحمن النيسابوري الصوفي، صاحب التصانيف.

صنف في علوم القوم سبعمئة جزء، وفي أحاديث النبي ﷺ من جمع الأبواب والمشايخ وغير ذلك ثلاثمئة جزء، وكانت تصانيفه مقبولة.

قال الخشّاب، وقد ألف في السلمي كتاباً: كان مرضياً عند الخاص والعام، والموافق والمخالف، والسلطان والرعية، في بلده وفي سائر بلاد المسلمين، ومضى إلى الله كذلك.

قال السلمي: استأذنت أمي في الحج، وخرجت سنة ٣٦٦، فقالت أمي: توجهت إلى بيت الله، فلا يكتبن عليك حافظاك شيئاً تستحي منه غداً. وقال: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، والدوام على الأوراد.

قال عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي في «سياق التاريخ»: أبو عبد الرحمن شيخ الطريقة في وقته، =

وهذا يزيدها قيمة علمية، حيث ترجع معانيها إلى عالم صالح عاش في القرن الرابع الهجري.

= الموفق في جميع علوم الحقائق، ومعرفة طريق التصوف، وصاحب التصانيف المشهورة العجيبة، ورث التصوف من أبيه وجده، وكتب الحديث بنيسابور ومرو والعراق والحجاز، سمع من أبيه وجده ابن نجيد، وأبي عبد الله الصفار، وأبي العباس الأصم، وأبي جعفر الرازي، وابني المؤمل، وأبي بكر القطيعي، وطبقتهم. ومن كبار شيوخه أحمد بن علي بن حسنويه المقرئ، وأبو ظهير عبد الله بن فارس العمري البلخي، وسعيد بن القاسم البردعي.

حَدَّث عنه زين الإسلام القشيري، ومحمد بن إسماعيل التفليسي، وعلي بن أحمد المديني، وأبو بكر البيهقي، وخلق كثير.

ذكره الخطيب فقال: محله كبير، وكان مع ذلك صاحب حديث، مجوداً، جمع شيوخاً وتراجم وأبواباً، وعمل دويرة للصوفية، وصنف سنناً وتفسيراً. ا.هـ مختصراً من سير أعلام النبلاء، الذهبي ج١٧ / ص٢٤٧ وما بعدها.

وقد ذكر الزركلي في الأعلام ٩٩/٦، بعض تصانيفه: ومنها: حقائق التفسير، وطبقات الصوفية، ومقدمة في التصوف، ورسالة في غلطات الصوفية، وآداب الفقر وشرائطه، وبيان زلل الفقراء ومناقب آدابهم، وآداب الصحبة، وسلوك العارفين، وعيوب النفس ومداواتها، والفرق بين الشريعة والحقيقة، وآداب الصوفية، وكتاب الأربعين في الحديث.

شرح متن

المباحث الأصلية

عن جُمْلة الطَّريقة الصُّوفية

للشيخ الفقيه الصالح

ابن البنا السرقسطي

(ت ٨٢١ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

مَدْخَل(١)

بِسْمِ الإلهِ في الأمورِ أَبَدَا إِذْ هُوَ غايةٌ لَها وَمَبْدَا
الحمدُ للهِ وَلِيِّ الحَمْدِ هَدَى إلى الحقِّ وَنَهْجِ الرُّشْدِ
ثُمَّ صَلاةُ اللهِ والسَّلامُ على النبيِّ ما انْجَلا الظَّلامُ

بِسْمِ الله بداية كل أمر، فلا يكون شيء بغير علمه وإرادته وقدرته، والقصد إلى إرضاء الله هو الغاية الصحيحة لكل أمر في الحياة، ولله الحمد سبحانه فهو الذي يهدي إلى طريق الحق ويدل على أسبابه، ويبدأ كل مسلم بعد البسملة بالصلاة على النبي ﷺ اعترافاً بأنه ﷺ الذي دلنا إلى طريق الهداية، فنرجو من الله الصلاة عليه في كل يوم.

يا سائلاً عَنْ سَنَنِ الفَقيرِ سألتَ ما عَزَّ عنِ التَّحْرِيرِ
إنَّ الذي سَأَلْتَ عنه ماتا وَصارَ بَعْدُ أَعْظُماً رُفاتا
فَطُمِسَتْ أَعْلامُهُ تَحْقِيقا فَلَمْ تَجِدْ بَعْدُ لها طَرِيقا

---

(١) اعتمدت بدايةً في نص المنظومة وضَبْطِها على ما اعتمده مُحقّقا كتاب « **اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية** »: د. محمد عبد القادر نصار، و أ. عبد الله جمال حَمَدْنا الله، طبعة دار الإحسان، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٥م، ثم أضفت بعض الأبيات التي أضافها ابن عجيبة في شرحه « الفتوحات الإلهية » أو التي أشار إليها المحققان في الهامش، وأصلحت بعض التشكيل، أما الألفاظ التي اختلفَتْ فيها النسخ ـ وهي قليلة ـ فقد اخترت اللفظ الذي رأيته أنسب وأَدَلَّ، ولم ألتزم بما اعتمده المحققان، مع حرصي أن أذكر المعنى الذي في اللفظ الآخر إن كان محتمِلاً في شرحي، ولم أخالف ما في النسخ جميعاً إلا في كلمتين، أشرت إليهما في موضعهما.

إلا رُسوماً رُبَّما لم تَعْفُ وذاكَ ما نَتْبَعُهُ وَنَقْفُ

سَنَن الفقير: أي طريق الصوفي في سلوكه للاستقامة ومعرفة الله، والفقير: مصطلح يعبر به عبر التاريخ الإسلامي لمن يطلب علم التزكية والترقي إلى مقامات الإحسان والصديقية، ويسمى سالكاً، وسمي الصوفي فقيراً تنبيهاً له إلى الافتقار إلى الله دائماً، فالافتقار أعلى رتب التصوف، سمي بها الصوفي لينشط إلى التحقق بها.

عز عن التحرير: صعب تمييز التصوف الحق عن التصوف الباطل والدخيل، لكثرة ما نُسِب إليه مما ليس منه، من انحراف أو تحريف أو ادعاء أو تلبيس أو دَخَن أو بدعة أو زندقة أو غلو أو تشدد أو تفريط أو شطح(١).

إنَّ الذي سَأَلْتَ عنْه ماتا وَصارَ بَعْدُ أَعْظُماً رُفاتا
فَطُمِسَتْ أَعْلامُهُ تَحْقِيقا فَلَمْ تَجِدْ بَعْدُ لها طَرِيقا
إلا رُسوماً رُبَّما لم تَعْفُ وذاكَ ما نَتْبَعُهُ وَنَقْفُ

إن طريق التصوف يكاد يكون قد انتهى، ولم تعد تظهر علاماته ولا تعرف، لقلة أتباعه الصادقين والمتحققين بدرجاته العالية، والناظم لهذه القصيدة يحاول أن يتعرف على ما بقي منه مما لم يُمْحَ، مما بقي في كتب المرشدين والمربين.

والله تعالى ذكر أصحاب الدرجات العليا من السابقين المقربين، وقال: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ١٣-١٤]، فطبيعي أن نجد أصحاب المراتب العالية والصفات السّامِيَة يَقِلُّون قرناً بعد قرن، بينما قال في أهل اليمين: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ٢٩-٣٠].

والتصوف هو الجزء الأعلى من الإسلام، يمثل الصديقية والإحسان، وكما أن الإسلام

---

(١) الشطح والشطحات: هي العبارات التي يصف بها أحدهم نفسه على وجه لا يستقيم شرعاً، كأن يدعي فيها دعوى لا تُقَرُّ له، أو كان فيها نوعُ كِبْرٍ، أو كان فيها نسبة ما للخالق إلى المخلوق.

يمر من ناحية التطبيق باختلاط ودَخَن، كما أخبر النبي ﷺ : «خيرٌ وفيه دَخَنٌ»، فكذلك التصوف دخله هذا الدخن واختلط بما ليس منه.

وكما أن العلم بالفقه والعقيدة قد ينزل مستوى علمائه، فكذلك علماء التصوف والمتحققون به ينزل مستواهم زمناً عن زمن، قال ﷺ : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العِباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »(١)، وقال ﷺ: « يُقْبَضُ الصَّالِحُونَ الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، وَتَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ التَّمْرِ وَالشَّعِيرِ، لاَ يَعْبأُ اللَّهُ بِهِمْ شَيْئًا »(٢).

وَهَبْكَ أَنْ تَظْفَرَ بالأَوْطانِ ما السِّرُّ والمَعْنى سِوَى القُطّانِ

وتَقِلُّ فائدةُ هذا العلم من غير وجود عاملين متحققين به، فالعلم من غير أهله، كالبلاد من غير سكان، كما أن الأجساد لا عبرة بمظاهرها، إلا بما فيها من بواطن صالحة اجتمعت مع الظاهر الصالح، من علم نافع وعمل صالح وحال طيب، «إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وأَمْوالكم، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعمالِكُمْ»(٣).

وهَذِهِ مَسْأَلَةٌ مُعْتاصَةْ لَمْ يَجِدِ الحَبْرُ لها خُلاصَةْ
لأَنَّها مَسْأَلةٌ غَرِيبَةْ حَقيقةُ الجوابِ عَنها رِيبَةْ
وَقَلَّ أَنْ تَلْقَى لَها مُساعِدَا بَلْ مُنْكِراً أَوْ ناقِداً أَوْ جاحِدَا

وإظهار مسائل التصوف فيه صعوبة، لأنه يحتاج إلى **عالم متبحر مُحَقِّقٍ مُتَحَقِّقٍ، جمع التحقيق والتدقيق** في العلم، إلى **التحقّق العملي سلوكاً وحالاً وذوقاً**.

وبعض حقائق التصوف أذواق، فالتعبير عنه مجازي، قد ينكره من لم يعرف ذوقه،

(١) أخرجه البخاري رقم ١٠٠ ومسلم رقم ٢٦٧٣، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه البخاري ٣٩٢٥ عن مرداس الأسلمي ﷺ. وقبض الصالحين: وفاتهم، والأول فالأول: أي الأصلح فالصالح، وحُفالة: أي حثالة، وهو السيء والرديء وما لا يستفاد فيه، ولا يعبأ: أي لا يبالي بهم، فلا قدر لهم عنده.
(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤، عن أبي هريرة ﷺ .

كالمريض يحس السُّكَّر مُرّاً في فَمِه، وكالذي فَقَدَ حاسّة الشَّمّ لا يدري أن حوله فَطِيسَة، وكالأطرش لا يدري جمال التغني بالقرآن، فربما يُتَّهَم المحقق في مسائل التصوف بالخطأ أو الانحراف؛ لعدم معرفة أكثر الناس ببعض مسائله وثمراته وما يختص به وما يميزه، وبعض ذلك يُنْكِرُه العلماء فضلاً عن العامة، لعدم معرفة أدلته أو فهمها، أو لعدم خبرتهم به، فينكرون وينتقدون ويُكَذِّبون.

وَإِذْ تَهَدَّيْتُ إلى الصَّوابِ ... ولم يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الجَوابِ

لأن الله أوجب على العلماء بيان ما علموا من الحق، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال ﷺ: «مَنْ كَتَمَ عِلْماً أُلْجِم بِلِجامٍ مِن نارٍ يوم القيامة»(١).

فهْوَ عَلى الجُمْلةِ والتَّفْصيلِ ... مُنْحَصِرٌ في خَمْسَةٍ فُصُولِ
أَوَّلُها في أَصْلِهِ، والثاني ... في فَضْلِه على مَدَى الأزْمانِ
وثالثُ الفُصولِ في أحكامه ... وحِينَ يَسْتَوِي على أَقْدامه
والرابعُ الرَّدُّ على مَنْ رَدَّهُ ... ولَيْسَ يَدْرِي شَأْنَه وقَصْدَهُ
وخامسٌ يُعْلِمُ كَيفَ صُيِّرَا ... حتى غَدا بَيْنَ الأنامِ مُنْكَرَا
وَبعْدَمَا فَصَّلْتُهُ فُصولَا ... وعَادَ بَتُّ حَبْلِها مَوْصُولَا(٢)
سَمَّيْتُها المَباحِثَ الأَصْلِيَّةْ ... عَن جُمْلَةِ الطَّرِيقَةِ الصُّوفِيَّةْ(٣)
فَحَيِّ يا رَبِّ امْرَءً حَيَّاها ... وَزَكِّهِ يَوماً مَتى زَكَّاها(٤)

---

(١) أخرجه ابن حبان ٩٥، ونحوه عند أحمد ١٠٤٩٢ وأبي داود ٣٦٥٨. و(اللجام): حديدة توضع على وجه الفرس.

(٢) أي ما كان مقطوعاً ومجهولاً عاد وصار متصلاً ومعلوماً.

(٣) (المباحث): ما يتوصل به إلى العلم والحق والراجح.

(٤) (فحيِّ): من التحية والترحيب، (وزكه): طهره وأصلحه، (متى زكاها): متى مدحها، واعترف بالحق الذي فيها.

الفصل الأول
في أصل التصوف

يبين الشيخ الناظم في هذا الفصلِ الأصلَ والأساس والدافع والدليلَ الذي ينبني عليه التصوف، فيبدأ بضرب مثال للروح بالبذرة، ليزول الإنكار العقلي على أن الروح عالَمٌ مُنتج ومُثمِر، لمن اعتنى به، ثم يذكر الأدلة الشرعية التي تدل على اعتبار المعاني والأعمال والأحوال التي اهتم بها علم التصوف.

وَٱعْلَمْ بأنَّ هَذهِ الطَّريقةْ بَحْثٌ عَنِ التَّحْقيقِ لِلْحَقيقَةْ
وَهذِه حقيقةُ الإنسانِ حَيثُ لَها أُنْموذَجٌ رَبَّانِي

سميت طريقة التصوف بعلم الحقيقة، لأن معرفة الله هي المقصد منها، والله تعالى ﴿ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٥]، ولا شيء له وجود في العالم إلا بالله، فلم يكن شيء حقاً إلا بكونه مخلوقاً لله وممدودا من الله، وإلى هذا أشار قول النبي ﷺ: « أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لَبِيْد: ألا كُلُّ شيءٍ ما خلا الله باطل »[(١)].

وفي كل إنسان من العقل والبدهيات والهداية والدلائل، ما يجعله قادراً على معرفة الله ومعرفة صفاته سبحانه، وصفات الخلق وأفعالُهم دالةٌ على الخالق وقدرته عز وجل، فالعبد إذا نظر في نفسه عرف ربه[(٢)]، وإذا نظر في نفسه وجد فيها مدد الله الذي يدل على الله وقدرته، فالإنسان صَنْعَةٌ ربانية، دالةٌ على عظمة الخالق.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٦٢٨ ومسلم رقم ٢٢٥٦ عن أبي هريرة ﷺ، و(لبيد): هو ابن ربيعة، كان من شعراء الجاهلية، ثم أسلم ﷺ حين وَفَد قومه بنو جعفر إلى رسول الله ﷺ.

(٢) يروي بعض الصوفية مقولة: «مَن عَرَف نفسَه، عرفَ ربَّه»، وهي ليست بحديث لكن لها معنى صحيح، وهو أن العبد إذا عرف نفسه فقيراً عرف ربه غنياً، وعرف نفسه عاجزاً ضعيفاً ذليلاً جاهلاً، عرف ربه قادراً قوياً عزيزاً عالماً.

وأمرنا الله تعالى أن ننظر في الكون وفي أنفسنا لنعلم أدلة وجوده وصفاته، ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٥].

وقد قيل: أنت بالروح لا بالجسم إنسان، فالغائب عن روحه غائب عن إنسانيته وحقيقته.

وقد أمرنا الله أن ننتسب إليه، نسبةَ العبدِ إلى ربه، وأن نتحقق بهذه النسبة من طريق العلم، فقال سبحانه: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وَوَضْعُهُ في الكُتْبِ لا يَجُوزُ بَلْ هُوَ كَنْزٌ في النُّهَى مَكْنُوزُ

وعدم وضعه في الكتب ليس لأنه منكر، وإنما لأنه أحوال وأذواق، فلا ينبغي أن يتحدث بها مَن ذاقها إلا مَع مَنْ ذاقها وتحقَّق بها، وإلا صار هذا العلم مبتذلاً، يتكلم به الكذابون والمنافقون والفساق.

والمعاني الذوقية لا تنقل حقائقها العبارات نقلاً تاماً، لذلك جاء في كلام السلف النهي عن الكلام فيما لا يدرك الناس معناه، فقال علي ﷺ: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّب اللهُ ورسولُه ﷺ»(١)، وقال ابن مسعود ﷺ: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»(٢).

ومما يدل على الناس تتفاوت فهومهم بحسب إيمانهم، قوله تعالى عن المنافقين: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ [محمد: ١٦]، فهم قد سمعوا كالصحابة، لكن كأنهم ما سمعوا ولا فهموا.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٢٧ موقوفاً عن علي ﷺ، وقد روي مرفوعاً ضعيفاً عند غيره.

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، ج١ ص ١١. وبعض العلماء حمل على هذا المعنى حديث البخاري رقم ١٢٠ عن أبي هريرة ﷺ « حفظت من رسول الله ﷺ وعاءَيْن، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قُطعَ هذا البُلعوم »، لكن أكثر العلماء على أن أبا هريرة لا يعني هذه الأمور التي نتحدث عنها، وإنما يتحدث عن أمور الفتن، التي وقعت في حياته، وكانت تتعلق ببعض الحكام، فكان لا يستطيع التحدث بها، وإلا منعوه أو قتلوه.

ومَن عمِل بأعمال أهل الإحسان ومجاهداتهم؛ ظهرتْ له تلك المعاني المكنوزة، إذ يتحقق بها ويتذوقها.

إيّاكَ أَنْ تَطْمَعَ أَنْ تَحُوزَهْ ... مِنْ دَفترٍ أَوْ شِعْرٍ اَوْ أُرْجُوزَةْ
وَإِنّما تَعْرِفُ مِنْه وَصْفَا ... لَسْتَ تَرَاهُ، وُهْوَ لَيْسَ يَخْفَى

لما كان السلوك أمراً ذوقياً وعملياً فإن الكلام والتعبير لا يكفي لمعرفته، كما لا تعرف ذوقَ العسلِ أو البطيخ أو أيَّ طعامٍ بوصفِ الكلامِ معرفةً تامة، وكما لا تعرف ذوق الشوق والعشق بمجرد الوصف، فكان التعبير للتقريب.

ولأجل ذلك لا بد من السير إلى الله على يد العارفين المربين الذين سلكوا هذا الطريق فذاقوا أحواله وثمراته، ليذوق السالك ما ذاقوا، وليُسَدِّدُوه في كل مرحلة يَمُرُّ بها، إذا اخْتَلَّ الذوقُ أو الحالُ أو دَخَلَ الوَهْم.

ولما كان الوصف مطابقاً للحقيقة من جهة الوصف؛ فإن السالك حينما يذوق ما وصفوا يجد وصفهم صحيحاً ودقيقاً.

وَهَا أَنا أَشْرَحُ مِنْهُ البَعْضَا ... بِقَدْرِ ما تَفْهَمُهُ فَلْتَرْضَى
فَهَذِهِ الحَقِيقةُ النَّفْسِيَّةْ ... مَوْصولَةٌ بِالحَضْرَةِ القُدْسِيَّةْ
وَإِنّمَا يَعُوقُها المَوْضوعُ ... وَمِنْ هُنا يَبْتَدأُ الطُّلُوعُ
لَمْ يَتَّصِلْ بالعالَمِ الرُّوحاني ... مَنْ عُمْرُهُ على الفُضُولِ عاني[1]
لَيْسَ يُرَى مِنَ المَعاني دَانِ ... مَنْ قَلْبُهُ في عالَمِ الأَبْدانِ

الروح والنفس الإنسانية لا وجود لها ولا قيام لها ولا بقاء لها إلا بالله، فسِرُّ الخالق فيها وفي كل مخلوق، وهو مدده وآثار صفاته سبحانه، ومن هذا السر في الإنسان سِرُّ النفخة

(١) الفضول: الزوائد التي يمكن الاستغناء عنها، عاني: أسير بتعلقه بها.

الربانية ﴿ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحِجْر: ٢٩][(١)]، وهذا السر هو صلة بين الخالق والمخلوق، لو لم تكن لتلاشى المخلوق وفَنِيَ وانعدم.

وقد مثَّلَ الله لهذه الصلة بين العبد وربه بصلة الرحم، وسمى الرحم بهذا الاسم اشتقاقاً من اسمه الرحمن، قال ﷺ: « إن الرَّحِمَ شِجْنَةٌ[(٢)] مِن الرحمن، فقال الله: من وَصَلَكِ وَصَلْتُه، ومَن قَطَعَك قَطَعْتُه »[(٣)]، وفي رواية: « قال الله عز وجل: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرَّحِم، وشَقَقْتُ لها مِن اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بَتَتُّه »[(٤)].

والإنسان متصف بصفات الله، فيوصف الخالق والمخلوق: بالحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، لكن شتان بين صفة المخلوق والخالق، فكلٌّ يتصف على ما يليق بذاته، فالخالق صفاته ذاتية، والمخلوق صفاته إضافية، يستمدها من الله، ويتصف بها على ما يليق بالحادث، قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ [الإسراء: ٢٠].

ويجوز أن يقال: النفسُ موصولة بالله، وفلان واصِلٌ، ففي الحديث « من وصلني وصله الله »[(٥)]، **والوصول إلى الله أمر معنوي** لا حسي، قال ابن عطاء الله السكندري في الحِكَم: « وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، وإلا جَلَّ ربنا أن يتصل هو بشيء، أو يتصل به شيء »، وقال الشيخ أحمد زروق: « والمراد قرب إحاطة واقتدار، لا قرب مسافة وانحصار، إذ يتعالى ربنا عن ذلك، فافهم وتفهم وتمسك بقوله تعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) ومعنى الآية: نفخت فيه روحاً هي من خَلْقي، ولا يجوز أن يُفهَم أن رُوحَ الإنسانِ بعضٌ من الله، فذلك مستحيل، واعتقادُ ذلك كفرٌ.

(٢) شِجنة، بفتح الشين وضمها وكسرها: هي في الأصل عروق الشجر المشتبكة، والمعنى أن الرَّحِمَ أثرٌ من آثار رحمته.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٦٤٢، عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه الترمذي رقم ١٩٠٧ واللفظ له، وأبو داود رقم ١٦٩٤، عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ. (بتته): أي قطعته.

(٥) أخرجه مسلم رقم ٢٥٥٥ عن عائشة رضي الله عنها، وتمام الحديث: « الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله ».

ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] تكن الهداية رفيقتك في كل مسلك، ولا تصغ بأذنك لأهل الإلحاد، ولا لمن يقول بالحلول والاتحاد، فإن ذلك كفر وضلال وباطل ومُحال، أعاذنا الله منه بمنه وكرمه »[١].

والإنسان مكون من جسد وروح، فإذا كنا نعلم أحكام الجسد وما يتعلق به ونعمل بحسبها، فكذلك للروح أحكامها وأعمال بحسبها، لكن أكثر الناس يعيشون لأجسادهم، ولا يعطون أرواحهم حقها، ولا ينتفعون من خصائص الروح، لأنهم ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الروم: ٧]، ولأنهم حجبوا أرواحهم بأبدانهم، إذ إن للروح غذاءً كما للبدن غذاء، فنغذي البدن، ونترك غذاء الروح، لذلك تضمر ولا تكبر، وتختفي ولا تظهر، بل قد تموت، ثم تجد مَن يُنكِر عالَم الروح على أهله الذين عملوا على تغذيته وتميته، بالإيمان والأعمال الصالحة والمجاهدات والذكر والأدب مع الله وخَلْقِه، وشتان بين عالم الروح وعالم البدن، وشَتّان بين غذاء الروح وبين غذاء البدن، فغذاء البدن لا شيءَ في جَنْبِ غذاء الروح.

والاعتناء بالجسد والبدن والمحسوسات، على حساب الروح والمعاني؛ هو الذي يمنع فتح قَناةٍ من الروح إلى الجسد، وهو الذي يمنع ترقيات الروح وظهور خصائصها على صاحبها، لذلك كان تضييع غذاء الروح هو أكبر عائق عن السلوك إلى الله، وعن بلوغ مراتب المعرفة.

وأكثر الناس بدلاً من أن يستعملوا أبدانهم فيما ينفعُ أرواحَهم وعلاقتَهم بالله؛ يستعملونها في ما لا نفع فيه، أو فيما هو فُضُول وتطفل، فالعين التي يجب أن تجعل من كل شيء تراه مذكراً لها بالله الخالق العظيم؛ شغلوها برؤية الكون وتعظيم مخلوقاته وناسِه وطعامه وشهواته[٢] ، واللسان الذي يجب أن يلهج بذكر الله وشكره وتعظيمه وتلاوة كتابه يشتغل بالكذب والغيبة واللغو، وهكذا.

---

(١) اللوائح الفاسية، ص ٧٢ .

(٢) قال الله تعالى عن الكافرين: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [الكهف: ١٠١]، فأشار إلى أن العين تَذْكُر، وهؤلاء الكافرون لا تذكر أعينهم، فيفهم منه أن عين المؤمن ذاكرة، وذلك أنها إذا وقعت على أي شيء فإنه يدلها على الله ويذكرها بقدرة الله وأسمائه.

مجاهدات النفس

فَلَمْ تَزَلْ كُلُّ نُفوسِ الأَحْيا عَلّامَةً دَرّاكَةً للأَشْيا
وإنّما تَعُوقُها الأبدانُ والأَنْفُسُ النُّزَّغُ والشَّيْطانُ
فَكُلُّ مَن أَذاقَهم جِهادَهْ أَظْهَرَ لِلقاعِدِ خَرْقَ العادَةْ

تسمى الروح نفْساً، وهذه الروح عالم غيبي رباني، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وهذه الروح عالِمة مُدرِكة للأشياء على حقائقها، لأنها من الملأ الأعلى، فمن فُتحَ له قناة إلى روحه أعطته الروح من علومها بقدر تلك القناة.

وهذا **الفتح** يدخل في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ ﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤-١٥].

لكن الذي **يحجب الروح** ويُعُوْقُها، ويمنع الجسد من الأخذ منها وعنها:

١. هو العناية الزائدة بالبدن، لا من جهة تغذيته والاهتمام بحوائجه وضرورياته، بل من جهة جعله هدفاً بَدَلَ أن يكون وسيلة، ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ ﴾ [الحديد: ٢٠].

٢. والنفس، بما فيها من أهواء ومُيُول وشهوات وطلب لِلَّذَّاتِ، إذ يطيعها ويجعل منها إلهاً، فيخالف لأجل شهواتها ربَّه وخالقَه، فتعوقه عن ربه، وتمنع سمو روحه، ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

٣. الشيطان، إذ يطيعه في ما يدعوه إليه من كفر وباطل وشر وعصيان وشهوة وفساد وغفلة، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وكل ذلك علاجه **بالمجاهدة** بعد حسن التوجه إلى الله، فأول الأمر أن يتوجه إلى الله طالباً رضاه، فاهماً مقصود الحياة، ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ثم إذا عَرَضَتْ له الدنيا لم يغتر بها، ولم يأخذ منها إلا حاجته، ولم ينشغل بها عن آخرته وربه، وإذا اشتهت النفس شيئاً منعها منه إلا ما كان يرضي الله أو أباحه الله، ويأخذ شهوة النفس المباحة بما لا يكون على حساب الآخرة وأعمالها، ﴿ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨]، ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

فإذا خالف الإنسان عاداته وغَفَلاته لأجل ربه، فإن الله يكرمه بقلب سليم وحال طيب وعلم لَدُنِّيّ وطمأنينة نفسية وسكينة قلبية وقد يكرمه بالكرامات وخوارق العادات، فلما خرق عاداتِ نفسه خرق الله له عاداتِ كَوْنه، وهذه المجاهدات هي سبب الهدايات، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ومن جاهد عدوه ولم يجاهد نفسه، فهو يريد إصلاح غيره وإقامته على مراد الله، ولا يصلح نفسه، ولا يقيمها على مراد الله، قال ﷺ: « والمجاهد من جاهد نفسه في الله »[١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦].

وَهْيَ[٢] مِنَ النُّفوسِ في كُمُونِ ... كَما يكُونُ الحَبُّ في الغُصُونِ

وعلوم الروح وأذواقها وما يُفتَحُ لها وما تُكْرَم به موجودة في كل نفس وعند كل إنسان، لكنها كامنة كالشجرة في البذرة، فالبذرة التي لم توضع في أرضٍ مناسبة، ولا سقيت بماء، ولا حُمِيَتْ من الإتلاف والآفات، تبقى بذرة صغيرة قاصرة، لكنها لو زرعت وسقيت

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ١٦٢١، وأخرجه أحمد رقم ٢٤٠٠٤ وابن حبان رقم ٤٨٦٢ والحاكم رقم ٢٤ بلفظ: «والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»، وفي رواية لابن حبان رقم ٤٦٢٤: «جاهد نفسه لله عز وجل».

(٢) أي الحقائق.

وحميت، رأيتها شجراً مثمراً جميلاً ظليلاً، وكذلك الروح ما لم تضعها في بيئتها المناسبة، لن تجد علومها وأذواقها وثمراتها وروائعها وأنوارها.

حَتّى إذا أَرْعَدَتِ الرُّعُودُ — وَانْسَكَبَ الغَيْثُ وَلانَ العُودُ
وَجالَ في أَغْصانِها الرِّياحُ — فَعندَها يُرْتَقَبُ اللّقاحُ
فَعنْدَما أَزْهَرَتِ الأَغْصانُ — واعْتَدَلَ الرَّبيعُ والزَّمانُ
يَكُونُ إِذْ ذَاكَ أَوانُ العِقْدِ — وَتُنْظَمُ الأَغْصانُ نَظْمَ عِقْدِ
حَتى إِذا أَيْنَعَ لِلْعِيانِ — وأَمِنَتْ جَوائِحَ(١) الزَّمانِ
بَاكَرَها زَارِعُها، والغارِسْ — يَقْطِفُها، والغَيْرُ مِنْها آيِسْ

فإذا **اعتنيت بروحك**، كما يعتني زارع الحبوب وغارس الأشجار، ستجد **ثمرات** عنايتك، فالروح صالحة بنفسها مستعدة للنماء كالبذرة والغَرْسَة.

لكنها تحتاج إلى **واعظٍ** أو باعثٍ يُخَوِّفُها كالرعد، ليتحرك القلب ويستيقظ ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ﴾ [الزمر: ٢٣]، ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾ [الزمر: ٥٤].

وتحتاج إلى غرس في موضع مناسب، وهو **البيئة الصالحة** والقرب من الصالحين.

وتحتاج إلى سقاية بماء **العمل الصالح**، حتى تلين لذكر الله وأحكامه ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣]، ثم تظهر بَراعِمُها الناعمة، على عودها اللين، ثم تَقْوَى، مع دوام السقاية والعناية، ثم تُزْهِر.

فتحتاج إلى الرياح التي تحمل اللقاح؛ تحتاج إلى **المربي** الرباني، الذي يُذَكِّرُها بالمعاني العالية والتوجيهات النافعة.

---

(١) الجوائح: الآفات التي تصيب الزرع والثمار.

وتحتاج إلى **عناية الله** وعطائه ولطفه وهدايته، وكل ذلك يَصْنَعُ ربيع النفس، وإقبالها وحسن حالها مع الله.

فهنا تبدأ تباشير السير إلى الله، فسوف تتولد **الثمرات** الصغيرة، التي لا تزال تكبُر، بما تَسقيها وبما فَتحتَ لها من قنوات الماء، حتى تكون جمالاً لصاحبها ونفعاً لغيره.

ولا يزال صاحب هذه النفس السالكة إلى ربها، **يحميها** من الآفات والأمراض والضعف والفساد، كما يحمي المزارع زرعه وشجره بالمبيدات الحشرية، وبمنع الصغار والدوابّ من أن تدوسها وتخربها، وبحمايتها من الريح الشديدة، ومن الصقيع وشدة الحر.

عندئذ **أنت** الذي تقطف الثمرات وتجني الحبوب، **وأنت** تملكها، **وأنت** تمتع بها وتستظل بظلها وتشم روائحها الطيبة، **وأنت** الذي تبدأ تظهر عليك آثار السلوك من عمل صالح وحال طيب وخلق حسن ومَقامٍ حَميد، واستقامةٍ وهداية وطمأنينة ورضى وخضوع لأحكام الله وقضائه، **وأنت** وحدك تمتع بما تُدِرُّ عليك مِن دَخْلٍ ونفع، وغيرك ممن لم يزرع ولم يَغْرِسْ آيِسٌ كَسِيرٌ حَسِير فقير.

الدرجات العالية ثمنها الاجتهاد في العمل

فَأَيُّ مَنْ مَرَّ بِها مَساءَا　　وَأَبْصَرَ الظِّلالَ والأَفْياءَا
وَنَزَّهَ الأَبْصارَ وَالعُيُونا　　حَيثُ رَأى الأَنْهارَ وَالعُيونا
وَأشْتَمَّ مِنْها الرَّوْحَ وَالرَّيْحانا　　وَظَلَّ في بَهْجَتِها حَيْرانا(١)
فَقالَ: ها نَحْنُ إِذَنْ سَوَاءُ　　فَعِنْدَها يَجْمَعُنا المَساءُ
حَتى إذا هَجَمَهُ الظَّلامُ　　وَاحْتَوشَتْهُ الوَحْشُ والهَوَامُ
وَلَمْ يَجِدْ لِلْفَوزِ مِنْ أَسْبابِ　　أَقامَ حَيْرانَ أَمامَ البابِ

---

(١) (الرَّوْح): الراحة النفسية.

فَقِيْلَ: مَنْ بِالبابِ؟ قالَ: طارِقُ — فَقيلَ: كَلّا، لا، وَلَكِنْ سارِقُ
فَقالَ: رِفْقاً صاحِبَ الجَنّاتِ — لِحَائِرٍ قَدْ ضَلَّ في الفَلاةِ(١)
فَقِيلَ: هَلّا كُنْتَ ذا بُسْتانِ؟ — فَقَالَ: كُنْتُ قاعداً وَوَانِ
وَقالَ: يا قَوْمِ أَلا تَشْرُونِ؟ — قالُوا: جَهِلْتَ ثَمَنَ المَثْمُونِ
فَهَذِهِ فَواكِهُ المَعارِفِ — لَمْ تُشْرَ بِالتّالِدِ أَوْ بِالطّارِفِ(٢)
مَا نَالَها ذُوْ العَيْنِ والفُلُوسِ — وَإِنّما تُباعُ بِالنُّفوسِ(٣)
وَقِيلَ: لَيْسَتْ هَذِهِ المَقاصِرْ — مَأْوى لِكُلِّ قاعِد وَقاصِرْ(٤)
وَقِيلَ: لَيْسَتْ هَذِهِ البَحائِرْ — لِحائِرٍ ضَلَّ فَظَلَّ حائِرْ(٥)
فَافْهَمْ فَتَحْتَ هَذِهِ العِبارَةْ — إِشارَةٌ وأَيّما إِشارَةْ

السالك الصادق العامل قد تحصل له بعض الثمرات في بداية سيره، من عَونٍ من الله على الاستقامة، ومن ملازمةٍ للأوراد، وهمةٍ في الطاعات، ومن رُؤىً صالحةٍ، وفُهُوم طيبة ومعارف، وإلهامات بالخير، وواردات قلبية وأحوال ومشاهدات وتجليات كريمة.

ويظهر أثر ذلك على وجه السالك وسلوكه، ويَشعرُ به الناس؛ فمن رأى ما عندك من الخير، وشعر بما عندك من بستان التقوى والمعرفة، وشعر أن نوراً من الله يُمِدُّك كأنه النهر أو عيون الماء، ووجد فيك حسن المعاملة، وشم منك رائحة المسك ورَيحان الإيمان، كما

(١) (الفلاة): الصحراء المنقطعة.
(٢) (التالِد): المال القديم الموروث، والطارِف: المال الجديد الذي حصله بكسبه وتعبه، فلا ينفعك ما تأخذه بالتوارث، ولا ما تأخذه بالقوة.
(٣) (العين): الذهب والفضة.
(٤) (المقاصر): القصور المقصورة، هي كناية عن المعاني التي يخصه الله بها والعلوم اللدنية والأحوال السَّنِيَّة.
(٥) (البحائر): جمع بُحيرة، وهي الماء المجتمع، وتسمى القرى بحاراً، وتسمى الناقة بَحيرة إذا كانت غزيرة اللبن، ولكن الناظم استعمل البحائر هنا بمعنى معروف في بلاد المغرب، وهي المُقْتات، أي الدكان والمخزن، الذي تتجدد بضاعته، ويبيع ويُزَوِّدُ الناسَ بأقواتهم وحاجاتهم، وهي كناية عن أن هذا السالك صار مُستودَعاً للعطايا المتجددة من الله عليه.

وصف النبي ﷺ المؤمن الذي يقرأ القرآن: « ومثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجَّة، طعمها طيب، وريحها طيب »(١).

فإذا رأى الْمُقَصِّر ما عندك، وهو يظن نفسه أنه مثلُك، فيظن أنه يجمعه معك مقام واحد، فإذا هَجَمَتْ عليه الفتن، ظَهرَ ضَعْفُه وانحناؤه للفتن، ووقوعُه في المعاصي، وتقصيرُه في الطاعات، وتَأَخُّرُه عن الآداب الْمَرْضِيَّة والأخلاق السامية، وخُلُوُّه من أحوال السالكين الطيبة، كالذي هَجَمَ عليه الظلام، فلم يَعُدْ يرى الطريق، ووجد من حوله وحوشَ الفتن وأهلَها، وحشراتِ الغفلات والشبهات والمكروهات، تؤذيه لا يراها ولا يستطيع أن يدفعها عن نفسه.

فيشعر عندئذ أنه كان مقصراً أو مسيئاً، فليس هو مثلَ ذلك السالك، وليس له بستان ولا ثمار، فوجد نفسه خارج البستان، فوقف متحيراً متسائلاً: لماذا لا أكون مثله؟ لماذا أقع في المعاصي؟ لماذا تؤثر الفتن علي؟ لماذا لا أجد همة للطاعات؟ لماذا لم أستطع إخراج أمراض القلوب من نفسي؟

وهو يدعي أنه يريد الحق والخير، وليست المسألة بالدعوى والتمني ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ﴾ [النساء: ١٢٣]، وإنما بالعمل، وهو لم يعمل لذلك، ولم يقم بحق ذلك، فإذا ادعى الصدق، وأنه راغب بالخير، وأنه متعرضٌ للنفحات، قيل له: كذبت بل أنت كالسارق، تريد أن تأخذ ما ليس لك، وتطلب ما لا تستحقه، فيصير يتمنى ويترجى ويطمع، ويعترف بضعفه وحيرته، ويطلب الشفقة عليه، فيقال له: إن العطايا لا تُنال بالتمني والحزن، مع التأخر والقعود، وإنما بالإيمان والعمل الصالح والاستعداد للآخرة، قال ﷺ: « الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله »(٢).

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥١١١ ومسلم رقم ٧٩٧، عن أبي موسى الأشعري ﷺ. و (الأترجة): فاكهة صفراء، لها طعم طيب ورائحة طيبة، كالشَّمّام أو الأناناس.

(٢) حديث حسن، أخرجه أحمد ١٢٤/٤، والترمذي رقم ٢٤٥٩، والحاكم رقم ١٩١، عن شداد بن أوس ﷺ.

يدعي أنه يحب الصلاح ويرغب بالخير، لكنه لم يقدم الثمن المناسب لذلك، فليس ثمن ذلك مال، وإنما نفوس ومجاهدات وسهر وعبادات وطاعة وحسن معاملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١].

فمن لم يكن مستعداً لبذل نفسه وماله، طاعة لله؛ فلم يدفع ثمن الجنة، « ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة »[١]، والله طالَبَك ببعض وَقْتِك وببعض جُهدِك وببعض مالِك، وأنت لا تعطي البعض، فكيف ستبذل نفسَك كلها.

فيقال له: ثمرات السلوك لا تشترى بالمال ولا بالجاه ولا بالنَّسَب، مع التقصير والحيرة والضلال، أو التردُّدِ، فتارة يتوجه إلى الله وتارة يكون مع نفسه وهواه، وإنما يبذل الإنسان من نفسه، فيعمل ويجاهد ويجتهد، ويخضع لأحكام الله، ويَذِلُّ له، ويبقى مع الله على حالة واحدة، لا هَمَّ له إلا الله، لا تبقى له بقية هوى، فكله لله، وأعماله كلها لله، لا معصية ولا تقصير في طاعة الله، فذلك الذي له القُصور الجميلة، وله المخازن العامرة المتجددة.

الأصل الشرعي لَمَسْلَكِ الصُّوفية

وَلْنَرْجِعِ الآنَ لِباقِي الفَصْلِ ... إِذْ في تَمامِهِ ثُبوتُ الأَصْلِ
فَقادَةُ الصُّوفِيِّ أَهْلُ الصُّفَّةْ ... في زَمَنِ الرَّسُولِ فَاْعْلَمْ وَصْفَهْ
وَهُمْ ضِيافُ اللهِ وَالإِسْلامِ ... وَجُلَساءُ سَيِّدِ الأَنامِ
كانُوا على التَّجْرِيدِ عامِلِينَ ... وَعَنْ سِوى الرَّحْمنِ مُعْرِضِينَ
تَخَلَّقُوا بِخُلُقِ النَّبِيِّ ... يَدْعُونَ بِالغَداةِ وَالعَشِيِّ

وبعد هذا التشويق والتمثيل يبين الناظم أن أصل التصوف ودليل اعتباره ومشروعيته واستحسانه في الشرع يرجع إلى أمور:

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٤٥٠ والحاكم رقم ٧٨٥١، عن أبي هريرة ﷺ.

٠. وجود **أهل الصُّفَّة** في زمن النبي ﷺ ، وإقراره لهم، ومَدْحُ القرآن لهم، وهم قوم تفرغوا للعلم والعبادة والاعتكاف في المسجد، ليس لهم أعمال ولا مال، فهم قُدْوَة الصوفية وأئمتهم.

نزلوا على المسلمين ليتعلموا دينهم ويتقنوا عباداتهم ويصلحوا نفوسهم، حتى إذا تحققوا بذلك رجعوا إلى ديارهم مُعَلِّمين وعابدين وصالحين وعاملين على إقامة الدين والدنيا، والصوفي يتفرغ زمناً حتى يتعلم دينه ويتقن أعمال الطاعات، ويتحقق بالعبودية والإنابة والإخلاص والتوكل والزهد والخشية والرضا والمراقبة، بعد ذلك يخرج إلى أعمال الدنيا ويخالط الناس وقد تسلح بنور ووقاية من الفتن، ويكون داعية إلى الله ومذكراً بالحق ومربياً للناس وعاملاً على نصرة الدين.

وهكذا كان أهل الصفة، ينزلون في مسجد النبي ﷺ وينامون أياماً أو أشهراً، فيجالسون النبي ﷺ ويقتدون به وبأخلاقه، ويتعلمون عقائدهم وأحكام دينهم، وينشغلون بالله وعبادته وذكره، ولا ينشغلون بالدنيا وأعمالهم، بل يجدون من ينفق عليهم ويتولى حاجاتهم، وقد كان يحبهم رسول الله ويتولاهم ويرعاهم[١].

وقد صَبَّرهم النبي ﷺ على حالهم وفقرهم، فعن فَضالَة بن عُبَيْد ﷺ « أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يَخِرُّ رجالٌ من قامتهم في الصلاة، مِن الخَصاصة، وهم أصحاب الصفة، حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين أو مجانون، فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم، فقال: لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة »[٢].

وقد مدح اللهُ أصحابَ صِفاتٍ فقال: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ

---

(١) وقد وردت فيهم عدة أحاديث منها حديث البخاري رقم ٤٣١ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ، إِمَّا إِزَارٌ وَإِمَّا كِسَاءٌ، قَدْ رَبَطُوا فِي أَعْنَاقِهِمْ، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْنِ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الْكَعْبَيْنِ، فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهِيَةَ أَنْ تُرَى عَوْرَتُه.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٣٦٨.

وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨][(١)].

والصوفية هم مَن يَسْعَون للتحقق بهذه الأوصاف التي ذكرتها الآية: لهم أورادهم في الصباح والمساء، مخلصون يريدون إرضاء الله، لا تتعلق قلوبهم بالدنيا، ولا تغفل قلوبهم عن ذكر الله أبداً، ولا يتبعون أهواءهم وشهواتهم، ولا تكون أمورهم فوضى ولا سائبة، بل أمرهم مُتْقَنٌ يحقق مقصد وجودهم في الدنيا.

وكثير من أهل زماننا يُنكِرون مسألةَ التفرغ لصلاح النفس وإصلاحها، لذلك وجب التنبيه إلى أمرين ترجع إليهما هذه المسألة:

١. أن صلاح كلِّ فَرْدٍ في المجتمع، هو مسؤولية الأمة والمجتمع كلِّه، فحينما نُفرِّغُ السالكَ لإصلاح نفسه، كما نفرغ الطالب أيام المدرسة لطلب العلم؛ نحن نحمي المجتمع من الجهل والفساد والانحراف والجريمة، فليس ذلك خسارة، بل هو طريق الربح والرُّقِيّ والأمن.

٢. إن حرصنا على إصلاح أفراد الأمة وشبابها وفتياتها من الصِّغَر؛ هو طريقُ إلى صِناعةِ أئمةٍ في التربية والإصلاح، وعلى الأمة أن تُفَرِّغَ ناساً ليكونوا مُصْلِحين ومُرَبِّين وواعظين، يشتغلون بالعلم والعبادة والترقي ومجاهدة النفس وإصلاحها حتى يعرفوا طريق إصلاح غيرهم في المجتمع، وعلى الأمة أن تنفِق على هؤلاء، لأنهم يحمون الأمة ويصلحونها ويحققون مصالحها، أكثر مما يحققه رجال الجيش والأمن، ورجال التعليم والقضاء، ورجال السياسة.

فكما تنفق الأمة على هؤلاء؛ واجبها أن تنفق على صناعة الْمُرَبِّين، لأنهم جميعاً حصروا أنفسهم وخصصوا أنفسهم لخدمة الأمة ومصالحها، فلم يستطيعوا العمل، لا لعجزهم، وإنما

---

(١) روى مسلم رقم ٢٤١٣ فيمن نزلت هذه الآية، عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ ستةَ نفرٍ، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء، لا يجترؤن علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ﴾ ». وروى ابن ماجه رقم ٤١٢٨ أنهم سعد وابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال.

لانشغالهم بالأمة، وذلك كلُّه يَدخُل في قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

قَدْ فَهِمُوا مُقْتَضَياتِ الشَّرْعِ فَصَيَّرُوا الفَرْقَ لِعَيْنِ الجَمْعِ

٢. الالتفات إلى **مقاصد الشريعة**، وغاية الوجود في الحياة الدنيا، فلم يكن التفات الصوفية إلى الأعمال الظاهرة فحسب، بل حرصوا أن يحققوا مقصود هذه العبادات، ومُرادَ اللهِ عز وجل منها، فالصلاة ليست مجرد حركات، وإنما هي ذكر وتذلل وخضوع وخشوع، والصيام ليس مجرد جوع، بل هو تجريد للنفس عن أهوائها وشهواتها، والزكاة ليست مجرد بذل مال، بل هي تجرد عن حب المال وتعظيمه، وهي إحسان إلى المسلمين وعون لهم.

وهكذا في كل عمل وعبادة فالله الحكيم عَلَّمَنا أن تشريعاته سبحانه لها مقاصدها التي بها تتحقق الحكمة من تشريعها.

والصوفية هُم الذين جعلوا الحرص على ذلك هَمّاً مِن همومهم، فبَنَوْا حياتَهم وسلوكهم وأعمالهم على ذلك، وسَعَوا للتحقق به.

فكل عمل من أعمال العبادة أو الدنيا قد يشغل الناس عن الله وعن الحضور معه؛ فالصوفية جعلوه مُذَكِّراً بالله، ولم يَنشغِلوا به عن الله، فكانت قلوبهم مجتمعة على الله حتى فيما يُفَرِّقُ قلوب الناس عن الله، كما وصف الله المؤمنين: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٧]، فهم في حضور مع الله حتى وهم يتبايعون ويناولون الدينار والدرهم، وهم لا يغفلون عن أحكام الله في أي ظرف أو وقت.

والفَرْقُ والجَمع مصطلحان عند الصوفية، فالفرق رؤية الخلق والتعامل معهم، والجمع: أن ينتبه إلى الفاعل الخالق، ويستغرق في ذكره، كأنه يغيب عما سواه، متحققاً بقوله ﷺ في وصف الإحسان: « أن تعبد الله كأنك تراه »(١).

وتصيير الفرق لعين الجمع هو التحقق بقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، بحيث يصير ما كان يشغله عن الله، يصير مذكراً له بالله سبحانه.

قَدْ خَرَجُوا للهِ عَما اكْتَسَبوا ... فكُلُّ صُوفِيٍّ إِلَيهِمْ يُنْسَبُ
إِذَنْ فَشَأْنُ القَوْمِ لَيْسَ مُحْدَثا ... بَلْ كانَ أَحْوى فَوَجَدْناهُ غَثّا(٢)
فَاسْلُكْ طَرِيقَ القَوْمِ تَلْقَ يُمْنَهْ ... إِذِ الكِتابُ قَيْدُهُ وَالسُّنَّةْ

٠٣ ومن عملهم بمقصود الشريعة: أنهم علموا أن **المال وسيلة**، وليس هدفاً، فاستخدموه لحوائجهم وحوائج إخوانهم ولنصرة دينهم، فلم يبخلوا به حيث يجب بذله، ولم تتعلق قلوبهم به، بل كانوا **زاهدين** فيه، بقلوبهم وأيديهم، ولا يُغَيِّرُهم الجاهُ والغنى، وكل ما وصلهم من مال زاد عن حاجتهم قدموه لغيرهم ولإخوانهم وجعلوه لله.

كما قال النبي ﷺ: « مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهرٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ، وَمَن كانَ لَهُ فَضْلٌ مِن زَادٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ على مَن لا زَادَ لَهُ »، قال أبو سعيد الخدري ﷺ وهو راوي الحديث: فَذَكَرَ مِن أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ، **حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لا حَقَّ لأحدٍ مِنَّا في فَضْلٍ**(٣).

بل يعلمنا الله أن ننفق لغيرنا ما نحتاجه إيثاراً لإخواننا على أنفسنا، ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠ ومسلم رقم ٩، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أحوى: مليء، غث: فارغ أو كالهشيم.

(٣) أخرجه مسلم رقم ١٧٢٨. وقوله: (فَضْل): أي زيادة عن حاجة الإنسان، (ظَهْر): أي دابة يُركب ظهرها، (زاد): أي طعام.

فَقِهُوا قولَ الله: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ [الهمزة: ١- ٣].

وقولَه: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩].

وقولَ رسولِ الله ﷺ: « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمِهِ؛ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا »(١).

اتعظوا بقول الله ﷻ: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

على هذا بُنِيَ التصوف، فمن لم يكن كذلك لم يكن صوفياً، بل يكون مُدَّعِياً أو مُنْتَسِباً لا متحققاً، فالتصوف هو التحقق بالتزكية والإحسان والصديقية قدر الإمكان.

وهذه الأمور راجعةٌ إلى الشرع وأدلته، وليست بدعة في الدين، فمن تحقق بها كان شأنه كبيراً وعظيماً، وهكذا كان التصوف في القرون الأولى، مليئاً كبير الشأن، لكنه صار فارغاً من مضمونه، وقَلَّ المتحققون به، وكثر الأدعياء الذين يتسلقونه، وهذا التراجع في التصوف عن حقيقته؛ يصف به الناظم زمانه في القرن الثامن والتاسع الهجري، فكيف به لو رأى كثيراً من أدعياء التصوف في زماننا هذا، في بداية القرن الخامس عشر الهجري.

٤. والتصوف في كل أعماله وعلومه ومفرداته ومسائله يجب أن يكون **منضبطاً بالكتاب والسنة**، فكيف يكون مُنْكَراً وهو يرجع إلى الكتاب والسنة ويتقيد بهما، في كل صغيرة وكبيرة، ومن لم يرجع إلى الكتاب والسنة لم يكن صوفياً بل يكون مدعياً.

ويكون رجوع العامة إلى الكتاب والسنة؛ بالرجوع إلى أئمة الهدى المقبولين عند الأمة، وإلى الفقهاء المجتهدين، وإلى علماء التصوف المربين المأذونين المعتبرين المتبعين لطريق أهل السنة.

---

(١) حديث حسن، أخرجه البخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن ماجه.

لذلك كان رجوع الصوفي إلى الكتاب والسنة يقتضي طلبَ العلم، ليستطيع تمييز الصّافي من الدَّخَن، والحق من الباطل، والعلم من الجهل، والصدق من الدعوى، ويتبع من يثق بعلمه ودينه وتقواه، ومَن زكَّاه الثقات، وإذا لم يستطع معرفة أمر أنه حق أو باطل فإنه لا يبادر إلى الإنكار أو الإثبات، وإنما يتوقف ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ولا يتبع هواه ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ ﴾ [القصص: ٥٠].

فذلك هو التصوف الذي إن سلكته ستجد اليُمْن والبركة والسعادة والخير والقرب، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ ﴾ [الطلاق ٢-٣].

وما سيأتي في الفصل الثاني في فضل التصوف، فذلك يزيدك معرفة بأصل التصوف واعتباره شرعاً.

تنبيه: حيثما ذكرنا التصوف في هذا الكتاب مطلقاً من غير قيد، أو ذكرناه على سبيل المدح، فإنما نقصد التصوف العليم المستقيم، المبني على الكتاب والسنة، والتصوف الذي أقره أهل السنة والجماعة، ولسنا نمدح تصوفاً خرج عن طريق أهل السنة، ولا تصوفاً فيه زندقة أو غلو أو بدعة أو انحراف.

الفصل الثاني

في فضل التصوف

يبين الناظم رحمه الله في هذا الفصل عُلُوَّ شأن التصوف، وفضيلة العمل به، حيث إنه يمثل مقام الإحسان في الشريعة الإسلامية، والسالك المستقيم في التصوف يحرص على أن يبلغ مقام الإحسان، وأن يطبق الشريعة الإسلامية علماً واعتقاداً وعملاً وأخلاقاً وباطناً على أحسن ما أمر الله به، فالتصوف علم عملي، يتعلمه المسلم ليعمل به، ومقصده التحقق بأعلى الإسلام وأحسنه.

فالإسلام أعطانا حداً أدنى يجب أن يتحقق به كل مسلم، من صحة الاعتقاد، وأداء الفرائض الظاهرة والقلبية، وترك المحرمات ما ظهر منها وما بطن، ثم حثنا الإسلام على فعل مندوبات تزيد المؤمن إيماناً وترقياً وقرباً، فالصوفي هو من يحرص على ذلك فيترك المكروهات، ويتورع عن الشبهات، ويحذر مما تهواه النفس، ويحرص على فعل المندوبات، ويستكثر منها ما استطاع، ويتحلى بالآداب، ويأتي بها على أحسنها.

وقد تضمن هذا الفصل بيان حقيقة التصوف، التي بها يكون ممدوحاً، علماً وعملاً وحالاً.

وقد رد الناظم فضيلة التصوف إلى الأمور الآتية:

حُجَّةُ مَنْ يُرَجِّحُ الصُّوفِيَّةْ   على سِواهُمْ حُجَّةٌ قَوِيَّةْ
هُمْ أَتْبَعُ النَّاسِ لِخَيْرِ النَّاسِ   مِنْ سائِرِ الأَنامِ وَالأَناسِي
يَتْبَعُهُ العالِمُ في الأَقْوالِ   وَالعابِدُ النَّاسِكُ في الأَفْعالِ
وَفِيهِما الصُّوفِيُّ في السِّباقِ   لَكِنَّهُ قَدْ زادَ بِالأَخْلاقِ

١ و ٢. حرص الصوفية على **اتباع النبي ﷺ غاية الاتباع، في العلم والعمل**، فالعلماء يتَّبِعون النبيَّ ﷺ بأقواله فيُعلِّمون من علمه ويدعون بدعوته، وهذا يحرص عليه الصوفي، والعُبّاد يتَّبعون النبي ﷺ في الأفعال والأعمال الظاهرة، كالصلاة وقيام الليل وكثرة الصيام والصدقة، وهذا يحرص عليه الصوفي، ويزيد عليهما أنه يسابق العلماء والعباد، فيحرص على ما يستطيع من ذلك أشد الحرص، ويتحقق بذلك، ويتحرى من ذلك أنفعه وأدومه وأعلاه، ويحرص على كل باب من أبوابه، يقتدون برسول الله ﷺ حيث سئل عن تورم قدميه في القيام فقال: « أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً »(١).

٣. حرصهم على **حسن الخلق، بحسن الأدب مع الله، وحسن المعاملة مع الخلق**، فيزيدون على غيرهم في الآداب الظاهرة والباطنة، ويحرصون على صلاح قلوبهم، والتطهر من أمراض القلوب.

وإذا كان في عامة المؤمنين من يفعل ذلك؛ فحرص الصوفية على ذلك أكبر من غيرهم.

ثُمَّ بِشَيْئَيْنِ تَقُومُ الحُجَّةْ وَأَنَّهُمْ قَطْعاً على المَحَجَّةْ
مَذاهِبُ النّاسِ على اخْتِلافِ وَمَذْهَبُ القَومِ على ائْتِلافِ
وَما أَتَوا فِيهِ بِخَرْقِ العادَةْ إِذْ لَمْ تَكُنْ لِمَنْ سِواهُمْ عادَةْ

٤. الصوفية الصادقون تجد بينهم مودة وحباً ومسامحة وعفواً وليناً وتعاوناً واجتماعاً للقلوب وتواضعاً للمسلمين وتأدباً مع الناس وخُلواً من الحقد والحسد، تجد من ذلك عندهم ما لا تجده عند غيرهم، **فقلوبهم مؤتلفة** لا ترى بينهم اختلافاً، مجالسهم تخلو من الغيبة وذِكْرِ الناسِ والدنيا، لا شغل لهم إلا بالله وطاعته وذكره وحبه وحب رسوله وتعظيم شريعته، وإذا أخطأ معهم أحد غَضُّوا الطرفَ عنه وسامحوه، بل أحسنوا إليه.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٤٥٥٧ عن عائشة رضي الله عنها، وفي رواية: « أفلا أكون عبداً شكوراً ».

٥. وقد ظهرت فيهم **الكرامات**(١)، ما لم تظهر في غيرهم، وذلك دليل على صفائهم وصدقهم مع الله وإكرام الله لهم، والكرامة وإن كانت لآحادهم ظنية، لكنها متواترة في حق مجموعهم، ومعلومة لمن رافقهم ورافق صالحيهم وشيوخهم، والكرامة فيهم كثيرة، فلا تكاد تجد سالكاً إلا وقد رأى عدداً من كراماتهم وتأييد الله لهم.

ومن الكرامات التي اشتهرت فيهم: الكشف والإلهام، فلا تُعرَفُ عبر التاريخ في أحد كما عُرِفتْ فيهم، بعد أصحاب رسول الله ﷺ.

قَدْ رَفَضُوا الآثامَ والعُيوبَ وَطَهَّرُوا الأَبدانَ والقلوبَ

٦. **يرفضون المعصية وسوء الأدب**، وجعلوا ذلك منهجاً لحياتهم، فلا يتساهلون في صغيرة ولا كبيرة، ولا يتقبلون إساءة أدب مهما كانت صغيرة، فطهروا أبدانهم من العمل الباطل والخلق السيء.

---

(١) والكرامة حق، وهي خارقة للعادة، وهي ثابتة للأولياء والصالحين، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥-٢٦]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وفي قصة أهل الكهف كرامة لهم، وقد وردت الأحاديث بذكر كثير من الكرامات، منها: حديث البخاري ومسلم في أبي بكر ﷺ حينما جاءه أضياف وبارك الله له في الطعام فأكلوا وزاد الطعام، وأطعم منه النبي ﷺ. وحديث البخاري ومسلم أن عمر ﷺ مُحدَّث، وحديث البخاري ومسلم في إجابة دعوة سعد بن أبي وقاص ﷺ على من كذب عليه، وروى البخاري أن أُسَيد بن حُضَير وعَبّاد بن بِشْر رضي الله عنهما خرجا مِنْ عِنْد النبي ﷺ في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ ومَعهُمَا مِثْلُ المِصْبَاحَيْنِ بيْنَ أيديهما، فَلَمَّا افتَرَقَا، صارَ مَعَ كلِّ واحدٍ منهما وَاحدٌ حتى أَتَى أَهْلَهُ، وروى البخاري أن قريشاً أسرت خُبَيْباً ﷺ، وقد شهدت امرأة كرامته، فقالت: فواللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يوْماً يأْكُلُ قِطْفاً مِنْ عِنبٍ في يدِهِ، وإنَّهُ لمُوثَقٌ بِالحديدِ، وَما بمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ، وَكَانَتْ تقُولُ: إنَّهُ لَرِزقٌ رَزَقَهُ اللَّه خُبَيباً، وفي الحديث نفسه أن قريشاً أرسلت لتأخذ شيئاً من جثة عاصم بن ثابت بعدما قتل، فبعثَ اللَّه مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ [النحل]، فَحَمَتْهُ مِنْهم. ومن الكرامات: حديث الغُلام الذي كانَ يأْتِي الرَّاهبَ والسَّاحرَ، وحديثُ جُرَيجٍ الذي اتهم بالزنا فأنطق الله طفلاً رضيعاً بتبرئته، وحديثُ أصحَابِ الغار الذين أَطْبقَتْ علَيْهِمُ الصَّخْرَةُ.

٠٧. **وطهروا قلوبهم من الأمراض**، فمِن أركان السلوك والسير إلى الله عند الصوفية: الاعتناء بإصلاح القلوب والتخلص من أمراض النفوس، وذلك يميزهم على غيرهم، ويجعل لطريق التصوف فضيلة على من لم ينتهجه، ممن هو مسلم لكن لا يخلو قلبه من أمراض كالرياء أو حب المال والدنيا أو الاعتماد على الأسباب أو اليأس أو الأمن من مكر الله وغيرها، حتى قيل: من لم ينتهج نهج التصوف مات مصراً على الكبائر، وذلك أن عامة الناس لا تخلو قلوبهم من كبائر قلبية لا ينتبهون إليها، ولا يَسْعَوْن إلى إصلاحها.

وَبَلَغُوا حَقِيقَةَ الإِيْمانِ وَانْتَهَجُوا مَناهِجَ الإِحْسانِ

٠٨. **التحقق بحقيقة الإيمان**، إذ مقامات الدين ثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان، وقد حرص الصوفية على التحقق بحقائق الإيمان، بأن لا يكون الإيمان مجرد علم واعتقاد وأعمال ظاهرة، بل له حقيقته القلبية التي تُصلح سلوك الإنسان، وتجعل قلبه موصولاً بالله.

٠٩. ثم حرصوا فوق ذلك أن **يكونوا من أهل الإحسان**، وقد بين الله تعالى أن التقوى ثلاث درجات: تقوى أهل الإسلام وتقوى أهل الإيمان وتقوى أهل الإحسان، ثم حبب الله إلينا أن نكون من أهل الإحسان إذ ذكر أن الله يحب المحسنين، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣].

وحقيقة التصوف هو مقام الإحسان، واتباع الرتبة الأعلى في الدين، والعمل بأحسن الأعمال وأفضل الآداب، والتحقق بأحسن الأحوال القلبية، عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]، وبقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٥].

قال ابن العريف(١) رحمه الله: « السر الأعظم في طريق الإرادة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ ﴾.

وأحسن المذاهب في الاعتقاد: مذاهب السلف، من اعتقاد التنزيه، ونفي التشبيه، وتفويض المتشابه، والوقوف مع ما ورد كما ورد، ما لم يحتج إلى تقييد فيقيد بما ينفي شبهته من غير زائد.

وما تكلموا فيه من وجوه التأويل؛ فمن حيث إنه عِلْم لا أنهم جازمون به، بل هو في الاحتمال عندهم كغيره، سوى الْمُحالِ، فإنهم يطرحونه للقطع ببطلان إرادته(٢) ...

وأحسن المذاهب في الأحكام: مذاهب الفقهاء؛ لرجوعهم للقواعد وعملهم على الأصول وجمعهم بين الأدلة، ولأنّا إنما تُعُبِّدْنا بالمعاني لا بالألفاظ، والشريعة منقولة، والنقول مختلفة، فلا بد من اعتبار المقاصد.

وهذا شأن الفقهاء، فهم يتبعون مذاهبهم مع التقيد بمذهب واحد.

لأنه أجمع للحقيقة، وأقرب للتبصر.

وداعٍ للتحقيق، وأتم في الاعتبار.

وأسهل للتناول.

---

(١) ابن العريف: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي، ت ٥٣٦ هـ، صاحب كتاب: محاسن المجالس، انظر ترجمته: وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ١٦٨.

(٢) ثم قال: « وقد قيل: إن اختلاف الأقوال مع طرح الْمُحال [أي المعنى المستحيل] هو عين الإصابة، ولهذا توسعوا في بعض العبارات حتى أُنْكِرَت عليهم [لأنهم يفترضون أن كل مسلم يقرأ عباراتهم ينفي المعنى المستحيل، إحساناً للظن بهم]، وكان كلامهم في ذلك أولاً مع من لا يتوهم به، وهم أبناء جنسهم، فربما ساغ لهم ذلك بحسب الاصطلاح وقصد التقريب على اختلاف فيه بين علماء الكلام؛ إذ كان له شبهه في القرآن والسنة، ولكن لدخول الغير عليه وجب التحفظ منه في هذه الأزمنة جملة؛ شفقة على الضعفاء، وحماية عن ظنون السوء بهم، ولما في بعضه من سقوط الحرمة، وجب تجنبه أبداً، وإن فُهِمَ على الصواب، مع حسن الظن بقائله، لأن أصل المذهب حسن الظن حتى يأتي الناقض، وحرمة الشريعة واجبة الحفظ في الأقوال كوجوبها في المعاني والأفعال، فافهم ».

وعلى هذا درج سلفهم، فكان الجُنَيْد(١) تابعاً أبا ثَوْر(٢)، والشِّبْلي(٣) مالكيًّا، والمحاسِبي(٤) شافعياً، والجَرِيريّ(٥) حنفياً، وهم أئمة الطريقة، لكنهم يأخذون من ذلك بأحسنه، وهو ما يماسُّ الحديث اعتباراً بنور النبوة، ما لم يكن الاحتياط في خلافه، أو القاعدة تقتضي مقابله عند إمامهم بحيث يكون هو المشهور ونحوه.

ثم إن ترخصوا بمذهب غيره فلضرورة تنالهم، أو تشددوا فلورع يقصدونه، والله أعلم.

وأحسن المذاهب في الفضائل: مذهب المحدثين، إذ لا يأخذون إلا بما صحَّ أو قاربَ الصحيح أو قارب ذلك من الضعيف، فلا يأخذون بموضوعٍ مختلق كصلاة الليالي والأيام

---

(١) هو الجُنَيد بن محمد البغدادي، هو شيخ الصوفية، ولد سنة نيف وعشرين ومئتين، وتوفي سنة ٢٩٧هـ، تفقه على الإمام أبي ثور، وكان يفتي على مذهبه، وسمع من السري السقطي والحارث المحاسبي، أتقن العلم ثم أقبل على شأنه وتعبَّد ونطق بالحكمة، لم يُرَ في زمانه مثلُه في عفةٍ وعزوفٍ عن الدنيا. انظر: سير أعلام النبلاء: ١٤/٦٦-٧٠.

(٢) أبو ثور إبراهيم بن خالد البغدادي، الإمام الحافظ الحجة المجتهد مفتي العراق، سمع من سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح والشافعي، حَدَّث عنه أبو داود وابن ماجة، وجَمَعَ وصنَّف، قال عنه أحمد بن حنبل: وهو عندي في مِسْلاخ سفيان الثوري، وقال ابن حبان: كان أحدَ أئمة الدنيا فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً، توفي نحو ٢٤٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء: ١٢/٧٢ وما بعدها.

(٣) أبو بكر الشبلي البغدادي، قيل: اسمه دلف بن جحدر، وقيل: جعفر بن يونس، وقيل: جعفر بن دلف، مولده بسامراء، شيخ الطائفة، كان أبوه من كبار حجاب الخلافة وولي هو حجابة أبي أحمد الموفق ثم لما عزل أبو أحمد من ولايته؛ حضر الشبلي مجلس بعض الصالحين فتاب، ثم صحب الجنيد وغيره وصار من شأنه ما صار، كان فقيها عارفا بمذهب مالك، وكتب الحديث، وله حِكَم وحالٌ وتمكُّنٌ، كان يحصل له استغراق فيقول أشياء يعتذر عنه فيها، قال الشبلي: كتبت الحديث عشرين سنة، وجالست الفقهاء عشرين سنة، وكان لهجاً بشعر المحبة، وله ذوق في ذلك، وله مجاهدات عجيبة، حفظ الموطأ، سئل: ما علامة العارف؟ قال صدره مشروح، وقلبه مجروح، وجسمه مطروح، توفي ٣٣٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء: ١٥/٣٦٧-٣٦٩.

(٤) هو أبو عبد الله الحارثُ المحاسبي البصري، المتوفى ٢٤٣هـ، العارف شيخ الصوفية، تفقه، وكتب الحديث، وعرف مذاهب النساك، وكان من العلم بموضع، له كتب كثيرة في الزهد وأصول الديانة والرد على المعتزلة والرافضة. انظر: سير أعلام النبلاء ١٢/١١٠ وما بعدها.

(٥) هو أَبُو مُحَمَّد الجَرِيرِيُّ الزَّاهِدُ، أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّد بن حُسَيْنٍ، شَيْخُ الصُّوْفِيَّةِ، لَقِيَ السَّرِيَّ السَّقَطِيَّ وَالكِبَارَ، وَرَافَقَ الجُنَيْدَ، وَكَانَ الجُنَيْدُ يَتَأَدَّبُ مَعَهُ، وَإِذَا تَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنَ الحَقَائِقِ، قَالَ:هَذَا مِنْ بَابَةِ أَبِي مُحَمَّد، فَلَمَّا تُوُفِّيَ الجُنَيْدُ، أَجلَسُوْهُ مَكَانَهُ، وَأَخَذُوا عَنْهُ آدَابَ القَوْمِ، مَاتَ شَهِيْداً، (ت ٣١٢ هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، ١٤/٤٦٧.

الفاضلة وصلاة الرغائب ونحوها، بل يرون في السنة كفاية عن غيرها ... وكل ما لا ينكره مذهب يجوز العمل به من غيره فافهم.

واختصوا في الآداب والأحوال والحركات بأصل هو اجتماع قلوبهم على مولاهم، بحيث ما وَجدوا سببَ ذلك قالوا به، وإن كان مع شبهة خفيفة، أو مكروه، أو فيه خلافُ عالِمٍ.

ما لم يكن محرماً صريحاً، أو خسيساً متفقاً عليه، أو شبهة يجب اجتنابها، فإنه ظُلمةٌ، وما كان ظلمةً لا يصح أن يكون نوراً، والقوم لا يؤثِرون شيئاً لا نورانية فيه، فافهم[١] »[٢].

قال أبو نصر الطوسي: « ومَن لم يبلغ من الصوفية مراتب الفقهاء وأصحاب الحديث في الدراية والفهم، ولم يُحط بما أحاطوا به علماً، فإنهم راجعون إليهم في الوقت الذي يُشكِل عليهم حُكمٌ من الأحكام الشرعية، أو حدٌّ من حدود الدين، فإذا اجتمعوا فهم في جملتهم فيما اجتمعوا عليه[٣].

فإذا اختلفوا فاستحباب الصوفية في مذهبهم الأخذُ بالأحسن والأَوْلى والأَتَمِّ، احتياطاً للدين، وتعظيماً لما أمر الله به عباده، واجتناباً لما نهاهم الله عنه، وليس من مذهبهم النزول على الرُّخَص وطلب التأويلات والميل إلى الترفُّه والسَّعات وركوب الشبهات، لأن ذلك تهاونٌ بالدين وتخلُّفٌ عن الاحتياط »[٤].

---

(١) ثم قال: « ومن هذا الأصل ضل فيهم من أنكر عليهم من غيرهم، وضل بهم من لا يعرف مقصدهم من محبيهم، فتوسع الأول في الإنكار بمطالبتهم فيه بما طالبوا به أنفسهم في الأحكام والفضائل من الاحتياط، وتوسع الثاني في الأحكام والفضائل باتباع الرخص في التأويلات، وهو أصل كل ضلال وهلكة، فالحذر الحذرَ من الجانبين إلا بحق واضح، ووجه لا يمكن الشك فيه علماً وعملاً ».

(٢) اللوائح الفاسية، أحمد زروق، ص ١٢٣-١٢٥، وقد نقل ذلك عن ابن العَرِيف.

(٣) معنى هذه العبارة والتي بعدها: أي إذا اتفق الفقهاء على حكم فإن الصوفية يوافقونهم، وإن اختلفوا أخذوا بالأحوط من أقوال الفقهاء والمذاهب، استحباباً.

(٤) اللمع في التصوف، ص١٦.

وقد لخص بعض العارفين أهم ما يميز المسلم والمؤمن والمحسن، فقال: «مَن بلغ إلى **حقيقة الإسلام** لم يقدر أن يفتقر عن العمل، ومن بلغ إلى **حقيقة الإيمان** لم يقدر أن يلتفت إلى العمل، ومن بلغ إلى **حقيقة الإحسان** لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله تعالى»(١).

ـ وبعد أن بين الناظم فضيلة أهل التصوف عملاً، بين فضيلتهم علماً، فبين العلوم التي اعتنوا به وفاقوا بها غيرهم:

وَعَلِمُوا مَراتِبَ الوُجُودِ كَالأُمِّ وَالوالِدِ وَالمَوْلُودِ

١٠. ومن فضائل التصوف أنه العلم الذي يميز بين مراتب الوجود:

أ. فكما أن الإنسان في وجوده مراتب، **فالأب** صاحب النطفة، **والأم** مستودع لها، **والولد** ثمرتها، كذلك الموجودات لها مراتب: فالواجب الوجود هو الله وحده، والكون المخلوق جائز موجود، والكون الذي لم يُخلَقْ جائزٌ معدوم، وهناك أمور مستحيلات، وللعبد نظرته وأدبه مع كل ذلك، فيعرف الغني المغني، ويعرف الفقير المحتاج، ولا يجعل للعبد ما لله، ولا ينقل رتبة أحد إلى غيره.

والله تعالى منزه في ذاته وصفاته وأفعاله عن مشابهة كل ما سواه.

والصفات لا تقوم بلا ذات، والأفعال دالة على الصفات.

وهذا ما فهمه بعض المفسرين من المثال الرباني في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ ... ﴾ [النور: ٣٥]، ولله المثل الأعلى: فلا نور بلا مصباح، فهو مثال الذات، ولله المثل الأعلى، والزجاجة تُظهِر النور، فهي كالأسماء التي بها تُعرَف الذاتُ وتجلياتُها، والمشكاة يجتمع فيها النور، فهي كالأفعال، مَوْضعُ أثرِ النور والصفات.

(١) نقله: اللوائح الفاسية، أحمد زروق، ص ١٠٣-١٠٤.

ب. وميزوا بين النصوص التي تتحدث عن الذات، والتي تتحدث عن رتبة الصفات، والتي تتحدث عن رتبة الأفعال، والنصوص التي أسقطت اعتبار الخلق، فجعلتهم كالعدم، والنصوص التي جعلت لهم اعتباراً، فجعلتهم مؤثرين فاعلين أو جعلتهم كالآلات.

فعلى سبيل المثال:

أولاً: يقول الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ ﴾ [التوبة: ١٠٥] ويقول: ﴿ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الأنعام: ٧٢]، فنسب العمل للمخلوق، ولم يلفت النظر إلى أنه بالله وإذنه وقدرته.

ثانياً:يقول الله تعالى:﴿ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فنسب الغَلَبَةَ إلى الناس لكن بين أنه بإذن الله، فنبهك إلى إرادة الله وأنها فوق إرادة المخلوق، لتكون ذاكراً لله وإرادته عند كل فعل، وهذا مقصود الذكر بقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثالثاً: يقول الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ ﴾ [التوبة: ١٤]، فنسب فعل تعذيب الكافرين إليه، وجعل المؤمنين كالآلة بيد الخالق، ليلفت العبدَ إلى ضعفه، وافتقاره إلى قدرة الخالق، وأن لا قوة إلا بالله.

ومثله: ﴿ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَا ﴾ [التوبة: ٥٢].

رابعاً: يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡ ﴾ [الأنفال: ١٧] والمسلمون قد قتلوا الكافرين يوم بدر، والله تعالى ينفي أنهم قتلوا، وينسب الفعل إلى نفسه، فجعل فعل المخلوق وإرادته كالعدم في جنب إرادة الله وقدرته، ليرتقي بك إلى رؤية إرادته وقدرته في كل حال ووقت وفعل، حتى تغيب عن رؤية نفسك وكبريائك.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ [الفتح: ٢١]، ومثله قوله في الحديث القدسي: « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم

تَعُدْنِي، قال: يا رب: كيف أَعُودُك وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض، فلم تَعُدْه، أما علمت أنك لو عُدَّته لوجدتني عنده، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي »[١].

ومراتب الوجود بحسب هذا العلم قد يُعبِّرُ عنها الصوفية بعالم **الْمُلْك** وعالَم **الملَكُوت** وعالم **الجَبَرُوت**، فعالَمُ الْمُلْك يَشهده الناس جميعاً وهو عالَمُ الخلْق، أما العارف بالله فيشهد عالم الملكوت[٢]، ثم عالم الجبروت، وهو شُهودٌ قلبيٌّ معرفيٌّ.

ج. وينبني على ذلك ـ عَمَلاً ـ أن السالك يكون حاله موافقاً لحال النصوص في أحد مراتبها، **فتارة** يكون غائباً عن الكون وعن نفسه مستغرقاً في ذكر ربه، **وتارة** يرى الأسباب وينسبها إلى الله، ويعلم أنها بمشيئة الله وقدرته وإمداده، **وتارة** يرى قدرة الله محركة لأسبابه، **وتارة** قد يغفل ـ إن كان ضعيفاً ـ عن ربه ويُلابِسُ الأسبابَ وكأنها فاعلةٌ بنفسِها، لكنه يعتقد ويؤمن أن الكل من عند الله وبالله.

د. وعلماء أهل التصوف اعتنوا بمعرفة النفس والروح والعقل والقلب والجسد، والتمييز بينها وبيان تداخلها وكيف تؤثر في بعضها، وكيف تعالج أمراض النفس من خلال تلك المعرفة، بمعرفة مبدأ الأمر ومنتهاه.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٩، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الملكوت: لغوياً هو بمعنى الْمُلْك، لكن الصوفية استعملوه بمعنى سِرِّ الله في الملك، واستفادوا هذا الفهم من كلام بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥]، فالإشارة هنا ليست إلى رؤية أمرٍ ظاهرٍ، بل إلى ما يُحَرِّك هذا الكون ويُمِدُّه مِن صفات الله، وأما الجبروت؛ فهو مصطلح يدل على الالتفات إلى عظمة ذات الله، دون الالتفات إلى الخلْق مطلقاً.

وَٱسْتَشْعَرُوا شَيْئاً سِوَى الأَبْدانِ   يَدْعُونَهُ بِالعالَمِ الرُّوحانِي

١١. ومن علوم الصوفية: استكشاف الروح، فإذا كان الإنسان قد يعجز عن إدراك كُنْهِ الروح، فإنه لا يعجز عن معرفة بعض صفاتها، وكيف يحافظ على نورها، ويستفيد من خصائصها، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥] لا يعني أنها لا تُعْرَف، فهي مخلوقة، وقد عَرَفْنا الخالق أفلا نَعلَمُ المخلوق، وإنما الآية إخبار عن عظيم شأن الروح فهي سر رباني، وذلك لا يمنع معرفةً ما عنها.

ثُمَّ أَمامَ العالَمِ المَعْقُولِ   مَعارِفُ تَلْغَزُ فِي المَنْقُولِ

١٢. يقول علماء الصوفية:

أ. هناك **معارف** ـ أشارت إليها بعض النصوص ـ فوق طور العقل، ويدرك العقل وجودها، ولا يدركها، ويُسَلِّمُ بها من طريقها الصحيح المعتبر شرعاً، كإدراكنا أنا لا ندرك كُنْهاً لله، (والعجز عن درك الإدراك إدراك)،

ب. وهناك **أذواق وأحوال ومواجيد**، يشعر بها السالك ويحسُّ بها، يُعبِّرُ عنها العلم إشارة أو تعبيراً، لا يفي بوصفها فتبقى العبارة قاصرة عن الذوق، فليس الخبر كالعيان وليس الوصف كالذوق، كقوله تعالى: ﴿ تَقۡشَعِرُّ ﴾ ﴿ تَخۡشَعَ ﴾ ﴿ أَشَدُّ حُبًّا ﴾ ﴿ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾[1].

---

(١) قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، فالقلب يحس بالوجل والخوف عند ذكر الله تعالى، وقال الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣]، فجلد الإنسان يقشعر ويهتز من أثر خشية القلب، ثم يلين بعد تشبعه بالقرآن وأنواره فيرق القلب ويلين للقرآن ومعانيه، وقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: ٣٥]، فالذي لم يهتد إلى نور الله هو الأعمى وهو القاسي القلب.

كما أن لَذَّة الطعامِ وأَلَمَ الضَّربِ يتوقف على الحِسِّ، ولا يُعرَف بالعبارة وحدها، كذلك الأمور الروحانية لها ذوق وطعم وحلاوة، لا يعرفها إلا من أكرمه الله بها، قال ﷺ: « ذاق طعم الإيمان » « وجد حلاوة الإيمان »[(١)].

وبعد الذوق تصير معرفة وعلماً ويُمكِن تَخَيُّلُها.

التفسير الإشاري

وفي هذا الباب تجد عند الصوفية علماً يسمى بالتفسير الإشاري، والتفسير الإشاري ليس تفسيراً، ولا يجوز أن يعتقد الإنسان أنه تفسير للآية، أو أنه من معناها.

وإنما هو من باب: (الشيءُ بالشيء يُذكَر)، ففي الآية لفظة أو معنى يُذَكِّر بمعنى آخر.

١. وليس هو مما تدل عليه الآية في ظاهرها، ولا مقتضاها، ولا حتى إشارتها القريبة أو البعيدة.

٢. ولا يجوز أن يعتبر المعنى الإشاري عوضاً عن المعنى الأصلي للآية أو للحديث، أو ملغياً له، فذلك من شأن الباطنية، وهو كفر، يُضَيِّع الدين كله.

٣. ثم إن المعنى الذي استخرجه المفسر بالتفسير الإشاري يجب أن يكون صحيحاً في نفسه، أي عليه أدلة أخرى من الكتاب أو السنة، وإن لم تكن الآية التي ذُكِر عندها ذلك التفسير أو المعنى تدل عليه.

يستثنى مما سبق أن بعضهم يلحق بالتفسير الإشاري تفاسيرَ محتملة، لها وجه من ظاهر الآية أو الحديث، فذلك لا ينطبق عليه ما قلناه، ومن ذلك ما يسميه الأصوليون إشارة قريبة أو بعيدة، مما هو من مقتضى النص أو مفهومه المخالف مثلاً، فهذا يدخل في التفسير، ويكون صحيحاً أو محتملاً أحياناً.

---

(١) قال النبي ﷺ: « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً » أخرجه مسلم ٣٤، وقال ﷺ: « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » أخرجه البخاري رقم ١٦ ومسلم رقم ٤٣.

وقد لجأ بعض علماء الصوفية إلى التفسير الإشاري رغبة منهم في تقريب بعض المعارف والأذواق، فاستعملوا بعض النصوص استعمالاً إشارياً ليشيروا إلى معاني راقية، يفهمها عليهم أهل الأذواق وقد يستشرفها من قارب مقامهم.

ومن نماذج التفسير الإشاري:

فهمهم لقوله تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ [المائدة: ٢١] على معنى: أن الله جعل قلباً مستعداً للطهر، فطَهَّره ليكون صافياً ومُلْهَماً ومُهْتدِياً، فتدخل إلى أعماقِ قلبِك، فتجد نفعاً ونوراً، وهذا معنى صحيح، لكن الآية لم تَرِدْ لِأَجْلِهِ.

وكقوله تعالى: ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴾ [الطور: ٢٣] فيقولون: اجتهد في الذكر حتى تستغرق في حب الله والحضور معه، فكأنما سَكِرْتَ عما سواه، وهذا فعل لا إثم فيه، ولا غفلة معه.

وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ [القدر: ١]، فيقولون: حينما لا ترى مالكاً ولا متصرفاً إلا الله، ولا تغفل عن الله؛ يصير لك قَدْرٌ عند الله، وعندئذ تقترب منك الملائكة والأنوار والعطايا.

ومثل ذلك فَهْمُ قوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ ﴾ [الفرقان: ٢٥-٢٦]، والآيتان لم تَرِدَا في هذا المعنى، وهو معنى صحيح في ذاته.

وكقوله ﷺ: « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك »، فيقرؤنه « فإن لم تكن؛ تراه »، أي إن غِبْتَ عن نفسك وشهواتها مُستغْرِقاً في الذكر وفي تمام الالتزام بطاعة الله؛ عندئذ تراه، أي تكون كأنك تراه، والحديث لا يُقْرأُ كذلك، لأن قوله: « فإنه يراك » هو جواب الشرط، وليس جوابه: « تراه »، لكن قارئاً تذكر هذا المعنى من هذه العبارة عند قراءتها، وهو معنى صحيح، لكن ليس دليلُه هذا الحديث.

ومن نماذج التفسير الإشاري ما ذكره الطُّوسِي رحمه الله، قال: « وكما سئل شاه الكرماني رحمه الله، عن معنى قوله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠-٧٨]، فقال: الذي خلقني فهو يهدين إليه لا غيره، وهو الذي يطعمني الرضا ويسقيني المحبة، وإذا مرضْتُ بمشاهدة نفسي فهو يشفيني بمشاهدته، والذي يميتني عن نفسي ويحييني به فأقوم به لا بنفسي، والذي أطمعُ أن لا يخجلني يوم ألقاه بنظري إلى طاعتي وأعمالي، ثم أفتقر إليه بكليتي. لَمّا عَلِمَ أنه لم يَنَلْ ما نال إلا به، ولا يَنال ما يَأْملُ إلا به فقال: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِى حُكۡمًا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٣]»(١).

وَعَلِمُوا أَنَّ لَهُمْ تَمْكِينا يَرْقَى بِهِمْ مَرْقَى المُكاشَفِينا

١٣. من علوم الصوفية، وهي مأخوذة من الشرع الشريف: علم الكشف، وأَهْلُه أَهْلُ تَمْكِينٍ ورُسوخٍ في العلم والعمل والحال.

كما أن الرؤيا والمنام قد يكشف لك أمراً خفياً أو أمراً سيكون، فكذلك الصالحون قد يُكشف لهم في اليقظة مثلُ ذلك، من طريق الإلهام أو الفراسة أو المشاهدة(٢).

والكَشْفُ من استعداد كل إنسان إذا انتفت الموانع، فمن كان مؤمناً ثم تجرد عن أهوائه واتبع سنة نبيه، وطهر قلبه وشفي من أمراض نفسه، وتخلص قلبه من خواطر السوء، وانشغل بالله قصداً ونية وقولاً وعملاً وظاهراً وباطناً؛ يرجى أن يكرمه الله بشيء من ذلك.

---

(١) اللمع في التصوف، ص٨١.

(٢) قال ﷺ : « إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح، فقيل: يا رسول الله، وهل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله » أخرجه الحاكم في المستدرك ٧٨٦٣ والبيهقي في شعب الإيمان ١٠٠٦٨، وحسنه بعض العلماء، والله تعالى بين أن المؤمن يدخل النور في قلبه، قال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢].

الرؤى الصالحة

الرؤى حق، وهي كما ورد في صحيح البخاري ومسلم جزء من ستة وأربعين جزءً من النبوة، وهي مما بقي من المبشرات؛ الرؤيا الصالحة يَراها المؤمن أو تُرى له، وبين النبي ﷺ أن هناك علاقة مضطردة بين صدق الإنسان وصدق رؤاه.

والرؤيا قد تقع كما هي، ويكثر ذلك في آخر الزمان، وقد يكون لها تأويل، وهو الغالب عادة، فلا بد من إحسان التأويل، فقليل من الناس من يُعطَى التأويل، هذا كله في الرؤى الربانية.

والرؤى منها ما يكون من الله، ومنها ما يكون من النفس تحديثاً بهموم الإنسان واهتماماته، ومنها ما يكون من الشيطان يزعجه بها ويخوفه.

والرؤيا أياً كانت؛ فهي ليست تشريعاً، حتى لو شعر أنه رأى الإنسان ربه عز وجل أو نبيه ﷺ ، وأمره بشيء أو أخبره عن شيء؛ فلا يعد ذلك تشريعاً ولا إخباراً قطعياً، بل له تأويله، ويستفاد منه إذا كان موافقاً لشرع الله(١).

الفِراسَة

الفراسة: وهي بصيرةٌ وعطاءٌ من الله يستشف به المؤمن أحوال الناس ويعرف عن دواخلهم، ويتوقع تصرفاتهم بناءً على ما يُطْلِعه الله مِن أحوالهم.

قال ﷺ: « **اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله،** ثم قرأ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥] »(٢).

فالحديث يقرر أن في قلب المؤمن نوراً، ينظر به، فيكون صاحب فراسة، فقد يدرك به ما لا يدركه غيره، وقال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب: التزكية على منهاج النبوة، تزكية القلب.

(٢) حديث صحيح بطرقه، رواه الترمذي رقم ٣١٢٧ عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ [محمد: ٣٠]، وقال ﷺ: « نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ »(١).

وهذه النصوص وغيرها تدل على أن الإنسان إذا عمل خيراً أو شراً فإنه يظهر على سيماه ومحياه، ففي وجوه الناس معالم لما في قلوبهم، وتتغير بتغير أحوالهم القلبية وأعمالهم الصالحة أو الفاسدة، فالمؤمن بما أعطي من نور يقرأ هذا الذي يظهر في وجوه الناس، وغيرُه ينظر ولا يقرأ ولا يفهم، كالطفل الذي ينظر إلى الحروف فيراها كما نراها، لكنه لا يستطيع قراءتها، وإن قرأها فلا يفهمها كما يفهمها الكبار المتعلمون.

الإلهام والهاتِف

الإلهامُ: خاطر حق يَقَعُ في نَفْسِ المؤمن، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة »، قالوا: وإياك يا رسول الله ؟ قال: « وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلمَ، فلا يأمرني إلا بخير »(٢).

وقد أخبر النبي ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ كان مُحَدَّثاً، فقال: « إنه قد كان فيما مضى قبلكم مِن الأمم مُحَدَّثُون، وإنه إنْ كان في أمتي هذه مِنهم فإنه عمرُ بن الخطاب »(٣).

وعنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: « مَا سَمِعْتُ عُمَرَ لِشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ: إِنِّي لأَظُنُّهُ كَذَا، إِلاَّ كَانَ كَمَا يَظُنُّ »(٤).

وقد روى مسلم عن النبي ﷺ أن رجلاً كان يمشي بفلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة: اسْقِ حديقة فلان، فتوجه السحاب إلى أرض فأفرغ ماءه فيها، فذهب الرجل إلى

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد. عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ، وتمة الحديث: « فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْه، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ ».
(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٨١٤، عن ابن مسعود ﷺ.
(٣) أخرجه البخاري رقم ٣٢٨٢، عن أبي هريرة ﷺ.
(٤) أخرجه البخاري رقم ٣٦٥٣ .

تلك الأرض فوجد صاحبها، فسأله عن اسمه، فأخبره، وذكر الاسم الذي ذُكِرَ للسحابة، فسأله ماذا بينه وبين الله فأخبره أنه يتصدق بثلث الناتج من الأرض[١].

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله بن عمرِو بن حَرام رضي الله عنهما أن أباه قال له ليلة غزوة أُحُد: ما أُرَاني إلا مقتولاً في أول مَنْ يُقتَل من أصحاب النبي ﷺ، ثم كان ذلك فكان أول قتيل[٢].

وقد يختلط الإلهام بوسوسة النفس ووسوسة الشيطان.

وفي التمييز بينها قواعد وضوابط معلومة عند العلماء الربانيين والمربين.

وهو ليس مصدراً للتشريع، بل هو تذكير للإنسان بالحق، فعلى المُلْهَم أن يرده إلى شرع الله، وأن يحذر معه من دخول الشيطان والهوى عليه.

الكشف

الكشف حق، وهو كرامة، وأهلُه قليلٌ جداً، وهو الرؤيا في اليقظة، وبعضه يقع كما رآه المكاشَف، وبعضه يحتاج إلى تأويل، كالرؤيا، وهو ليس مصدراً للتشريع، ولا يجوز مخالفة الشرع به.

وقد يختلط الكشف بالشَيْطنات، ولعلماء السلوك قواعد في تمييزه، لكن يبقى ظنياً، يستفيد منه العبد فيما وافق الشرع، وقد يأخذ حِذره أو يتنبه إلى أمر بسببه؛ من غير اعتماد عليه أو ثقة به، أو اعتباره يقيناً.

أما الأدلة على إمكانية الكشف فكثيرة، منها ما يدل على كشف البصر، ومنها كشف السمع، ومنها كشف الشم، ومنها إحساسات وأذواق، فمن أدلة ذلك:

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٩٨٤ عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٢٨٦.

٠١ بين النبي ﷺ أن المؤمن قد يرى من عوالم الغيب كالملائكة، فقال ﷺ : « لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم »(١).

٠٢ روى البخاري في الحديث القدسي: « فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه »(٢).

٠٣ حديث أسيد بن حضير في رؤية الظلة، حينما كان يقرأ القرآن، فأخبره النبي ﷺ بأنها الملائكة(٣)، فدل على جواز رؤية الملائكة بمثل هذه الصورة، وبين الحديث أنه لو استمر في القراءة لنزلت الملائكة يراها الناس، وهذا يُشعِر أن صاحب الكشف قد ينتفع مَن حولَه بسببه ومِن كشفه وحاله.

٠٤ قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تُكَلِّمَ السِّباعُ الإنسَ، وتكلم الرجلَ عَذَبَةُ سَوْطِه وشِراكُ نَعْلِه، ويُخبره فَخِذُه بما أحدث أهله بعده »(٤).

٠٥ عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبه الراعي فانتزعها منه فأقعى الذئب على ذنبه، قال: ألا تتقي الله ؟ ! تنزع مني رزقاً ساقه الله إلي ؟! فقال: يا

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٧٥٠، عن حنظلة الأُسَيِّدي ﷺ، وفي رواية: «لو تدومون على ما أنتم عليه عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي الطرقات».

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦١٣٧ عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) عن أُسَيْد بن حُضَيْر ﷺ قال: « بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوط عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكتت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره [أي جَرَّه مِن مكانه] رفع رأسه إلى السماء، حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ، فقال: اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تَطَأَ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مِثْلُ الظُّلَّة، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: وتدري ما ذاك؟ قال: لا، قال: تلك الملائكة، دَنَتْ لصوتك، ولو قرأتَ لأَصْبَحَتْ يَنظرُ الناس إليها، لا تتوارى منهم » أخرجه البخاري رقم ٤٧٣٠ ومسلم نحوه رقم ٧٩٦، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، ومن لفظه في مسلم: « فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا ».

(٤) حديث صحيح، أخرجه الترمذي ٢١٨١ وأحمد ١١٨٠٩ والحاكم ٨٤٤٢، عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

عجبي ! ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس ! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق ! قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ فنودي بالصلاة جامعة، ثم خرج، فقال للراعي: أخبرهم، فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: صدق والذي نفسي بيده[١].

٦. البقرة التي كَلَّمَتِ الرجل، فقالت: إنا لم نُخْلَقْ لهذا، أي للركوب، إنما خلقنا للحرث[٢].

٧. عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ : تدرون ما هذا؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قَعْرِها »، وفي رواية: « هذا وقع في أسفلها، فسمعتم وجبتها »[٣]، وهو صريح في أنهم سمعوا، وهو شيء من الغيب.

٨. إخبار النبي ﷺ عن الكشف عن بصيرة المجاهدين الذين يقاتلون اليهود، فيسمعون الحجر والشجر يتكلم معهم، فيقول: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي تَعالَ فاقتُلْه[٤].

٩. حديث أبي بكر ﷺ إذ أخبر عائشة رضي الله عنها قبل وفاته أن إحدى زوجاته حامل، وأنه يرى أنها حامل ببنت، فكان ما قال[٥].

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ١١٨٠٩ وابن حبان رقم ٦٤٩٤ .

(٢) أخرجه البخاري رقم ٣٢٨٤ ومسلم رقم ٢٣٨٨، عن أبي هريرة ﷺ ونصه في البخاري رقم ٣٤٦٣ عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينما راعٍ في غنمه عدا عليه الذئب، فأخذ منها شاة، فطلبه الراعي فالتفت إليه الذئب فقال: من لها يوم السبع، يوم ليس لها راع غيري، وبينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها، فالتفتت إليه فكلمته، فقالت: إني لم أخلق لهذا، ولكني خلقت للحرث، قال الناس: سبحان الله، قال النبي ﷺ: **فإني أومن بذلك وأبو بكر وعمر** بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٣) أخرج مسلم رقم ٢٨٤٤ الروايتين.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٢٩٢١.

(٥) حديث صحيح، عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ كَانَ نَحَلَهَا جَادَّ [أي جَداد وقِطاف] عِشْرِينَ وَسْقاً مِنْ مَالِهِ بِالْغَابَةِ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ: وَاللَّهِ يَا بُنَيَّةُ مَا مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ غِنًى بَعْدِى مِنْكِ، =

وفيه دليل على أن صاحب الكشف لا يجزم به، بل يتعامل معه على أنه أمر مظنون في حالة الإخبار بغيب أو مستقبل.

١٠. وقد يستدل لكشف الشَّمِّ والروائح، بقوله تعالى ذاكراً قول يعقوب: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٩٤]، فشم ريح يوسف عن بُعْد، قبل أن يصل القميص إليه، وقول يعقوب: ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ تنبيه لأصحاب الكشوف أن لا يتحدثوا بها، فإن الناس قد يكذبونهم.

١١. وقال أنس بن النَّضْر ﵁ يوم غزوة أُحُد لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذ: إِنِّي أَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ، فَمَضَى فَقُتِلَ[1].

هذه بعض أدلة الكشف الشرعية[2].

أما عقلاً فالكشف أمر جائز لا يُنْكَر، وهو شبيه الرؤية المنامية، فمن ينكره عليه أن ينكر الرؤية المنامية، والكشف أيضاً يدخل في الكرامة، فإثبات الكرامة وأدلتُها أدلةٌ للكشف في الجملة.

= وَلاَ أَعَزُّ عَلَيَّ فَقْراً بَعْدِي مِنْك، وَإِنِّي كُنْتُ نَحَلْتُك جَادَّ عِشْرِينَ وَسْقاً، فَلَوْ كُنْت جَدَدْتِيه وَاحْتَزْتِيه كَانَ لَك، وَإِنَّمَا هُوَ الْيَوْمَ مَالُ وَارِث، وَإِنَّمَا هُمَا أَخَوَاكِ وَأُخْتَاك، فَاقْتَسِمُوهُ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ، وَاللَّهِ لَوْ كَانَ كَذَا وَكَذَا لَتَرَكْتُهُ، إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ فَمَنِ الأُخْرَى؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: ذُو بَطْنِ بِنْتِ خَارِجَةَ، أُرَاهَا جَارِيَةً »، أخرجه مالك رقم ١٤٣٨، ونحوه البيهقي رقم ١١٧٢٨، وفي مصنف عبد الرزاق رقم ١٦٥٠٧ : « قد أُلْقِي في نفسي أنها جارية، فأحسنوا إليها ». وقد اعتبر السَّراج الطوسي أن إلهام أبي بكر ﵁ أقوى من إلهام غيره من الصحابة، مستدلاً على ذلك بأنه اتفق رأي الجميع من أصحاب رسول الله ﷺ على ترك مقاتلة أهل الردة على منع الزكاة، وثبت أبو بكر ﵁ على قتالهم، ثم رجع الجميع إلى رأيه، حيث رأوا الصواب معه، انظر: اللمع في التصوف، ص ١١٧.

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٨٢٢، عَنْ أَنَسٍ بن مالك ﵁، وأنسُ بنُ النَّضْر ﵁ عمُّه.

(٢) قد يستدل بعض الصوفية بثلاثة أحاديث في صحيح مسلم؛ أن النبي ﷺ صلى إماماً بالأنبياء في بيت المقدس يوم الإسراء، ورأى في رجوعه من الإسراء موسى عليه الصلاة والسلام واقفاً على قبره يصلي، ورأى في طريق عمرته موسى ويونس عليهما الصلاة والسلام، ووصف لباسهما وتلبيتهما، وقد يقال إن هذه الأمور خاصة بالنبي ﷺ، ويقول بعض العلماء: هي ليست مما يتعلق بالتبليغ والنبوة، فيمكن أن تكون لغير الأنبياء، ممن صفت قلوبهم فكشفت بصائرهم.

وإذا كان يخشى من اختلاط الكشف بتأثير الشياطين والأوهام؛ فذلك لا يقتضي رده بعد هذه الأدلة، وإنما يقتضي وضع الضوابط للتمييز والحذر، كما وُضِعَتْ ضوابط في التمييز بين صاحب الكرامة وبين الساحر.

ثُمَّ رَأَوْا أَنْ دُونَ ذاكَ مانِعْ ... كَدَفْتَرٍ نِيطَ عَلَيهِ طابِعْ[1]
فَالقَومُ حِينَ عَلِمُوا بِذاكا ... وَمَيَّزُوا القُطَّاعَ والأَشْراكا
سَلُّوا مِنَ العَزْمِ لهم قَواضِبْ ... فَأَبَتَّ كُلُّ قاطِعٍ وَحاجِبْ
فَاْحتَزَمُوا للطَّعْنِ وَالنِّزالِ ... وَابْتَدَرُوا مَيادِنَ القِتالِ
وَعَلِمُوا أَنْ لَيْسَ شَيءٌ قاطِعْ ... كَبَدَنٍ كاسٍ وَبَطْنٍ شابِعْ
وَنَظَرُوا الحِجابَ في البَواطِنْ ... فَوَجَدُوهُ في النُّفوسِ كامِنْ
فَعَمِلُوا على جِهادِ النَّفْسِ ... حَتّى أَزالُوا ما بِها مِنْ لَبْسِ

١٤. فلما علم الصوفية تلك العلوم وعرفوا هذه المسائل التي لا تكون إلا للأولياء والعارفين؛ دفعهم ذلك إلى السعي للتحقق بها، فوجدوا أن دون ذلك قواطعَ وموانع، فسَعَوا في علاج ذلك، **بهمة عالية** تلتزم طاعة الله والاستقامة على أمره، **وبمجاهدة النفس** والحزم معها.

ومن العوائق التي يعملون على إزالتها:

أ. القُطّاع، وهم الناس الذين يصرفونهم عن طريق الله والتقرب إليه، ويدعونهم إلى أبواب جهنم، وأشد القواطع: الكفر بالله، ومن يدعوك إليه.

ب. والأَشْراك، جمع شَرَك، وهي الحبائل التي تصطادهم إلى الباطل والمعصية، ومنها: ١. الشرك الخفي، ٢. والطمع، ٣. والصحبة الفاسدة ٤. والإعلام الفاسد وتأثيرهما، ٥. ومنها الشيطان ووساوسه وحِيَلُه وحَبائِلُه، وهي:

(١) أي: لُفَّ عليه ختم، ليمنع تمزيقه ورفعه.

١. الاستدراج إلى الباطل والشهوات ٢. الإنساء ٣. نهيك عن الخير، فإن لم تنته ٤. فالتسويف ٥. والعَجَلَة الْمُخِلَّة في أداء الخير ٦. الرياء في العمل ٧. إدخال العجب ٨. النظر إلى منافع الطاعة الدنيوية ٩. ادعاء الاستغناء عن العمل ١٠. إثارة الشبهات وما يُلَبِّس على الإنسان ...

والشيطان من أعظم القواطع التي حذرنا الله منها، ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦]، « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »(١).

ولما كان الشيطان يستفيد من قوة الدم؛ فعلى المسلم أن لا يكثر من الطعام فوق حاجته، حتى لا يكون تقوية للشيطان « بِحَسْبِ ابنِ آدمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَه »(٢)، وما لم نلجأ إلى الله ليعيذنا من الشيطان فإن الشيطان يشاركنا في ما بين أيدينا، ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الإسراء: ٦٤]، وإن استعذنا بالله منه لم يشاركنا في مبيت ولا طعام فيقول: « لا مبيت لنا، لا طعام لنا »(٣).

ج. والتعلق بشهوة اللباس والزينة، وشهوة الطعام والشراب، وسائر التعلقات النفسانية، مما تتعلق به النفس وهي تستطيع أن تستغني عنه، أو مما لا تستغني عنه لكنها تجعله فوق الآخرة ورضوان الله.

فلا ينبغي لامرأة ولا فتاةٍ أن تُؤثِر زينةَ اللباس على حجابها وأمر ربها، حين تخرج من بيتها، وشهوتها إلى التزين تثير الشهوة والفتنة في المجتمع، ولا تخرج المسلمة من بيتها متزينة بكُحْلَةٍ أو تحمير، ولا تَقْبَلُ المسلمةُ على نفسِها أن تُطِيلَ أظافرَها، فذلك مُقْرِفٌ ومُخالف للشريعة والذَّوق السليم، ولا ينبغي لشاب أن يتعلق بالزينة فيتزيّن بالذهب والفضة كما تتزين

(١) أخرجه البخاري رقم ٣١٠٧ ومسلم رقم ٢١٧٥.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٣٨٠ عن مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ ﷺ، وسيأتي الحديث بتمامه.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان لأصحابه: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء. أخرجه مسلم ٢٠١٨ وأبو داود ٣٧٦٥ وابن حبان ٨١٩، عن جابر ﷺ.

النساء، من أساور أو أقراط أو عِقْد، ولا ينبغي لمسلم أن يتعلق بالغناء والمعازف أو بالدخان والأرجيلة، ولا ينبغي أن يكون في قلب مسلم شهوةٌ إلى الحديث مع الجنس الآخر، بل يحتاط المسلم من نفسه، فلا يتعامل معها بحسن الظن فَتَجُرُّه إلى المعصية.

د. الإسراف في المباحات، والتوسع فيها، فعامة الناس ينشغلون عن الله بما يأخذون من المباحات فوق ما أذن الله به، فبحجة أنها مباحة يتوسعون فيها وينشغلون بها، فتحل محل الطاعة والنوافل، وتؤدى إلى تعاظم القواطع.

فالصوفية يعملون على:

١. تقليل **الطعام** والشراب.

٢. تقليل **النوم**، فلا ينامون هروباً من الحياة والعمل، بل ينامون عندما يغلبهم النوم، ولا ينامون في الأوقات المباركة، كأوقات الصلوات الخمس في الجماعة، وما قبل طلوع الشمس وغروبها، وآخر الليل، فينظمون نومهم بما يتناسب مع أعمال الآخرة.

٣. تقليل **الكلام**، فلا يتكلمون إلا بخير وذكر، ولا يعصون الله بكلام، ويتركون اللغو.

٤. تقليل **الخلطة** بالناس، فلا يختلطون بأحد يكون مُضَيِّعاً لأوقاتهم، أو سبباً في فتنتهم عن دينهم.

٥. ويتركون **فضول** النظر والكلام والاستماع والقراءة واللباس والمجالس، كما يتركون **اللهو**.

وقد حرص الصوفية على جهاد أنفسهم في هذه المباحات، بحيث لا يستكثرون منها فوق ما أذن الله، ولا يجعلونها على حساب مصالح الآخرة.

هـ. والحجاب الباطن، وهو انحراف النفس عن التوجه إلى الله والصدق معه[1]، وقد أخبرنا الله تعالى أن في القلوب حُجُباً تَنْتُجُ عن أعمال السوء، ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤].

(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ﴾ [ق: ١٦]، ووساوس النفس الأمارة بالسوء تَحُولُ بين العبدِ وبين صفاء قلبه، وقد ورد ذلك المعنى الصحيح في حديث ضعيف الإسناد، حسنه بعض العلماء، عن =

وهناك حجب كامنة في الباطن، فهي توجد في الطبيعة الإنسانية، وتحتاج إلى تهذيب وسياسة حتى يصلحها ويزيل شرها.

كالكسل وحبّ الراحة والدَّعَةِ، والحسد والحقد والبغض، والطمع والحرص والشَّرَه، والبخل، والغضب، والشهوة ومتابعة الهوى، وحب المال والدنيا، وخوف الفقر، وَهَمّ الرزق، والقلق، والرياء، والغُرور والتكبر والعُجْب، وحب الاعتماد على الغير والترفع عليهم، والأنفة والرعونة، والتَّسَخُّط والاعتراض، وعدم الرضا والتسليم والصبر، والتسرع والعجلة، وحب الرياسة، وغير ذلك.

فإذا تخلصوا من هذه القواطع والعلائق والموانع والعوائق؛ تحققوا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦].

- ويرى الصوفية أن **أخطر القواطع** أربعة:

١. **الشيطان**، وهو **يعارض نصوص الشرع**، وأقوى علاج له **ترك كثرة الطعام**.

٢. **النفس**، وهي **تعارض النية والوِجهة التي حددها الشرع**، وأقوى علاج لها **ترك كثرة النوم**.

٣. **الهوى**، وهو **يُفسِد فهم نصوص الشرع**، ومُرادها، وأقوى علاج له **ترك كثرة الكلام**.

٤. **الدنيا**، وهي **تشغل عن العمل بالشرع**، وأقوى علاج له **ترك الزائد من الخلطة بالناس**.

- ومجاهدة النفس توصل إلى الهداية واليقين، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ومن بلغ اليقين زال من نفسه كل لَبْس وشك، فيصير الإيمان والعمل الصالح محبباً إليه، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧]، ومن أيقن بالله والآخرة دفعه يقينه إلى كل عمل صالح.

= أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « لولا تَمَرُّغُ قلوبكم وتَزَيُّدُكم في الحديث لَسَمِعْتم ما أسمع » أخرجه أحمد ٢٢٣٤٦ والطبري في صريح السنة رقم ٤٠، ولفظ الطبري: تمريج في قلوبكم. والمعنى: تقلب الخواطر فيما لا ينبغي.

ومن بلغ اليقين والطمأنينة لم يحتج إلى المجاهدة، لأن نفسه اهتدت ولم تعد تقاوم الحق، فصار لها من الله مدد هداية وتوفيق وعناية وعون، ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال ﷺ: « ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يُصبره الله »(١).

١٥. ثم بين الناظم رحمه الله أن **طرائق السلوك** إلى الله في الجملة عند الصوفية؛ **على طريقين ومسلكين، فمن الناس** من يَصدُق مع الله ويُصلح قلبه؛ فيدله الله على العلوم النافعة، ويهديه إلى الأعمال الصالحة، فيزداد خيراً وهداية، **ومنهم** من يبدأ بطلب العلم، ويجتهد في العمل الصالح، ويجاهد نفسه في ترك الباطل والعصيان؛ فَيَمُنُّ الله عليه بصلاح القلب، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

وعلماء الصوفية والمحققون يوصون بالطريقة الثانية، فقد قالوا: كن فقيهاً صوفياً، لا صوفياً فقيهاً.

وسلوك الطريق الثاني يكون باختيار الإنسان ورغبته.

أما الطريق الأول فيحكمه الواقع عادةً، فبعض الناس لم يطلب العلم، ولم يتوسع فيه، ولم يجتهد في العمل كثيراً، لكن في قلبه صفاءٌ ونَقاءٌ وصِدْقٌ وصحةُ اعتقاد ونيةٌ صالحة وسريرةٌ خالية من إرادة الشر والأذى، فيكرمه الله ويهديه إلى مزيد من طريق العلم والعمل، ولذلك لا يمكن إلغاء الطريق الأول، فهو في الواقع موجود وأهله كثير.

وَالقومُ في ذا كَا(٢) عَلى فِرْقَيْنِ ... وَحكْمُهُمْ فِيهِ على ضَرْبَيْنِ
فَفِرْقَةٌ طَرِيقُهُمْ مَبْنِيَّةْ ... على العَقَائِدِ وَحُسْنِ النِّيَّةْ
قالوا: بِأَنَّ النَّفْسَ كالمِرآةِ ... يَنْطَبِعُ الماضِي بها وَالآتِ

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٤٠٠ ومسلم رقم ١٠٥٣، عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) في تحقيق ما سبق مما به تحصل فضيلة التصوف.

وَإِنَّما يَعُوقُها أَشْياءُ ... تَرْكُ المُحاذاةِ أَوِ الصَّدَاءُ
قالوا: وَإِنَّ العَيْنَ قَدْ تَغُورُ ... وَإِنَّما يُخْرِجُها الحَفِّيرُ
وَأَجْمَعُوا أَنَّ عِلاجَ الأَصْلِ ... أَقْرَبُ لِلْبُرْءِ مَعاً وَالنَّيْلِ
فَمَا إِلَيْهِ أَبَداً نُشِيرُ ... هُوَ عِلاجُ النَّفْسِ وَالتَّطْهِيرُ
وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الإِشْرَاقِ[١] ... كانتْ وَتَبْقَى ما الوُجُودُ باقِي

فالطريق الأولى: أصحابها يؤمنون بالله ويعظمونه ويريدون الخير، فلما خلت نفوسهم من الفساد والخُبْث كانت كالمرآة المصقولة النظيفة، تعكس الأمر على حقيقته، فترى هذه النفسُ الخيرَ وتشعر به، وتُمَيِّزُ بين الحق والباطل، ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩][٢]، « ولا يزال الرجل يَصْدُق، ويتحرى الصدق؛ حتى يُكْتَبَ عند الله صِدِّيقاً »[٣]، فسلوكه في صدقه؛ لا يزال يزيده من الخير، كالذي يحفر ويحفر حتى يجد نبع الماء، فإذا وجده سقاه وأغناه، وقد أخبر النبي ﷺ أن صلاح الإنسان وصلاح أعماله متوقفة على صلاح القلب: « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت؛ صلح سائر الجسد »[٤].

قال الشيخ أحمد زروق: « **فأصل كل داء قلبي إنما هو فساد القصد،** الذي عنوانه الرضا عن النفس، حتى يصير فعلها وانفعالها على غير المجرى الشرعي والتحقيقي، بل على وفق الهوى والأوهام الباطلة التي منشؤها ضعف اليقين ورِقَّة الديانة »[٥].

---

(١) أي إشراق شمس نور المعرفة والقرب من الله.

(٢) وأصحاب هذه الرتبة، الذين طهرت قلوبهم، هم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: « استفت قلبك واستفت نفسك... وإن أفتاك الناس وأفتوك » حديث حسن، أخرجه أبو يعلى رقم ١٥٨٦ عن وابصة بن معبد الأسدي ﷺ، ونحوه أحمد ٢٢٨/٤ والبخاري في التاريخ الكبير رقم ٤٣٢، أما من كان قلبه منحرفاً فإنه إن استفتى قلبه أفتاه بالهوى والشهوة والمعصية.

(٣) أخرجه مسلم بهذا اللفظ رقم ٢٦٠٧، والبخاري نحوه ٥٧٤٣، عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٥٢ ومسلم رقم ١٥٩٩، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٥) اللوائح الفاسية، ص ١١٤.

وأصحاب هذه الطريقة يحمون أنفسهم من كل عائق قلبي، فيحافظون على طهارة أنفسهم من الشرك الخفي والتوجه لغير الله في حياتهم وأعمالهم، فتبقى وجهة قلوبهم سليمة كما تُبقِي المِرآةَ موجهةً إلى الموضع الذي تريد رؤيته، ويحافظون على نظافة مرآة قلوبهم من الصدأ والأوساخ والغبار، فلا تتلوث بصور الأكوان، ولا تتغطى بشهوة أو اعتماد على سوى الله(١).

قال ﷺ : «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها، حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] »(٢).

والمحاذاة وهو الانحراف، والصدأ وهو التلف والوسخ على المرآة، ينشآن عن الرضا عن النفس والغفلة، وتركهما بدوام الإنابة إلى الله والتقوى والأدب معه.

ومن حرص على صفاء نفسه من صغره، استراح طول عمره، بإذن الله، « شاب نشأ في طاعة الله »(٣)، فيكون سلوكه سهلاً ويسيراً، ولا يحتاج إلى مجاهدات كبيرة.

ومن لوث نفسه بالمعاصي والانحراف فإنه يتعب نفسه ويحتاج إلى مجاهدات طويلة وكبيرة، ويكبو كثيراً، فهو كالذي يُنَجِّسُ نفسه ثم يُنظف، ثم ينجس ثم ينظف، وهكذا لا يزال يتعب نفسه، فأنْ لا تقعَ في المعصية الظاهرة والقلبية أصلاً، أَيْسَرُ عليك بكثير وأنفعُ

---

(١) وقد استأنس بعض العلماء لهذه الطريقة بما يروى على أنه حديث، ولا يصح؛ « لم يَفُتْكُمْ [ما سبقكم] أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في صدره [قلبه] »، وهذا القول لا أصل له في السنة، لكن استحسن العلماء معناه، ووجدوا له شواهد كثيرة في الشريعة أن كثرة العمل الظاهر ليست هي الميزان، بل صدق الحال القلبي وكثرة العلم وحسن الاتباع، تغلب العمل، وتسبق كثيرَ العملِ، مع الاتفاق على عدم جواز إهمال العمل، لا سيما الواجب.

(٢) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٣٣٣٤ وقال: حسن صحيح، وابن ماجه رقم ٤٢٤٤، وابن حبان رقم ٩٣٠، والحاكم في المستدرك رقم ٦ وصححه، عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » أخرجه البخاري رقم ٦٢٩ و ١٣٥٧، ومسلم رقم ١٠٣١ بلفظ: « عبادة الله » بدل « عبادة ربه »، و« دَعَتْه » بدل « طلبته ».

لك من أن تقعَ ثم تحاول التطهير، فقد بين النبي ﷺ أن من يخرج عن طريق الإسلام المستقيم، ويدخل طريقاً منحرفاً، يناديه واعظ الله في قلبه: «لا تدخلْه، إنك إنْ تدخُلْه تَلِجْه»(١).

وأصحاب هذه الطريقة أشرقت الأنوار في قلوبهم، وقد وصف النبي ﷺ قلب المؤمن بأنه قلب مُنَوَّر، فينبغي أن يكون لكل مؤمن حظه من هذه الطريقة، فيشرق النور في قلبه، فقد وصف النبي ﷺ قلب المؤمن بأن فيه مثل السراج يزهر،

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**القلوب أربعةٌ**، قلبٌ أجْرَدُ(٢) فيه مثل السراج يزهرُ، وقلبٌ أغلفُ(٣) مربوطٌ على غلافه، وقلبٌ منكوسٌ(٤)، وقلبٌ مُصَفَّحٌ(٥)، فأما **القلب الأجرد** فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب **الأغلفُ** فقلب الكافر، وأما القلب **المنكوس** فقلب المنافق، عرفَ ثم أنكرَ، وأما القلب **المصفح** فقلب فيه إيمان ونفاق، فمَثَل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحةِ يمدها القيح والدمُ، فأي المدتين غلبتْ على الأخرى غلبتْ عليه»(٦).

---

(١) روى النَّوّاس بن سَمْعان الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سُوْران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب سُتورٌ مُرْخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً، ولا تَعْوَجُّوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه [أي تدخله]، والصراط الإسلام، والسُّوْران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله عز وجل، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم» حديث صحيح، روي عن النواس بن سمعان وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، أخرجه أحمد ١٨٢/٤ وأخرجه الحاكم رقم ٢٤٥ وروى نحوه النسائي رقم ١١٢٣٣ والترمذي رقم ٢٨٥٩.

(٢) أجرد: أي لم تعلق فيه شوائب، فليس فيه فساد ولا حقد ولا غش، باق على أصل الفطرة، وليس فيه تعلقات بغير الله، فقد أفرد الوجهة إلى الله.

(٣) أغلف: أي الذي عليه غلاف وغطاء.

(٤) منكوس: مقلوب، فهو كالإناء المقلوب لا يبقى فيه شيء ولا خير.

(٥) مصفح: ذو صفيحتين أي وجهين، فله وجه إلى الإيمان، ووجه إلى المعصية أو النفاق أو الكفر.

(٦) أخرجه أحمد رقم ١١١٤٥، ونحوه عند ابن أبي شيبة رقم ٣٧٣٩٥، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦٣/١: « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح »، وقال ابن كثير عن إسناد أحمد: « إسناد جيد حسن »، والحديث قد صح موقوفاً عن حذيفة رضي الله عنه، ومثله ليس مما يقال بالرأي فهو في حكم المرفوع، ولا سيما وقد روي بإسناد مرفوع لا بأس به.

وَفِرْقَةٌ قالتْ بأنَّ العِلْما ... مِنْ خارجٍ بِالاكْتِسابِ أَسْمَى
وَشَرَطُوا العُلُومَ في اصْطِلاحِهِ ... إِذْ لا غِنَى لِلْبابِ عَنْ مِفْتاحِهِ
فَلَيْسَ لِلطّامِعِ فِيهِ مَطْمَعْ ... ما لَمْ تَكُنْ فيه عُلُومٌ أَرْبَعْ
وَهْيَ عُلومُ: الذّاتِ والصِّفاتِ ... وَالفِقْهِ والحديثِ والحالاتِ
وَهذِهِ طَرِيقَةُ البُرْهانِ[1] ... وَهْيَ لِكُلِّ حازِمٍ يَقْظانِ

والطريق الثاني: الطريق الذي يبدأ بطلب العلم، وقد جعل أصحاب هذا الطريق طلب العلم جزءً لا ينفك عن التصوف، ولا دخول إلى التصوف إلا به، ويأخذ السالك من العلوم ما لا بد منه.

١. كالعلم بوجود الله وصفاته ومسائل الاعتقاد التي لا يجوز الجهل بها.

٢. والتفقه على متن في الفقه على مذهب من المذاهب الأربعة المعتبرة عند أهل السنة.

٣. وتَعَلُّمِ شيء من التفسير والحديث ـ بفهم الراسخين في العلم ـ مما يُرَهِّبُه من المعاصي، ويُرغبه ويَحْمِلُه على العمل.

٤. تعلم علم التزكية بالحد الأدنى الذي يُصلح به نفسه، ويعرف به ما يواجهه من أحوال وأمور مختصة بالتصوف والسلوك.

وَنَسَبُوا الصُّوفِيَّ لِلْكَمالِ ... وَضَرَبُوا مَعْناهُ في المِثالِ
فَهْوَ كالهَواءِ في العُلُوِّ ... ثُمَّ كَمِثْلِ الأرضِ في الدُّنُوِّ
ثُمَّ كَمِثْلِ النّارِ في الضِّياءِ ... ثُمَّ كَمِثْلِ الماءِ في الإِرْواءِ
فَهْوَ إِذَنْ لِلْكائِناتِ حاصِرْ ... إِذْ صارَ في مَعْناهُ كالعَناصِرْ

(١) سماها طريقة البرهان، لأنها قائمة على برهان وعلم، فلا يُعترض عليها.

١٦. من فضيلة الصوفي أن **يسعى للكمال**، وهو كمال العبودية، وكمال كل واحد أن يصل إلى أفضل ما يستطيع، وقد أخبرنا النبي ﷺ أن من الناس من بلغ الكمال: «كَمُلَ من الرِّجال كثيرٌ»[(١)]، فباب الكمال مفتوح لمن يطلبه.

١٧. من فضيلة الصوفي أنه يتحقق **بأوصاف راقية عالية متوازنة**:

فهو **كالهواء** في العلو، فهو مرتفع في همته، نشيط في عمله وعبادته، لا يقبل السَّفاسِفَ والْمُحَقَّرات.

وهو **كالأرض** في دنوها، فهو متواضع لغيره، لا يؤذي أحداً، ويتحمل الأذى ما استطاع، ويَحْمِلُ غيره، ويعين الآخرين.

وهو **كالنار** في الضياء، فقد اهتدى، فترى نوره في وجهه، وهو نار يحرق هوى نفسه.

وهو **كالماء** في الإرواء، فهو يهدي غيره، ويدلهم على الحق، يستفيد من يجالسه، قال ﷺ: « الناس كإبل مئة، لا تكاد تجد فيها راحلة »[(٢)]، وقال ﷺ: « هم القوم لا يشقى بهم جليسهم »[(٣)].

وكما أن هذه العناصر الأربعة: الهواء والتراب والنار والماء[(٤)]، منها تتكون جميع عناصر الأرض، وباجتماعها يحصل التوازن في الكائنات، فكذلك يكون الصوفي متوازناً، له من كل خير نصيب.

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٢٣٠ ومسلم رقم ٢٤٣١، عن أبي موسى الأشعري ﷺ.
(٢) أخرجه البخاري رقم ٦١٣٣ ومسلم نحوه رقم ٢٥٤٧، عن عبد اللهِ بْن عُمَرَ رضى الله عنهما.
(٣) وروي بلفظ: «هُمُ الْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ» أخرجه البخاري رقم ٦٠٤٥ ومسلم ٢٦٨٩ عن أبي هريرة ﷺ.
(٤) قديماً: لم تكن تُعرَف العناصرُ الكيميائية الكثيرة، التي تتركب منها المواد والموجودات، والتي اكتشفت في عصرنا، فكانوا يعدون عناصر الأرض والتي منها يتكون الإنسان وغيره؛ أربعةً: الهواء، وهو حار رطب، والتراب، وهو بارد يابس، والنار، وهو حار يابس، والماء، وهو بارد رطب، وكان بعض علم الطب مبنياً على هذه المعرفة، فضرب به الناظم مثالاً لطب القلوب وتوازن الباطن، كما يتوازن الظاهر باجتماع العناصر وعدم اختلال شيء منها، فالاختلال ـ بحسب معارف زمانهم ـ هو الذي يؤدى إلى الأمراض.

وَفَضْلُهُ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُجْلَى وَقَدْ ذَكَرْنا منهُ نَزْراً جُمَّلا
وَفِي بَيانِ أَصْلِهِ دَلِيلُ يُعْلَمُ مِنهُ الشَّأْنُ والتَّفْصِيلُ

والتصوف فضله كبير، إذ هو أرقى المراتب التي يمكن للإنسان أن يحصلها في الدنيا، قال الشيخ أحمد زروق: « اجتمعت القلوب على حب التصوف، لأنه نظيف، والنظيف يتدنس بأدنى شيء، فكل ما نسب له مما ليس منه عُدَّ عليه، عند من لا معرفة له به فأنكره »[1].

١٨. وما مر في الفصل الأول من بيان أصل التصوف، فهو أيضاً يُظهِرُ مزيداً من فضائل التصوف، إذ هو راجع إلى الكتاب والسنة وحال الصحابة رضي الله عنهم.

(١) اللوائح الفاسية، ص ١٢١. ثم ذكر الشيخ زروق أن من العلماء من حذر من التصوف، سداً للذريعة، بسبب ما دخل عليه، وأن من العامة من اغتر بما ليس منه، فوقع في البدعة، وهو يظن نفسه أنه يتبع التصوف الشريف.

الفصل الثالث
في أحكام التصوف

وأحكام التصوف جزء من الشريعة الإسلامية، لكن يغلب فيها أن تختص بما يتعلق بالصديقين والربانيين والمحسنين وطريق الإحسان، لذلك جرى التنبيه إليها، وبيان مسائلها وما يتعلق بها، وإلا فالشريعة كلُّها مطلوبة في التصوف، **وأحكامُ الدِّين كلُّها لا بد منها للصوفي السائر والواصل**، وسيأتي التوجيهُ والتنبيهُ إلى وجوب طلب السالك لعلوم الشريعة؛ العقيدةِ والفقهِ والتزكية، كما سبق الإشارة إليه أيضاً.

والأحكام التي يذكرها في هذا الفصل لا تستوعب جوانب التزكية والتصوف، وإنما تعطي صورة مهمة، وأساساً في التعريف بالتصوف وأهم أعماله، واهتماماته وخصوصياته.

وهذه مباحث هذا الفصل:

المبحث الأول: ضرورة الشيخ وحكم اتخاذ شيخ

المبحث الثاني: حكم الاجتماع مع الشيخ والمريدين وآداب ذلك

المبحث الثالث: حكم اللباس وآدابه

المبحث الرابع: حكم الأكل وآدابه

المبحث الخامس: الأدب عند الصوفية

المبحث السادس: حُكْم السَّماع وآدابُه

المبحث السابع: حكم السفر والقدوم على المشايخ والإخوان وحكمته وآدابه

المبحث الثامن: حكم سؤال المال وأسبابه وآدابه

المبحث التاسع: تربية الشيخ للمريد وتدريجه في مراحل السلوك إلى أن يصير شيخاً

المبحث الأول

ضرورة الشيخ وحكم اتخاذ شيخ

يَعُدُّ الصوفيةُ صحبةَ شيخٍ مُؤَهَّلٍ للتربية أمراً ضرورياً للسير إلى الله، فهو ركن من أركان التصوف، وليس شرط كمال فحسب.

ويستدلون لذلك بأدلة عقلية وشرعية وعادية واقعية، وقد لخص الناظم الدليل بقوله:

وَإِنَّمَا القومُ مسافرونَا لِحَضْرَةِ الحقِّ وَظاعِنُونَا(١)
فَافْتَقَرُوا فيهِ إلى دَليلِ ذي بَصَرٍ بِالسَّيْرِ وَالمَقِيلِ(٢)
قَدْ سَلَكَ الطَّريقَ ثُمَّ عادَا لِيُخْبِرَ القومَ بما اسْتَفادَا

شَبَّه الناظمُ رحمه الله السيرَ إلى الله بالسفر، وكما أن المسافر يحتاج إلى دليل على الطريق، فالسائر إلى الله يحتاج إلى دليل، والحاجة إلى الدليل على طريق الله أكبر، لأن الله غيب، وطريق السفر أمر ظاهر.

ومن كان يريد أن يتعلم صنعة كالنِّجارة والحِدادة والهندسة والفقه؛ فإنه يحتاج إلى معلم يختصر له علوم السابقين وتجاربهم، وهكذا سنة الله في العلوم والأعمال والصنائع، فكذلك السير إلى الله يحتاج إلى معلم وخبير، قد عرف الطريق وجربه، فعرف أخصر الطرق وأسهلها، وعرف مواقع الخطر والمهالك.

وكما أن الطبيب لا يصير خبيراً حتى يجمع بين العلم والتجربة، فكذلك الشيخ يحتاج إلى علم، ثم يجمع إليه التجربة.

---

(١) (ظاعن): مرتحل.

(٢) (فافتقروا): إشارة إلى ضرورة الشيخ ووجوبه في السير، وعادة لا يبلغ السائر وحده من غير شيخ مبلغاً راقياً. (المقيل): موضع الراحة والنوم.

الأدلة الشرعية

على الحاجة إلى الشيوخ المربين والصالحين وصحبتهم

١. أمرنا الله تعالى بصحبة الصالحين والصادقين، وحثنا على صحبة الأتقياء المحتكمين إلى حكم الله، يعرفوننا على الله ونتعلم منهم ديننا ويرشدوننا إلى الحق والتزكية، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، فأمرنا بأن نكون مع الصادقين، وإنما نكون معهم بمجالستهم والأخذ عنهم والتعاون معهم على الخير والحق.

٢. وقال سبحانه: ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ [لقمان: ١٥]، فأمرنا أن نجعل كل من رجع إلى الله وإلى أحكامه محلاً نتبعه ونقتدي به ونأخذ عنه ونقلده فيما اتبع فيه الحق وفيما أناب فيه إلى الله وإلى أحكامه.

وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧].

وقال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، فأنت تبحث عن المهتدين المتبعين، فتجعلهم قدوة لك.

٣. وقال عز وجل: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فأمرنا أن نتعرف على الله من خلال سؤال الخبراء العارفين بالله وبصفاته.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤].

٤. وقال سبحانه: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧]، فبين في هذه الآية أن أَقْدَرَ الناس على الهداية مَن كان مِن أهل الولاية والصلاح والعلم والإرشاد، فالضال لا يستطيع أن يهديه أقدرُ الناسِ على الهداية، أما من يريد الهداية فسيجد في هؤلاء الأولياء المرشدين سبباً ووسيلة للوصول إلى الهداية، بعد إرادة الله وتوفيقه وهدايته، وقال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٥. وقد أخذ الصحابة العلم عن النبي ﷺ وصحبوه، وأخذ التابعون عن الصحابة، فمِن السُّنَّةِ الشرعية أن يأخذ الإنسان العلم والتربية عن أهلها جيلاً عن جيل، كما قال مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]؛ قال: نقتدي بمَن قبلَنا ويقتدي بنا مَن بعدَنا.

٦. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٥١]، وقد وصل الله القول الذي يذكرنا عبر الأنبياء، ثم من بعدهم العلماء الصالحون الذين ورثوا من علومهم وأحوالهم وأعمالهم.

٧. ولا تتم الاستفادة من العلماء الأولياء المرشدين الربانيين إلا بصحبتهم ومرافقتهم، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام للخضر: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦]. وإذا كانت علوم الدنيا وأعمالها تحتاج إلى معلم، فكيف بمن يطلب طب النفوس، ويطلب معرفة الله العظيم، أفلا يحتاج إلى معلم ومربٍّ.

٨. وقد أُمِر النبي ﷺ بأن يصبر على صحبة أصحابه الصادقين: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٨]، والصالحون والعلماء الوارثون النائبون عن رسول الله ﷺ ينبغي أن يصبروا كذلك على تلامذتهم في تعليمهم وتربيتهم.

٩. وقد أُمِر المؤمنون الصادقون بصحبة أهل الإيمان، قال ﷺ : « لا تصاحبْ إلا مؤمناً، ولا يأكلْ طعامَك إلا تَقِيٌّ »(١)، كما أمروا بأن يبتعدوا عن صحبة الأشرار والغافلين الذين أرادوا الدنيا بدل الآخرة: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠].

١٠. والإنسان يتأثر بصحبته الذين يخالطهم، فإذا كانوا على خير تأثر بذلك وتوجه إلى الخير، وإذا كانوا على شر تأثر بذلك وتوجه نحو الشر، وكلما كانت خلطته بهم وتداخله

(١) حديث حسن، رواه أبو سعيد الخدري ﷺ، أخرجه الترمذي ٢٣٩٥ وأبو داود ٤٨٣٢ وابن حبان ٥٦٠.

معهم أكبر كان تأثره بهم أكبر، كما قال ﷺ : « مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة »(١).

١١. وقال ﷺ : « الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل »(٢).

١٢. والإنسان ينتفع من الصالحين بمجالستهم، قال ﷺ : « هم القوم لا يشقى بهم جليسهم »(٣).

وإنما يمكن أن يرتقي الإنسان إلى درجات الصالحين إذا صحبهم مع الحب لهم في قلبه، قال ﷺ : « أنت مع من أحببت »(٤).

ثم بين الناظم تجربة السالك التي يمر بها حتى يصير أهلاً للمشيخة، فكَنَّى كناية بمواضع السفر واختلافها، عن مواضع السير والسفر إلى الله:

وَجَابَ مِنها الوَهْدَ وَالآكاما ... وَراضَ مِنها الرَّمْلَ وَالرَّغاما(٥)
وَجَالَ فيها رائِحاً وَغادِيا ... وَسارَ كُلَّ فَدْفَدٍ وَوَادِيا(٦)
وَعَلِمَ المَخُوفَ وَالمأْمُونا ... وَعَرَفَ الأَنْهارَ وَالعُيُونا(٧)

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٢١٤ ومسلم رقم ٢٦٢٨ عن أبي موسى الأشعري ﷺ، وفي روايات: «والجليس السوء».
(٢) حديث صحيح، رواه أبو هريرة ﷺ، أخرجه أبو داود رقم ٤٨٣٣ والترمذي رقم ٢٣٧٨ وقال: حسن غريب، ورواه أحمد رقم ٨٣٩٨ بلفظ: المرء ...
(٣) أخرجه البخاري رقم ٦٠٤٥ ومسلم رقم ٢٦٨٩ عن أبي هريرة ﷺ ولفظ البخاري: « هم الجلساء ».
(٤) أخرجه البخاري رقم ٣٤٨٥ ومسلم رقم ٢٦٣٩ عن أنس بن مالك ﷺ.
(٥) جاب: أي دخل وطاف، الوهد: المنخفض، الآكام: المرتفع، راض: جرَّب، الرَّغام: التراب.
(٦) جال: تردد مراراً، فدفد: وعر مرتفع.
(٧) المخوف: المكان الذي لا يمشي فيه المسافر لخطره، العيون: مواضع نبع الماء من الأرض. وفي نسخة للمنظومة: وَالجَدْبَ والأَنْهارَ وَالعُيُونا، والجدب: الأرض التي لا نبات فيها.

قَدْ قَطَعَ البَيْداءَ وَالمَفاوَزْ   وَارْتادَ كُلَّ حابِسٍ وَحاجِزْ(١)
وَحَلَّ في مَنازِلِ المَناهِلْ   وَكُلُّ شِرْبٍ فَهْوَ فيه ناهِلْ(٢)
فَعِندما قامَ بهذا الخَطْبِ   قالوا جَميعاً: أنتَ شَيْخُ الرَّكْبِ(٣)

فقد مر السالك في هذه المعالم وعرف خريطة السير إلى الله، حتى تأهل للمشيخة، فدخل طريق السير فعَرَفَ مواضع الضعف والقوة، ومواضع الشدة واللين، والمواضع التي يحتاج إلى البطء في المسير، والمواضع التي يمكنه السير فيها بسرعة، وجرب ذلك مراراً، حتى خَبِره، وعرف ما يُخاف على السائر منه، وما لا يخاف، والأعمال التي لا نفع منها ولا تقرب صاحبها، والأعمال التي تُثْمِرُ وتُصلح السائرَ وتُقرِّبه إلى الله، وما يسقيه في سيره إلى الله، فحصل علوماً عامة نافعة، وحصل علوماً خاصة، كالمعرفة والحكمة، وعلم ما يُثْقِلُه حَمْلُه في الطريق، ومالا يثقله، وقطع صحراء السير على الرغم من شدَّتِها وبُعدِها وخطورةِ السير فيها، وتعرف على قواطع الطريق كالشيطان الذي يريد أن يحبسه عن الخير، والنفس التي تُعيقه، ومر في سيره في المواضع الأفضل التي يجد فيها دفء النفس وسقاية الخير وثمرة السلوك، فعرفها ومَيَّزَها، وأخذ من تلك المشارب الربانية وانتفع منها، وعرف ميزة كل مَشْرَب.

فلمّا حصل هذه التجارب، وانتفع منها، ونجح في طريقها، ووصل غايتها، عندئذ يعترف له الناس بأنه أهل للمشيخة، وأهل لأن يربي غيره من المريدين الراغبين في التوجه إلى الله، والسائرين إلى إصلاح نفوسهم.

---

(١) البيداء: الصحراء، المفاوز: الفلاة المهلكة البعيدة، ارتاد: تعرف، حابس وحاجز: ما يؤخر المسافر أو يمنعه عن إتمام السفر أو يعيقه أو يكون سداً أمامه.

(٢) حل: نزل، منازل المناهل: مواضع الرعي والدفء والأمان، فلا عدو فيها، شرب: مشارب الطريق، ناهل: شارب وآخذ منه حظاً جيداً.

(٣) الخطب: الأمر المهم الجليل، الركب: المسافرون.

كيف أهتدي إلى الشيخ

وليس الذي يحكم على السائر أنه صار شيخاً وأنه تأهل للتربية، عامةَ الناس، بل يحكم عليه الشيوخ والصالحون والربانيّون، وإذا رأى شيخه أنه تأهل لذلك أذنه في التربية والتوجيه والتسليك وجعله شيخاً.

ولكن لما ادعى المشيخة كثير من الناس، في زماننا وفي أزمنة سابقة، ولما كان بعض المشايخ ليس أهلاً للمشيخة أصلاً وهو يأذن بها من ليس أهلاً لها، احتاج الراغب في السير إلى الله أن يتأكد من تحقق الشيخ بالأهلية قبل أن يسلمه نفسه وقبل أن يتتلمذ عليه ويتعاقد معه على السلوك،

١. فيجالس الشيخ قبل أن يعاقده، ويستمع إليه، وينظر هل ينتفع من كلامه أم لا، ويرى دلائل استقامته على الكتاب والسنة، وحرصه على الشريعة وعلى منهج أهل السنة، ولا نفترض في الشيخ أن يكون معصوماً، لكنه صحيح الاعتقاد، لا يَقْرَبُ الكبائرَ، ولا يُقَصِّرُ في الفرائض، ولا يرضى بالصغائر، ولا يتأخر عن السنن والنوافل، ويسارع بالتوبة لو بدر منه شيء.

٢. ويتأكد من مشيخته، وإسناده، ومن أذنه بالمشيخة والتربية.

٣. ويعتمد على الله ويتوكل عليه أن يدله، إن كان هذا الذي عرفه شيخاً أم لا، وإن كان يَنتفع منه أم لا، فيلجأ الراغب بالسلوك إلى الله، فيستخير الله، ويصلي صلاة الاستخارة، ويدعو الله أن يَدُلَّهُ على مَن يَدُلُّهُ عليه.

٤. ويستشير من له خبرة في هذا الشأن.

٥. وينظر في حال تلاميذ الشيخ، ليزداد طمأنينة، مع أن حال التلاميذ لا يعد مؤشراً مضطرداً، لكنه يستفاد منه.

فإذا ظن به الخير والاستقامة والأهلية، وظن أنه ينتفع منه، ووجد من الصالحين من يُوَثِّقُه ويُثْني عليه، وشرح الله صدره لصحبته، عندئذ يصحبه ويتتلمذ عليه ويرجو من الله النفع والترقي.

٠٦ وربما وجد الطالب في الشيخ ما هو أكثر من ذلك، مما يزيده اطمئناناً إلى الشيخ وأهليته، فقد يجد حالاً صالحاً وشعوراً طيباً كلما جالَسَه، ويشعر أن قلبه ارتاح واطمأن وسكن، ورغب في رضوان الله وفي السير إلى الله أكثرَ، ويُحِس أنه يخرج من مجلسه بحال أطيب وهِمَّة أعلى، وربما يرى للشيخ كرامة فيطمئن أنه مرضي عند الله.

٠٧ واعرف الصفات التي يجب أن تكون في الشيخ المربي، فإن وجدتها لَزِمْتَه.

وَأَحْدَقُوا مِنْ حَولِهِ يَمْشُونا وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يُوزَعُونا(١)
فَرَتَّبَ القومَ على مَراتِبْ ما بين مَاشٍ، راجِلٌ وَراكِبْ
وَحَيثُ كَلَّتْ نُجُبُ الأَبْدانِ قالَ: أحْدُها يا حَادِيَ الأَظْعانِ(٢)
فَمِنْ هُنا يُلَقَّبُ القَوَّالا حَاد لأَجْلِ حَدْوِهِ الرِّجَالا(٣)
وَالسَّفَرُ المَذْكورُ بِالقُلُوبِ وَالشَّيْخُ في مَنْزِلَةِ الطَّبِيبِ

فلما عُرِف الشيخ بأهليته توجه إليه السالكون بطلب السلوك على يديه، ليتعلموا منه وليتبعوه في الحق والخير، وتجمعوا في مجلسه منتظرين نصيحته وتربيته، وانتظموا عنده بترتيب وأدب.

فهم يتأدبون معه فيطيعونه ويحترمونه ويتواضعون له، ولا يعترضون إلا فيما هو منكر لا خلاف بين العلماء فيه إنكاره، ولا يطيعونه فيه.

---

(١) أحدقوا: تجمعوا حوله وقصدوه كأنه الحديقة، يوزعون: مجتمعون منتظمون ومرتبون.

(٢) كلت: تعبت، النُّجُب: الرواحل من الإبل، الحادي: المنشد والمغني والمرتجز، الذي يغني القول الذي يهيج الرواحل على المسير، الأظعان: الرُّحَّل، وحادي الأظعان: هو من يحدو للإبل التي تركب النساء على هَوادِجها.

(٣) القوال: هو المنشد.

والشيخ يؤدي حق طلابه عليه، فيعلمهم وينصحهم، ويهتم بما ينفعهم، ويراقب أحوالهم، ويُذاكِرُهم بما يُصلحُ حالهم مع الله، ويُعالج أمراض قلوبهم.

والشيخ يميز بين المبتدئ الذي كأنه يمشي، وبين المتقدم الذي هو كالراكب، وبين المتقدم الذي هو كالطائر، ويميز بين السائر الضعيف البطيء وبين السائر القوي المقْبِل السريع، ويُقَرِّبُ المتقدمين إليه في مجلسه، ويستعين بهم في تربية المبتدئين والضعفاء.

ولأن بعض السائرين ضعفاء في العمل وفيهم كسل وهمتهم ضعيفة؛ فالشيخ يحتاج إلى ما يُقوِّيهم ويُحرِّكُهم ويُنَشِّطُهم، فيتخذ الشيخ مُنْشِداً يقول الشعر ويغني به، في المعاني الربانية، التي تُذَكِّرُ السالكَ بالله ﷻ وبرسوله ﷺ، وتدعو إلى حبهما، وتَذْكُرُ ما يوجب حبَّهما وطاعتَهما، وتَذْكُرُ أعمال الصالحين ومراتبهم لينشط السامع إلى طلبها، ونحو ذلك من المعاني اللطيفة مع التحميس والتحبيب من خلال العاطفة الشعرية والبلاغة الأدبية، فيصير المنشد كأنه يسوق السالكين إلى الله، كما أن الحادي يَسُوقُ الجمال في السفر، لكن هذا سفر حسي، وذاك سفر معنوي، سفر بالقلوب إلى معرفة الله والقيام بحقه.

وكما أن الطبيب يعالج أجساد الناس وبواطنهم، فكذلك الشيخ يعالج أعمال الناس وقلوبهم، فيما يُقَرِّبُهم إلى الله ويُصلحُ حالَهم للآخرة.

ـ وقد ذكر الناظم الإنشاد سبيلاً لتحريك السالكين، وهو مثال، وإلا فالشيخ لا يكتفي به، بل يحرص على كل ما يُعِين على السير إلى الله، مُعالَجَةً لضعف همم السالكين، وإسراعاً بالمريدين الصادقين، فمن ذلك:

١. من السالكين من تحركه العلوم والمعارف والمنطق والإقناع.

٢. ومنهم من يحركه الوعظ والتذكير، وإثارة عواطف القلوب.

٣. ومنهم من يحركه رؤية العاملين والقُدوات، والاجتماع على العبادة كالقيام والتلاوة والذكر.

٤. ومنهم من تحركه قصص الصالحين.

٥. ومنهم من يحركه الإنشاد.

٦. ومنهم من تحركه مذاكرة الشيخ، ومراجعته في شؤونه وسيره.

والشيخ يحرص على استعمال ذلك كله، وللشيخ فراسته فيما يستعمل من ذلك، وكم يستعمل، وماذا يقدم من ذلك، وماذا يؤخر.

والسلوك إلى الله يحتاج إلى تشجيع وتحبيب، فإن النفوس تَكْسَل وتَمَلُّ وتنسى، لذلك قال الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال ﷺ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ »[1].

صفات الشيخ

ولا بد أن يكون الشيخ متصفاً بصفات تؤهله للمشيخة والتربية؛ فالشيخ هو المؤمن التقي الولي الموقن، الصادق، المنيب، العالم العارف المرشد، الصابر، المحافظ على أوراده، المتوجه إلى الله، المتجرد عن هواه وإرادة زينة الدنيا، لا يطلب المال بإرشاده، ينفعك بحديثه، وتؤثر فيك صحبته تأثيراً طيباً، صاحب نور، مجتهد في العبادة مع الخوف والرجاء والتوكل على الله.

وهذه الصفات مستنبطة من النصوص التي ذكرناها أدلةً على أمر الشرع بالتزام الشيخ، ويضاف إليها:

قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [يس: ٢١].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٥٢٣ ومسلم نحوه رقم ٧٨٢. ويُروى في هذا المعنى حديث لا يصح: « رَوِّحُوا عن القلوب ساعة فساعة، فإن القلوب إذا كَلَّتْ عَمِيَتْ »، وبعض العلماء حسنه من جهة المعنى.

وبين الناظم صفات الشيخ التي يُحَصِّلُها نتيجة صدقه وخبرته[١] وتوفيق الله له، فيكون بها أهلاً لتربية المريدين والسالكين، وأهلاً لإصلاحهم والترقي بهم.

وهي تبين بعض أعماله التي يقوم بها في تربية السالكين، حتى يطهرهم ويزكيهم ويرتقي بهم، وقد كنى الناظم عن ذلك بعلم طب الأجساد، فضرب به مثالاً عن طب القلوب والنفوس:

يَعْلَمُ مِنْها الغَثَّ والسَّمينا ... وَيُدْرِكَ الصُّلْبَ بِها واللّيْنا[٢]
وَيَعْلَمَ البَسيطَ والمُرَكَّبا ... وَما بَدَا مِنها عليهِ وَاْخْتَبا[٣]
وَالطَّبْعَ وَالمِزاجَ وَالتَّرْكيبا ... وَالكونَ والتَّحْليلَ والتَّرْطيبا[٤]
قَدْ أَحْكَمَ التَّشْريحَ وَالمَفاصِلْ ... وصارَ عِلْمِ الطِّبِّ فيه حاصِلْ[٥]
وَكانَ عَشّاباً وَصَيْدُلَاني ... قَدْحاً وَكَحّالاً ومارِسْتانِي[٦]

---

(١) وكثير منها حَصَّل الخبرةَ به حينما مر به سالكاً، ويزداد بعد المشيخة والتربية خبرة بها.

(٢) الغث: المهزول الذي لا شحم فيه، والسمينا: كثير اللحم والشحم، والصلب: القاسي، واللين: الرقيق.

(٣) البسيط: في علم الطب المرض الواحد، والمركب: المرض الذي ينتج عن عدة علل واختلالات.

(٤) الطبع: ما جُبِل عليه الإنسان من حالات طبيعية، المزاج: ما يكون خلاف الحالة الطبيعة من حال متغير أو رديء أو منزعج، ويقال مثله في الطب على من تعكرت صحته، الترطيب: ما يصلح المزاج المنحرف ويعيده إلى الاعتدال، وما يعالج العلة الخفيفة ويصلح حالة الجسم، الكون: الحالة التي يكون عليها من صحة أو مرض، التحليل: تفكيك حالة المريض وتحليلها ليتبين أسباب المرض واعتلال الصحة، التركيب: جمع أدوية مختلفة لتعالج الأمراض والعلل المتفرقة والمجتمعة.

(٥) التشريح: معرفة أجزاء الجسم وموضع كل جزء وارتباطها ببعض ووظائفها، المفاصل: التي تكون بين العظام لتعين على الحركة، وقوله: صار علم الطب فيه حاصل: هو من عرف كل مرض، وعرف أعراضه الدالة عليه، وعرف أدويته وعلاجه وبيئة العلاج، ويعرف الصحة وعلاماتها وأسبابها.

(٦) العشاب: الذي يعرف الأدوية العينية، فيعلم كل عشبة ماذا تفيد وماذا تعالج من الأمراض، الصيدلاني: الذي يعرف الأدوية الشرابية والمركبة من عدة مواد وأدوية، قدحاً: أي علمه ذلك عن تجربة ومزاولة حتى صار خبيراً فيه، كحالاً: يعلم ما يصلح العين والبصر، المارستاني: هو الطبيب الذي يعاين عدداً من المرضى في آن واحد، كطبيب المستشفى الذي يدور على مرضاه.

أَمْهَرَ في الأَعْراضِ وَالأَخْلاطِ   مِنْ أَسْقَلا جَالِيْنُوسَ أَوْ بُقْراط(١)
فَعِنْدَما صَحَّ له التَّحْصِيلُ   يَمَّمَهُ السَّقِيمُ وَالعَلِيلُ(٢)
فَكانَ يُبْرِيهِمْ مِنَ الأَمْراضِ   وَالسّاخِطُ القَلْبِ يَعُودُ رَاضِ(٣)
وَلَيْسَ هذا طِبُّ جالِيْنُوسِ   وَإِنَّما يَخْتَصُّ بِالنُّفوسِ
فَهكَذا الشُّيوخُ قِدْماً كانوا   يا حَسْرَتِي إِذْ سَلَفُوا وَبَانُوا(٤)

لا يكون الشيخ شيخاً حتى يكون عارفاً بالقلوب والسائرين، من كان منهم من أهل الإدبار والعصيان، ومن كان منهم من أهل الإقبال والطاعة، ومن كان منهم حاله ضعيفاً وعمله قليلاً وقلبه فارغاً من الأحوال السَّنِيَّة الصالحة، ومن كان حاله قوياً وعمله صالحاً وقلبه مليئاً بالأنوار والصفات الطاهرة والأحوال القريبة والمقامات العالية.

ويميز من طلابه من كان قلبه قاسياً، ومن كان قلبه ليناً، من تؤثر فيه المواعظ، ومن لا تؤثر فيه، ومن كان صُلْباً في الحق ويتحمل ويصبر ويجاهد، ومن كان ضعيف الهمة كسولاً مُهمِلاً.

ويعلم من أحوال طلابه من كان مريضاً بمرض قلبي واحد أو أكثر، فيميز ذلك، ويميز بين الأمراض المفردة والأمراض القلبية المتراكمة والمُرَكَّبَة، الناشئة عن أكثرَ مِن معصية أو اختلالٍ وانحرافٍ.

---

(١) أمهر: من المهارة والاتقان، الأعراض: ما يدل على وجود المرض، الأخلاط: ما اجتمع من كيفيات متفاعلة فأفسدت الجسم وأدت إلى مرضه، كإدخال عدد من الأطعمة تفسد المعدة، أو اجتماع البرد وكثرة الطعام، أسقلا جالينوس وبقراط: طبيبان حكيمان من أشهر المعروفين بعلم الطب المعروفين عند القدماء، فضرب بهما المَثَلَ.

(٢) صح له التحصيل: أي أتم علم الطب وصار خبيراً به، يممه: قصده وأتى إليه، السقيم: الذي يكون بين المرض والصحة، والعليل: المريض.

(٣) يبريهم: يعالجهم ويشفيهم، الساخط: الغضبان والمنزعج.

(٤) سلفوا وبانوا: مَضَوْا وانتهوا، وصار بيننا وبينهم بُعْدٌ، كناية عن عدم وجود أمثالهم اليوم، أو ندرة ذلك، وهذا يقوله المؤلف قبل أكثر من ٦٠٠ سنة، فكيف لو جاء إلى زماننا.

والشيخ من يستطيع أن يكشف الأمراض الباطنية القلبية، على الرغم من عدم ظهورها، فيكشف الرياء الجلي، والشرك الخفي، والشهوة الخفية، والإرادة المنحرفة، وأمثال ذلك من أمراض السلوك.

والشيخ مَن يعلم الحالة الطبيعية للإنسان المستقيم، من جهة اعتقاده وقلبه ونياته ونفسه وأحواله وأعماله وأخلاقه، ويميز ذلك عن حالات الاختلال مهما كان كبيراً أو صغيراً وفي أي حال وظرف طرأ له ذلك، ويَقْدِرُ على أن يَصِفَ للسالك ما يُعالج اختلالاته، فيأمره بما يرطب قسوة قلبه، فيأمره بالذكر والتلاوة والدعاء والاستغفار بالأسحار، ويُسمعه من المواعظ والإنشاد ما يعين على إعادته إلى السلوك الصحيح والحال الطيب، وأحياناً يأمره بأكثر من أمر أو بأكثر من ذكر، ليجمع له ما يناسب أحواله، فيأمره بالفكر والذكر مثلاً، أو بالصدقة والصيام، وهكذا.

ويكشف الشيخ **الأمراض المتراكبة**، فيعلم ـ مثلاً ـ أن الطمع يتولد من سوء الظن بالله وضعف اليقين وقوة الوهم، ويعلم أن الحرص دليل على عدم الثقة بالله، ويعلم أن الكبر ناشئ عن ضعف الشكر لله، ويعلم أن التقصير في الفرائض ناشئ عن ضعف التعظيم لله، وهكذا فيعالج كل مرض من أصله ومن سببه.

والشيخ من عَلِم أمراض النفوس ومعاصي الناس، ويعرف أعراضها وعلاماتها، ويعرف ما يعالج به كلَّ مرضٍ منها، ويعرف البيئةَ المناسبة لإصلاح السالكين، ويعلم أسباب الاستقامة والعلامات الدالة على التحقق بها، ويعلم العلاقة بين العقل والقلب والجسد، ويستطيع أن يستفيد من هذا العلم لإصلاح النفوس وهدايتها.

والشيخ هو مَن يَقدِر على أن يُشرف على عدد كبير من السالكين، ويعلم ما يُصلح به فكرهم ونفوسهم وقلوبهم وأعمالهم، ويدلهم على ما يفتح بصائرهم.

والشيخ مَن صار ماهراً في إصلاح النفوس وتزكيتها، أمهر من أفضل الأطباء في علاج أمراض الأجساد.

فَمَن بَلَغَ ذلك من الشيوخ؛ فهو الشيخ الذي يقصده الطالبون السالكون، ليكون عوناً على تزكيتهم، وعلاج أمراض قلوبهم، وإصلاح هِمَمِهم، فيعالجهم بإذن الله وتوفيق الله، ويعود أحدهم وقد رأى أثار التربية، فرأى أنه ترك المعاصي وتخلى عن الأمراض القلبية واستقام على شرع الله وازداد قرباً ومعرفة، فَيَحْمَدُ اللهَ ويَشكرُ الشيخَ، ويعود راضياً عن قضاء الله وأحكام الله، فلا يعترض ولا يخالف، قد « رَضِيَ بالله رَبّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ ورسولاً »[١].

وهكذا كان الشيوخ قديماً، فهل نجد في زماننا مثلهم؟

وقد لخص الشيخ ابن عجيبة الحسني صفات الشيخ، حيث بين أن شروط الشيخ أربعة[٢]، فقال:

علم صحيح: عِلْمٌ يتقن به فرضه، وعلمٌ بغرور النفس وحبائل الشيطان ومكايدهما وسُبُل مجاهدتهما، وعِلم بالمنازل التي يقطعها المريد.

ذوق صريح: ذَوْقُ أحوالِ النفس، وذوق حلاوة الطاعة، وذوق المنازل والمقامات، وذوق أحوال القرب، بالسلوك على شيخ كامل.

همة عالية: وهي الهمة المتعلقة بالله دون ما سواه على الدوام.

حالة مُرْضِية: وهي الاستقامة بقدر الاستطاعة، يجمع فيها بين حقيقة وشريعة، بين جذب وسلوك مع صحبة الصالحين.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٣٤.

(٢) انظر: إيقاظ الهمم شرح الحكم، ص ٧٥.

المبحث الثاني

حكم الاجتماع مع الشيخ والمريدين وآداب ذلك

لا تكون التربية إلا مع الاجتماع بالشيخ ومصاحبته والاستفادة من علمه وقدوته ودعائه، ومصاحبة تلاميذ الشيخ والانتفاع منهم.

وحينما يذكر الصوفية الخلوة والعزلة، فإنما يقصدون العزلة عن الفتن وعن الباطل وأهله، قال تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠]، أما الصالحون فلا عزلة عنهم، بل لا بد من صحبتهم ليتعلم منهم المرء ويتقوى بهم المرء على الطاعة.

فأراد الناظم في هذا المبحث أن يبين أهمية الاجتماع مع الشيخ ومريديه، وبيان حكم الخُلطة والعزلة، أما بيان آداب اللقاء والاجتماع فسيأتي بيانها في المبحث الخامس.

فَكانَ إِذْ ذاكَ اجْتِماعُ القَوْمِ ... لَهُ، لعِلْمٍ عَمَلٍ عَنْ عِلْمِ
وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ رَوِيَّةْ ... بَلْ يَحْضُرُ القومُ على السَّوِيَّةْ
وَلَمْ يكنْ أيضاً لَدَى العِشاءِ ... إِذْ فِيهِ نَهْيٌ، وَهْوَ لِلإِغْفاءِ
وَافْتَقَرُوا فِيهِ للائْتِلاف ... لِيَعْلَمَ المُسْتَوْفِي حالَ الوافي[1]
لا خَيْرَ فِيمَنْ لم يَكُنْ أَلُوفَا ... وَلَمْ يَكُنْ لِغَيرِهِ مَأْلُوفَا

إذا علم السالكون أهلية الشيخ، فإنهم يحرصون على مجلسه، فيجتمعون مع شيخهم وطلابه، ومقصدُ اجتماعِهم هذا طلبُ العلمِ لأجل العمل به، فمن أعظم فوائد الصحبة: العلمُ والنشاطُ إلى العمل الصالح.

---

(١) الائتلاف: الاجتماع، المستوفي: الذي يحتاج إلى الترقي، الوافي: المتحقق والبالغ مبلغاً حسناً.

ولا يكون اجتماعهم عن تَكَلُّفٍ وترتيبات سابقة، وإنما يجتمعون معاً في وقت المجلس العام الذي يحدده الشيخ، والطلاب على مستويات متفاوتة؛ فلا يخص الشيخ بعض الطلاب بمجلس دون مجلس، وإنما يُعطِي في المجلس نفسِه كلَّ مستوىً ما يُناسِبُه من التربية والتعليم والوعظ.

والاجتماع مطلوب، لكنه لا يكون دائماً، فلكل طالب أوقاته لعمله الدنيوي ولأهله وقرابته ومسجده ولعبادته في خلوته وغير ذلك، وللشيخ أوقاته وأعماله غير تربية الطلاب، فلا يكون الاجتماع إلا في أوقات مُحَدَّدَة مَحْدُودة.

وقد يكون **للشيخ عدة مجالس**:

١. **مجلس عام للتربية**، واحد أو أكثر في الأسبوع، يجتمع فيه المريدون والطلاب، ويكون المجلس نحو ساعة أو ساعتين، ويكون موضوع هذا المجلس علم السلوك والتربية والوعظ والتذكير.

٢. **مجلس للذكر والعبادة**، وقد يخصص الشيخ مجلساً للطاعة والعمل الجماعي، فيجتمعون لقيام الليل، أو يجتمعون للذكر معاً[1]، أو لتلاوة كتاب الله، وقد يتخلل المجلس شيء من الدعاء والإنشاد الطيب.

٣. **مجلس العلم**، وقد يخصص بعض الشيوخ مجلساً لطلب العلوم الشرعية، فيدرسهم هو أو غيره ممن يأمره الشيخ؛ علومَ العقيدة والفقه، وبعضَ علوم الشريعة؛ كالحديث والتفسير والسيرة وغير ذلك.

---

(١) **والاجتماع على الذكر أمر مشروع مندوب**، فقد أخرج البخاري ٦٠٤٥ ومسلم ٢٦٨٩ عن أبي هريرة ﷺ أن لله ملائكة سيارة يلتمسون حلق الذكر، ثم بيّن أنهم يسبحون ويحمدون ويكبرون، وأن الله يغفر لهم، وأخرج مسلم ٢٧٠٠ عن أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »، وأخرج مسلم ٢٧٠١ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عن مُعَاوِيَةَ قال: « وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلَامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ ﷻ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ ».

٤. **مجلس للمذاكرة**، فيحدد وقتاً لمن رغب من الطلاب أن يراجعه في سلوكه، وأن يستفهم في أمر، أو يسأل عن معضلة، أو يشكو حالاً، أو يروي مناماً، وغير ذلك مما يَعرِض للسالكين، وقد لا يخصص الشيخ وقتاً لذلك، ويختارُ الطالبُ الوقتَ المناسب لزيارة الشيخ لأجل المذاكرة.

٥. وقد يحصل الاجتماع مع الشيخ وطلابه في **رفقة السفر** إلى حج أو عمرة أو غيرها، أو **رفقة العلاقات الاجتماعية** فيجتمعون في وليمة أو عرس أو عزاء أو في المسجد في صلوات الجماعة، وغير ذلك.

وكل ذلك نافع للطلاب، ويربيهم الشيخ من خلاله، كما أن الشيخ يَذْكُرُ طلابَه في أوقات خلوته وقيامه وآخرِ الليل، فيدعو لهم، ويستغفر لهم، ويسألُ اللهَ لهم الخيرَ والاستقامة.

ولا يكون اجتماع الشيخ والطلاب بعد صلاة العِشاء، لنهي النبي ﷺ عن النوم قبل العِشاء والحديث بعده[1]، فذلك وقت النوم والإغفاء، ليقوم بعد الراحة إلى صلاة الليل والعبادة، إلا أنه ﷺ كان يَسْمَر بعد العشاء في الأمر من أمور المسلمين[2].

وفي زماننا ربما لا يتيسر اجتماع الطلاب إلا بعد العِشاء؛ فلا حرج لو جُعِل المجلسُ بعد العشاء لضرورة الزمان وأحواله، مع الحرص أن لا يكون همُّهم في الاجتماعِ الطعامَ والعَشاء والتلهي، فذلك يتنافى مع العزيمة والتَّوَجُّهِ إلى الله.

وحاجة الطلاب إلى الاجتماع لا تقتصر على الاجتماع مع الشيخ، بل يجتمعون مع بعضهم، فيستفيد الضعيف والمبتدئ من القوي والمتحقق، ويستفيد اللاحق من السابق، وربما ينتفع بعضُ الطلابِ الجُدُدُ من إخوانهم القُدامى ما لا يستفيدونه من الشيخ، علماً وحالاً.

---

(١) عن أبي بَرْزَةَ ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء، والحديث بعدها» أخرجه البخاري رقم ٥٤٣، ونحوه مسلم رقم ٦٤٧ بلفظ: « لا يحب ».

(٢) قال عمر بن الخطاب ﷺ : « كان رسول الله ﷺ يسمر مع أبي بكر في الأمر من أمور المسلمين، وأنا معه »، حديث صحيح، أخرجه الترمذي ١٦٩ والحاكم ٢٩٨٣ ونحوه أحمد ١٧٨ وابن خزيمة ١١٥٦ وابن حبان ٢٠٣٤.

والمسلم ينتفع من أخيه إذا وجد الصدق والنصيحة، قال ﷺ: « المؤمن مرآة أخيه، إذا رأى فيها عيباً أصلحه »[١].

وأهل الطريق في اجتماعهم مع بعضهم تكون بينهم مودة ولين وألفة.

وإذا دخل عليهم جديد تعرفوا عليه وعاملوه بمحبة وإحسان وإقبال، كأنهم يعرفونه من سنوات.

قال ﷺ: « إن المؤمن يألف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف »[٢].

وقال ﷺ: « إِنَّ مِن خِيارِكُم أَحْسَنَكُم أَخْلاقاً »[٣].

وقال ﷺ: « إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خلقاً، الموَطَّؤون أَكْنافاً، الذين يَأْلَفون ويُؤْلَفون، وليس منا مَن لم يَأْلَفْ ولم يَأْتَلِفْ »[٤].

وَمَنْ يكُنْ يَصْحَبُ غيرَ جِنْسِه ... لجَاهِلٌ وَاللهِ قَدْرَ نَفْسِه
أَفْضَلُ لِلْمَرْءِ جُلُوسٌ وَحْدَهُ ... وَلا يكُنْ جَلِيسَ سُوءٍ عِنْدَهُ
قَدْ يُرْتَجَى الشِّفاءُ لِلسَّقِيمِ ... مَهما يكُنْ مُلازِمَ الحَكِيمِ[٥]
وَمَنْ يُنازِعْ فَاطْرَحَنْ نِزاعَهُ ... فَالدِّينُ مَبْنِيٌّ عَلى الجَماعَةْ

(١) حديث حسن، أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٢٣٨، عن أبي هريرة ﷺ، ورقم ٢٣٩ بلفظ: « المؤمن مرآة أخيه، والمؤمن أخو المؤمن يَكُفُّ عليه ضَيْعَتَه، ويَحُوطه مِن ورائه »، ونحوه أبو داود رقم ٤٩١٨ بلفظ: مرآة المؤمن، وأخرجه الترمذي رقم ١٩٢٩ بلفظ: « إن أحدكم مرآة أخيه فإن رأى به أذى فليمطه عنه ».

(٢) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٩١٨٧ والحاكم رقم ٥٩، عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٣٣٦٦ و ٥٦٨٨ ومسلم رقم ٢٣٢١، عن عبد اللهِ بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ولفظ مسلم: « أحاسنكم ».

(٤) حديث حسن، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم ٧٩٨٣ عن أبي سعيد الخدري ﷺ وأخرج الطبراني في المعجم الأوسط رقم ٧٦٩٧ عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: « إن أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون ... ».

(٥) السقيم: المريض، الحكيم: الطبيب.

مَن يدَّعي أنه يُريد وجهَ اللهِ ويَطلبُ مقامَ الإحسان، لا يكون صادقاً إذا صاحَبَ مَن هو مُعْرِض عن الله أو كان من أهل العصيان، فالصادق يصحب من كان على منهجه الصادق، فالْمَرْءُ على دِين خَلِيلِه[(١)]، المؤمن لا يصاحب إلا مؤمناً[(٢)]، والإنسان يتأثر كثيراً بمن يصحبه، كما قيل: (الطِّباعُ تَسْرِقُ الطِّباع).

ولَأَنْ يَعيشَ الإنسانُ في عُزلةٍ وحدَه، خيرٌ مِن أن يَصحبَ أهلَ الجهل والمعصية والانحراف، وأَسْوَأُهم: **جَبّار غافِل، وقارِئ مُداهِن، وصُوفِيّ جاهِل**[(٣)]، فالأول: يرضى عن نفسه ويستكبر على غيره، والثاني: يحتقر غيره ويَغتاب باسم الدين، والثالث: صاحب دعوى وطمع[(٤)].

وإذا أراد الصادق أن يعالج أمراض قلبه ويتخلص من ذنوبه ويُصلح نفسَه ويترقى ويكون من أهل الإحسان، فلا بد له من شيخ يربيه، كما أن المريض لا يشفى إذا لم يرجع إلى طبيب ويلازمه حتى الشفاء.

والدين مبني على الاجتماع والمخالطة، وليس على العزلة، فليست العزلة من أركان الطريق إلى الله، كما يتوهم بعض الناس وبعض السالكين، وإنما الخلطة هي الأصل، فهي سبيل التعاون على إقامة الدين والتعاون على البر والتقوى، وقد شَرَّع اللهُ الاجتماعَ من خلال صلوات الجماعة والحج والبحث عن الفقراء للزكاة عليهم، وغيرها من أحكام العبادات والمعاملات.

---

(١) قال ﷺ: « المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل »، حديث صحيح، أخرجه الترمذي ٢٣٧٨ وأبو داود ٤٨٣٣ وأحمد رقم ٨٣٩٨ والحاكم رقم ٧٣١٩ و ٧٣٢٠، عن أبي هريرة ﷺ، وبعضهم بلفظ: الرجل، بدل المرء.

(٢) قال ﷺ: « لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي »، حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٢٣٩٥ وأبو داود رقم ٤٨٣٢ عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) ذكره زروق في اللوائح الفاسية، ص ١٤٨ عن سهل بن عبد الله قال: « احذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والصوفية الجاهلين ».

(٤) وقد مر معنا قبل صفحات حديث النبي ﷺ الذي مثل فيه للجليس الصالح والجليس السوء.

البيئة المناسبة بين الخُلْطة والعزلة والاجتماع والمفارقة

ـ الأصل في حياة المسلم أنه لا بد أن يكون فيها الخلطة والاجتماع والتعاون، لإقامة الخير، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢].

وقال: ﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال ﷺ : « المسلم الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم؛ خير من الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم »[١].

وقال ﷺ : « من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية »[٢].

وقال ﷺ : « والجماعة رحمة والفرقة عذاب »[٣]، فالوضع الطبيعي أن يكون المسلم اجتماعياً مخالطاً لا منعزلاً.

ولكن هذا لا يعني أن يجعل كل وقته مع الناس، فللإنسان خلوته اليومية، وشؤونه الخاصة، واعتكافه السنوي.

وهذه بعض **الأدلة** الدالة على المستحسَن مِن **العُزلة**:

١. قال ﷺ ذاكراً من السبعة الذين يظلهم الله في ظله: « ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه »[٤] فحثنا في هذا على الخلَوة في ذكر الله.

٢. والنبي ﷺ كان له وقت وافر يخلو فيه مع ربه في قيام الليل وغيره.

---

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٣٨٨ عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأحمد رقم ٥٠٢٢ والترمذي رقم ٢٥٠٧ عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ يراه ابن عمر، وفي بعض رواياته: لفظ المؤمن بدل المسلم، ولفظ أفضل بدل خير، وفي رواية: أعظم أجراً.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٦٤٦، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبدايته: « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق ... » ونحوه مسلم رقم ١٨٤٨ عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد ٢٧٨/٤ والبيهقي في شعب الإيمان رقم ٩١١٩، عن النعمان بن بشير ﷺ، وحسنه بعض العلماء.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٦٢٩ ومسلم رقم ١٠٣١، عن أبي هريرة ﷺ .

٣. وكان لرسول الله ﷺ خلوته السنوية باعتكافه العشرَ الأواخر من رمضان، حيث كان يصلي مع الناس ولا يكاد يكلمهم ولا ينشغل بهم عن اعتكافه.

٤. ولقد أمر الله نبيه بالانقطاع إلى الله في قوله ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٨] أي انقطع إليه انقطاعاً، وإذا كان الانقطاع يمكن أن يكون انقطاعاً قلبياً دون الانقطاع الجسدي، فإن المبتدئ في طريق التزكية لا يستطيع أن ينقطع بقلبه عن الناس إلا مع الانقطاع الجسدي، فلزمه أن يعطي ذلك شيئاً كثيراً من وقته، فإنه ينتفع بذلك كثيراً.

ولا تجوز العزلة التامة الكاملة، لما فيها من تضييع الحقوق، كحقوق الإنفاق على الأهل والقرابة، ولما فيها من فوات بعض الواجبات والسنن، كصلة الرحم وعون المسلمين وحضور صلوات الجماعة.

ـ والواجب الشرعي أن نعيش وفق أمر الله، **فحيثما كان أمر الشرع يقتضي الخلطة فهي الأفضل، وحيثما كان أمر الشرع يقتضي العزلة فهي الأفضل**، وبذلك تكون الخلطةُ والعزلةُ تؤديان مقصداً شرعياً صحيحاً، وأثراً طيباً في تزكية النفس.

ـ قال ﷺ : « المسلم الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم؛ خير من الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم »، ذكر النبي ﷺ صورتين في هذا الحديث، وفضل حالة الخلطة على الأخرى، مما يدل على أن الأصل في حياة المسلم أن يخالط، وأن يكون على حال يستطيع معه الصبرَ على أذاهم، فلا بد أن يُرَقِّي الإنسان نفسه حتى يكون قادراً على الاختلاط بالناس مع التحمل وعدم التأثر.

والأذى المقصود في الحديث لا يختص بالأذى النفسي والجسدي الذي يقع على الإنسان في دنياه، وإنما يدخل فيه الأذى الديني، أي إضرارُهم بحالة الإنسان الدينية، وفتنته عن دينه أو عن طاعته، وقد أشارت نصوص أخرى إلى هذا المعنى بأن الإنسان يفر من الخلق فراراً بدينه من الفتنة.

والصالحون لا أذى منهم، فخلطتهم فيها الخير والهدى، لذلك فلا عزلة عن الصالحين[١].

والحديث السابق يستفاد منه بنصه وفحواه:

١. أن يكون مخالطاً للناس وهو قادر على تحمل الفتنة والصبر على الأذى.

وحكمه: أن الخلطة خير له، وله أجره في صبره وتحمله، وخير منه: من يتحمل ولا يتأثر بالشر والفتنة والباطل، ويكون قادراً على أن يؤثر في غيره، ويَدْعُوْهم ويردُّهم إلى الحق والخير والهدى.

٢. أن يكون مخالطاً للناس وهو غير قادر على تحمل الفتنة، فيتأثر بالباطل وأهله، ويتراجع حاله ويضعف إيمانه بالخلطة، وقد يؤذي غيره.

وحُكْمُه: أن الخلطة شرٌّ له، فوجب عليه أن يقتصر على الحد الأدنى من الخلطة، فلا يخالط إلا قدر الضرورة.

ويجب عليه أن يجعل عزلته في طاعة، لقوله ﷺ: « العبادة في الهرج كهجرة إليّ »[٢]، فليس المهم أن تعتزل الفتنة فقط، بل أن تكون في عزلتك هذه مشتغلاً في العبادة، حتى تترقى وتزداد قرباً من الله وتزداد مراقبة لله وخوفاً منه وتعظيماً له ولحُكْمِه، فتصل إلى درجة القادر على أن يخالط الناس ويُؤَثِّرَ فيهم، ولا يتأثر بأذاهم وفسادِهم.

وأما من لا يقدر على الصبر مع المخالطة؛ فلا يجوز أن يقال له: يجب أن تخالط، لأن في ذلك هلاكَه وتراجعَ حالِه ونقصانَ إيمانه.

والنبي ﷺ قد تحدث عن هذه الحالة في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخُدريّ رضي الله عنه فقال: قال رَجُلٌ: أَيُّ النَّاسِ أفضَلُ يا رسولَ الله؟ قال ﷺ: « مُؤْمِنٌ مجَاهِدٌ بِنَفسِهِ وَمَالِهِ في

---

(١) وقد مر معنا الأمر بصحبة الصالحين، وأدلة ذلك.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤٨، عن معقل بن يسار رضي الله عنه.

سبيل اللّه » قال: ثم من ؟ قال: « ثم رَجُلٌ مُعتَزِلٌ في شِعْبٍ مِن الشِّعَاب يَعبُدُ رَبَّهِ ويَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّه »[(١)].

٣. أن يكون معتزلاً للناس وهو لو خالطهم يصبر ولا يتأذى ولا ينقص إيمانه.

فحكمه: أن الخلطة خير له وأعظم أجراً، وعليه أن يجتهد جهده في الدعوة إلى الله والتأثير في غيره بالخير، إن كان قادراً على ذلك، ولا يجوز أن تكون الخلطة في كل وقت، فتصير على حساب الواجبات الفردية، فالنبي ﷺ رغم دعوته وجهاده لم يشغله ذلك عن خلواته اليومية في التلاوة والقيام.

٤. أن يكون معتزلاً للناس وهو لا يصبر على أذاهم ويتأثر في دينه ويفتن وينقص إيمانه.

فحكمه: أن العزلة خير له، حتى لا يأثم من عدم صبره ونقصانِ إيمانه ووجودِ ما يدفعه إلى المعاصي، وعليه أن يجتهد في العبادة، عسى أن يرقى إلى أن يصير كالأول مُؤثِّراً لا مُتأثِّراً.

قال ﷺ : « يوشك أن يكون خيرَ مال المسلم غنمٌ، يتبع بها شَعَفَ الجبالِ ومواقع القَطْر[(٢)]، يَفرُّ بدِينه مِن الفِتن »[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٢٦٣٤ ومسلم رقم ١٨٨٨ واللفظ لمسلم، وفي روايةٍ للبخاري: «يتَّقِي الله، ويَدَعُ النَّاسَ مِن شَرِّهِ».

(٢) شعف الجبال: حشيشه وكلأُه، مواقع القطر: محل المطر والماء.

(٣) أخرجه البخاري رقم ١٩، عن أبي سعيد الخدري ﷺ. والحديث يشعر بأن الإنسان إذا لم يفعل ذلك في ظرف الفتنة فلا يخلو من أن يدخله المال الحرام.

المبحث الثالث
حُكْم اللِّباسِ وآدابُه

مقدمة المبحث الثالث والرابع
الزهد

يعتني أهل الإحسان بإصلاح قلوبهم، فإذا صَلَحَتْ ظهرَ أثر ذلك على سلوكهم، وفسادُ القلوب يظهرُ أثرُه في سلوك الإنسان، ومن أعظم أخلاق القلوب الزهد، **وزهد القلب أن لا يتعلق بشيء غير الله سبحانه،** فلا يتعلق بالدنيا الفانية وزينتها، ولا يَغتَرَّ بزُخْرُفِها، وزهد القلب فرض.

أما **زهد اليد** بأن يخرج ما في يده من مال، فليس بواجب، بل هو حكم شرعي، فحينما يأمر الله تعالى المسلمَ بالإنفاق؛ يجب أن يُنفِق، وحينما يَندُبه؛ يحرص على الإنفاق، وحينما يمنعه؛ يمتنع.

وأعظم المؤشرات على وجود الزهد في القلب أو عدمه؛ حال الإنسان في التعامل مع **الطعام واللباس،** ومن هنا جاء هذان المبحثان، ليعرف الصادق صدقه من تصرفه الظاهر، الذي يدل على ما في قلبه، مِن عِشْقٍ للدنيا وتَعَلُّقٍ وحُبٍّ ورغبة، أو زهد فيها وإقبال على الآخرة ومرضاةِ الله.

والله تعالى حذرنا من الاغترار بشهوات الدنيا وزينتها، فتلك الزينة فتنة واختبار، فقال عز وجل: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وبين لنا سبحانه أن الأصل في حياة المسلم أن يجعل كل شيء فيها للآخرة، حتى يكاد ينسى الدنيا، فيُذَكّرُه اللهُ أنه يحتاج نصيباً من الدنيا ليعينه على طريق الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]، فلا يجوز أن يكون حالنا أننا جعلنا كل شيء آتانا الله إياه للدنيا، واحتجنا إلى من يذكرنا بالآخرة.

كما بين الله تعالى أن إيثار الدنيا طريقٌ إلى النار، وأن منعَ النفس مما تهواه خلاف أمر الله طريقٌ إلى الجنة، فقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

وقد ظن بعض الناس أن الله أباح الهوى والميل إلى المباحات، في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فجعل هذه الآية تضرب الآيات السابقة.

والتحقيق في ذلك أن هذه الآية لا تتعارض مع السابقات، فحينما أَحَلَّ الله لنا بعض الزينة، إنما **أحلَّها بشرط أن لا يأخذها الإنسان من هوى نفسه**، وإنما بإباحةِ ربِّه، وقد **أباحها بشرط أن لا تشغلنا عن حق الله والآخرة والفرائض والواجبات**، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

ووصف المنافقين بالانشغال بالدنيا عن الآخرة، وأن انشغالهم الظاهرَ دليلٌ على خرابٍ في قلوبهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ [الفتح: ١١]، وأفضل المال عند الناس طعامُهم ولباسُهم.

فعلى ضوء هذه الآيات فليكن فهمنا لكلام الصوفية في مبحث الطعام واللباس، آخذين بعين الاعتبار أن الشريعة لم تمنع الأكل واللباس، وإنما وضعتْ قواعدَ، وأَلْزَمَتْ بالاعتدال في استعمالهما، فالشريعة تجمع بين الدنيا والآخرة، وبين حق الله وحق النفس وحق الآخرين، وبين صلاح الظاهر وصلاح الباطن، والشريعة تُفَرِّقُ بين حاجةٍ وضرورة ومباح، وبين تَرَفٍ وفُضُولٍ وإسراف وتبذير وحرام، قال الناظم رحمه الله:

وَقَدْ أَباحُوا سائِرَ الأَثْوابِ ... وَتَرْكُها أقربُ لِلصَّوابِ
إِذْ فِي لِباسِ حِلِّها الحِسابُ ... أيضاً، وفِي حَرامِها العِقابُ
والقومُ ما اخْتارُوا المُرَقَّعاتِ[١] ... إِلّا لِأَوْصاف، وَسَوْفَ تَاتِي
أَوَّلُها، فِيها اطِّراحُ الكِبْرِ ... ومَنْعُها لِلْبَرْدِ ثُمَّ الحَرِّ
وَخِفَّةُ التَّكْلِيفِ، ثُمَّ فِيها ... قِلَّةُ طَمَعِ الطّامعينَ فِيها
وَذِلَّةُ النَّفْسِ، وَتَطْوِيلُ العُمُرْ ... وَالصَّبْرُ، ثُمَّ الاقْتِداءُ بِعُمَرْ
أَلا تَرَى لَابِسَها كالخاشِعْ ... فَهِيَ إِذَنْ أَقْرَبُ لِلتَّواضُعْ

للمسلم آدابه الشرعية في اللباس والزينة، والصوفي ينبغي أن يلتزم بها[٢].

---

(١) المرقعات: الثياب المهترئة التي أُصْلِحَت، أو هي الثياب التي صنعت من أجزاء سليمة من ثياب قديمة مهترئة.

(٢) انظر آداب اللباس والزينة وتفاصيلها وأدلتها، في كتاب التزكية على منهاج النبوة، الفصل الثاني من الباب الرابع، الأخلاق والآداب، ص ٥٧٥ وما بعدها، **وأهمها**: أن يلتزم المسلم حدود الله في الزينة، فيترك الزينة التي حرم الله، وأن لا يكون لباسه ناشئاً عن التعلق بالدنيا والاغترار بها، وعدم تشبه الرجل بالمرأة، وعدم تشبه المرأة بالرجل، فيما يخص كل واحد منهما من لباس وزينة، وأن لا يَلْبَس لِباسَ تَكَبُّر، وعدم التشبه بلباس الكافرين والعُصاة فيما يخصُّهم ويُظهِر كفرَهم أو معصيتهم، وأن يلتزم المسلمُ بسَترِ العورةِ والمسلمةُ بالحجاب، وترك الزينة التي تثير الشهوات المحرمة، وأن يحرص المسلم على اللباس الجميل الأنيق مما تعارف عليه الناس في بيئته، ولا يلبس لباساً متنافياً مع العرف والذوق العام، وأن يراعي في لباسه اختلاف الأحوال، فلِلْجُمَعة لباسُها وللعمل لباسه وللبيت لباسه، وعدم استعمال الذهب والفضة للرجال، وتجوز للإناث، وعدم إطلاع الناس على الألبسة الخاصة الداخلية، وأن يصلح لباسه إن تمزق أو تشقق، ويرقعه إن لم يقدر على تغييره، وأن يشكر الله على نعمة الزينة، ويدعو عند لباسه، ولا مانع أن يلبس حذاءً جيداً، ولا يلبس في رِجْل دُون الأخرى، ويبدأ الانتعال باليمين، ويخلع اليسرى قبل اليمنى.

لكن الصوفية يؤكدون على آداب من آداب اللباس تتناسب مع السعي إلى مقام الصدق والإحسان والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

فالثياب هي من نعم الله على الإنسان، يجب أن يشكرها، وأن يستعملها في مراد الله، ولا يتجاوز أمر الله بتبذير أو إسراف أو تكبر واختيال، فقد امتن الله بها علينا، فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ ﴾ [الأعراف: ٢٦]، ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسرافٍ ولا مَخِيْلَةٍ»(١).

والإنسان يُسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، والإنفاق على الثياب جزء من هذا السؤال يوم القيامة، فإن كان اللباس حراماً استحق العقاب عليه، وإن كان حلالاً سئل عنه، وربما يكون قد توسع وأسرف، وربما يكون قد قَدَّمَ لباساً حسناً على صدقة واجبة.

وقد توسع الناس وكثير من المسلمين في اللباس وأسرفوا فيه كثيراً، وشَغَلَ قلوبهم، وأخذ من أوقاتهم كثيراً، وتفاخروا به، ونظروا إليه كثيراً، وبذلوا عليه كثيراً من أموالهم، وأهدروا أوقاتاً في أعمال لتدر عليهم دخلاً لأجل اللباس الزائد والمُتْرَف.

لذلك آثر الصوفية أن يأخذوا من الثياب الحد الأدنى الذي يكفيهم لستر العورة والجسم، واتقاء البرد والحر، **لئلا يشغلوا قلوبهم به، ولا يضيعوا أموالهم فيه**، وقد استحسنوا ذلك واختاروه من غير تحريم لما يزيد على ذلك إذا وافق أحكام الشرع وآدابه.

وقد غلب على الصوفية في بعض الأزمان اختيار المرقعات، فصارت كالشعار عليهم، فلا يلبسون لباساً جديداً، حتى لا ينفقوا على اللباس شيئاً، فيأخذون الألبسة التي ألقاها

---

(١) حديث حسن، أخرجه البخاري تعليقاً قبل حديث رقم ٥٤٤٦، وأخرجه أحمد رقم ٦٦٩٥ والنسائي في السنن الكبرى رقم ٢٣٤٠ والحاكم رقم ٧١٨٨ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، و(الإسراف): أن يَصْرِف المال فوق الحاجة، و (مخيلة): التكبر والافتخار على الآخرين، وقد ذكر البخاري بعد هذا الحديث قول ابن عباس رضي الله عنهما: « كُلْ ما شِئت، والْبَسْ واشْربْ ما شئت، ما أخطأتك اثنتان سَرَفٌ أو مَخِيْلَةٌ ».

الناس، ويَنْتَقُون منها أجزاءً سليمة متماسكة ويجعلون منها ثوباً يخيطونه، ويلبسونه نظيفاً، أو إذا اهترأ الثوب من موضع خاطوا عليه خِرْقَة أو خيطاً يَسُدُّ موضع الخَرْق.

وقد جرى هذا العرف في أزمان اشتد الفقر فيها على الناس، وبعض الناس يتكلف على الرغم من فقره، فاتَّجَهَ المشايخُ إلى المرقعات تخفيفاً عن الناس، وإيثاراً للزهد، لا تحريماً لِلّباسِ الحسن.

وهذه المسألة مسألة عرفية مصلحية، فربما لا تناسب زماننا، وقد يكون ما يشتريه الناس من اللباس المستعمل (البالة) أوفر من خياطة المرقعات، وفي بعض الأحيان قد يكون من الواجب أو المندوب مراعاةُ اللباسِ الحسنِ وإظهارُ النعمة، لمن كان قادراً على بذل المال فيه.

وكان من أسباب ترجيح الصوفية للمرقعات ما يأتي:

١. أنها تعالج التكبر ورؤية النفس وتعاظمها على الآخرين، وقد نُهينا عن الاختيال والتعالي باللباس، قال ﷺ: « والْبسوا، في غير سرف ولا مَخْيْلَةٍ ».

٢. أنها تمنع البرد والحر، فهي مناسبة لسائر الأحوال الجوية، وتحقق مقصود اللباس.

٣. قلة سعرها وتكلفتها، وبساطة خياطتها، فلا ترهق الناس ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾.

٤. لا ينظر الناس إليها بعين الطمع والحسد، ولا يتطلعون إليها.

٥. فيها إذلالُ النفس، وعلاجُ العُجْب، قال رسول الله ﷺ: « بينما رجلٌ يمشي في حُلَّة، تعجبه نفسه، مُرَجِّلٌ جُمَّتَه، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة »[1].

٦. فيها تطويل العمر، أي فيها بركة، لأن الناس ـ كما نرى اليوم لا سيما النساء ـ يضيعون أوقاتاً كثيرة في صنع اللباس، وفي النزول إلى الأسواق لشرائها، فتأخذ من قلوبهم وفكرهم،

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٤٥٢ ومسلم رقم ٢٠٨٨ نحوه، عن أبي هريرة ﷺ. و(الحلة): هي ثوب من قطعتين، (مرجل): أي ممشط، (الجُمّة): الشعر إذا كان كثيراً طويلاً يصل إلى الأذن، (يَتَجَلْجَلُ): أَيْ يغوص وينْزلُ ويتقلب.

وينظرون إلى ما عند الآخرين، ويلقون ثيابهم الجيدة، أو يخزنونها في الخزائن ولا يستعملونها، لأنها لم تَعُدْ دارِجة ولا رائجة، أو لأنهم لبسوها مرة أو مراراً أو في حفلة أمام الناس، وهذا يؤلم قلوب الفقراء الذين لا يجدون ما يأكلون وما يُدَفِّئُهم، فإذا اكتفى المسلم بلباس المرقعات ونحوها من اللباس الذي لا تكلف فيه، فقد خلا قلبه من شغل، وخلا وقته من شواغل.

٠٧ وفيها أجر الصبر، حيث إنها ليست ناعمة ولا مريحة كألبسة المترفين.

٠٨ الاقتداء بعمر بن الخطاب ﷺ، فقد كان يلبس المرقعة، ولبسها وهو يفتح بيت المقدس، وهو القائل: « وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَعُّمَ وَزِيَّ أَهْلِ الشِّرْكِ، ولَبُوسَ الحرير »(١).

٠٩ وهي تعين على الخشوع، إذ لا ينشغل قلب المصلي بلون الثياب ونعومته ولمعانه وزخارفه وزينته، فهي تحقق مراد الشرع في صلاح القلوب وتواضعها وخضوعها لله وخشوعها وعدم انشغالها، لذلك رفض النبي ﷺ ثوباً مُزَيّناً شغَلَ فِكْرَه، كما روت عائشة رضي الله عنها « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى فِي خَمِيصَةٍ لَهَا أَعْلامٌ، فَقَالَ: شَغَلَتْنِي أَعْلامُ هَذِهِ»(٢).

وقد حذر النبي ﷺ أن تصير الألبسة معبوداً ومقصوداً وهدفاً، فتكون إلهاً في قلوبنا يُحَرِّكُنا نحوَ الاستزادة منها بكبرياء النفس وشهوتها وتفاخُرِها وتبذيرها والانشغال بها عن المهمات والنفقات الواجبات، لا لتحقيق المقصد الذي لأجله خَلَقَ اللهُ اللباسَ؛ مِن سترِ عورة، وإظهارِ نعمة مِن غير تضييع حق الله والناس، فقال ﷺ : «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»(٣).

---

(١) وقد كتب بذلك عمر ﷺ لأحد قادة جيوشه، أخرجه مسلم رقم ٢٠٦٩.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٧١٩، ومسلم رقم ٥٥٦، وتتمته: «اذْهَبُوا بِهَا إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةٍ»، والأنبجانية: ثوب غليظ مِن صُوفٍ لا عَلَمَ فيه ولا زِينة.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٢٧٣٠، عن أبي هريرة ﷺ، وقوله: (تعس): يدعو عليه بالتعاسة، لأنه يستحقها، وهي الشقاء والهلاك أو السقوط على الوجه، (عبد الدينار): كناية عن حرصه عليه وإذلال نفسه لأجله، فينشغل بطلبه كالعابد له، ولو حرمه الله، (القطيفة): ثوب يلبس فوق الملابس الداخلية، (الخميصة): كساء أسود مربع له خطوط.

المبحث الرابع
حكم الأكل وآدابه

والأَكْلُ فِيهِ تَرْكُهُ مَشْرُوطُ إِلّا اضْطِراراً قَدْرَ مَا يَحُوْطُ(١)
وَإِنْ يَكُنْ يَحْسَنُ وَإِلّا فَتَرْكُهُ عِنْدَ الجَمِيعِ أَوْلَى

من أكثر ما يتوسع الناس فيه من المباحات: الأكل والطعام والشراب، وكثيراً ما يتجاوزون الحد الشرعي إلى إسراف وتبذير، حتى إن البشرية تهدر من الطعام الزائد عن حاجتها ما يزيد على ٣٠٠ مليار سنوياً في زماننا، على الرغم من أنك تجد أن أكثرَ البشرية فقراءُ ومحتاجون.

والإكثار من الطعام يُثقِل الجسم عن العبادة والخير، ويؤدي إلى الأمراض والعلل، والمريض لا يحسن القيام بالعبادة عملاً، ولا يجد رغبة نفسية لها بسبب آلامه وضعفه، بل يصير عالَةً على غيره.

لذلك أمرنا الله ﷻ ورسوله ﷺ بعدم الإسراف في الطعام والشراب، وأمرنا بالتقليل والاعتدال فيهما.

قال ﷺ : « مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ »(٢).

---

(١) يحوط: أي قد ما يحفظ جسمه وقوته ويحميه من الهلاك والضعف والمرض.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٢٣٨٠ عن مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ ﷺ، ونحوه أحمد ١٣٢/٤ وابن ماجه رقم ٣٣٤٩ وابن حبان رقم ٥٢٣٦، ورواه بعضهم بلفظ: « لُقَيْمات »، وفي رواية النسائي في السنن الكبرى رقم ٦٧٦٨ : « ... حسب الآدمي لُقْمات يقمن صلبه، فإن غلبته نفسه فثلث ... ».

والطعام والشراب شأنُه شأنُ النعم التي سَخرها الله تعالى للإنسان، هي نعم من جانب، لكنها موضعُ اختبار وابتلاء من جانب آخر ﴿ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤] ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وأقل النجاح في الاختبار يكون بامتثال أمر الله فيها، مما أوجبه الله، وأعلى النجاح يكون بامتثال ما ندب إليه، والله أمر بالتقليل من الطعام.

لذلك جعل الصوفية الأصل أن لا يأكل الإنسان إلا بقدر اضطراره إلى الطعام والشراب، ليحفظ جسده من الهلاك والضعف والمرض، وليحفظ جسده قوياً بالقدر الذي يحتاجه للطاعة وأعمال الدنيا الواجبة عليه، فلا يقلل من الطعام إلى حد الضرر والمخمصة، ولا يزيد إلى قدر يؤذي جسده ويثقله ويتسبب في السمنة، التي ذمها رسول الله ﷺ إذ أخبر أن السمنة تكثر في آخر الزمان، وذَكَرَ ﷺ ذلك ضمن أوصاف مذمومة(١).

وأخبر أن السمين يأتي يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة(٢).

فإن أكل الإنسان للضرورة فذلك حسن، وإلا فترك الطعام أولى وأحسن وهو السُّنَّة.

آداب الطعام عند الصوفية:

وللصوفية آداب في الطعام، وهي من أدب المسلمين في الطعام، لكن للصوفية وطلاب الإحسان مزيدُ عِنايةٍ بذلك.

وعليك أن تلاحظ أنها جميعاً ترتبط بحالٍ قلبي؛ مِنْ زُهْدٍ وعِفَّة، أو كَرَمٍ وإيثار، أو مجاهدة وصفاءِ خاطر.

وهذه الآداب التي نبه إليها الشيخ الناظم رحمه الله:

---

(١) عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: « خَيرُكم قَرْني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »، قال عمران: لا أدري أذكرَ النبي ﷺ بعد قَرْنه قرنين أو ثلاثة، قال النبي ﷺ: « إن بعدكم قوماً يَخُونون ولا يُؤتمنون ويَشهدون ولا يُستشهدون ويَنذِرون ولا يَفُونَ، ويظهر فيهم السمن » أخرجه البخاري رقم ٢٥٠٨، ونحوه مسلم رقم ٢٥٣٥.

(٢) قال ﷺ : « إنه لَيَأْتي الرجلُ العظيم السَّمِينُ يوم القيامة لا يَزِنُ عند الله جَناحَ بَعوضة، اقرؤا: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴾ [الكهف: ١٠٥] » أخرجه البخاري رقم ٤٤٥٢ ومسلم رقم ٢٧٨٥ عن أبي هريرة ﷺ .

وَأَدَبُ القومِ لَدَى الطَّعامِ جَمٌّ فَمِنْهُ تَرْكُ الاِهْتِمامِ
وَقِلَّةُ الذِّكْرِ لَهُ إِنْ غَابا لِكَوْنِهِ عِندَهُمْ حِجابا
بَلْ أَنْزَلُوهُ مَنْزِلَ الدَّواءِ عِنْدَ العَلِيلِ بُغْيَةَ الشِّفاءِ
وَلَمْ يكنْ هَمُّهُمُ بِجَمْعِهِ وَكَسْبِهِ وَفَضْلِهِ وَمَنْعِهِ

١. أن لا يهتم بالطعام، فيشغل قلبه وفكره به.

٢. ولا يشغل لسانه به، فلا يتحدث عنه إلا لضرورة، ولا يذكره ويتشوق إليه، ولا يطلبه إلا عند الحاجة إليه، ولا يجعله محل حديثه مع الناس، فَمُهِمّاتُ المسلمِ تَشغلُه عن ذلك.

٣. يتعامل مع الطعام مثل الدواء، فالدواء لا يأخذه إلا المريض ليشفى به، وكذلك الطعام لا ينبغي أن يجعله للترف، وإنما هو للحاجة، فقد ذم الله الكافرين بأنهم جعلوا الطعام للتمتع غافلين عن الله والآخرة وعن مقصد الطعام، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

٤. لا يجعلون جمع الطعام وأنواعه وأطايبه هَمّاً لهم، ولا كيف يكتسبونه ويحصلونه، ولا البحث عن مزايا الطعام وفضائل كل صنف، فلا يكون لهم اهتمام بذلك إلا قدر الضرورة.

٥. لا يمنعون الطعام الذي بين أيديهم عن محتاج أو سائل أو مُستحِق.

وَلا اْسْتَقَلُّوهُ وَلا عَابُوهُ ولم يكنْ قَصْداً فَيَطْلُبُوهُ
والقومُ لَمْ يَدَّخِرُوا طَعاما بَلْ تَرَكُوا الحلالَ والحراما
إِلّا يَسِيراً قَدْرَ ما تَيَسَّرا إِذِ الحَلالُ المَحْضُ قَدْ تَعَذَّرا

٦. إذا قدم إليهم طعام قليل، لم يَرَوْه قليلاً، ولم يتذمَّروا من ذلك، بل أكلوا ما تيسر، وشكروا.

٧. ولا يعيبون طعاماً، فما لا يسوغ لك، قد يعجب غيرك، وكان النبي ﷺ لا يعيب طعاماً إن رغب به أكلَ، وإلا ترك[١].

٨. لا يجعلون الطعام هدفاً ومقصداً في الحياة، ولا يجعلون أنفسهم تتعلق بصنف من أصنافه، بحيث لا يستطيعون تركه، ويتألمون لفقده.

٩. لا يدخرون ولا يخبؤون طعاماً، إلا يسيراً من الحلال قدر الحاجة المعتادة، فلا يخافون على الرزق، ولا يقلقون، ولا يسيئون الظن بالله، ولا يكون عندهم طول أمل، فيجمعون لأشهر وسنين.

١٠. يتركون الطعام الحرام، ويجتنبون ما كان فيه شبهة، ويقللون من حلاله، « حتى يدع ما لا بأس به »[٢]، « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه »[٣].

وفي زماننا قد كثر الحرام والمشتبه من الطعام، فدخلت دهون الخنزير في أطعمة، ودخل الخمر في أطعمة، وذبحت أنعام غيرَ مُذَكّاة، عدا عن كثرة المال الحرام الذي يتدخل في زراعة الطعام وصناعته، فواجب المسلم والمحسن أن يتحرى ويحتاط ويتورع، فإن الحرام إذا دخل جوف الإنسان أطفأ نور طاعته، وفتح باب شهوته ومعصيته، واستوجب العقوبة من ربه، قال ﷺ: « إن الله أبى أن يدخل الجنة لحماً نبت من سحت، فالنار أولى به »[٤]، والسحت: الحرام، وما ليس بحق.

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال: « ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه » أخرجه البخاري ٣٣٧٠ ومسلم رقم ٢٠٦٤.

(٢) عن عطية السعدي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذراً لما به البأس »، حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٢٤٥١ والحاكم رقم ٧٨٩٩.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري رقم ٥٢ ومسلم رقم ١٥٩٩، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٤) حديث صحيح، أخرجه الحاكم رقم ٧١٦٢ عن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ، وأخرجه عن جابر ﷺ بنحوه رقم ٧١٦٣، وأخرج نحوه أحمد رقم ١٤٤٨١ عن جابر ﷺ، ونحوه الترمذي رقم ٦١٤ عن كعب بن عجرة ﷺ، وابن حبان رقم ١٧٢٣ عن جابر ورقم ٥٥٦٧ عن كعب.

فَإِنْ أَتَى شَيءٌ بِلا تكْلِيفِ ... اِبْتَدَءُوا بِالجارِ والضَّعِيفِ
وَجَنَّبُوا طَعامَ أَهْلِ الظُّلْمِ ... والبَغْيِ والفَسادِ خَوفَ الإِثْمِ
بَلْ أَكَلُوا مِمّا اسْتَبَانَ حِلُّهُ ... غَيْرَ الذي لا يَعْرِفونَ أَصْلَهُ
وَلَمْ يكونُوا كَرَّهوا الكَلامَ ... عَلَيْهِ، لَكِنْ كَرَّهُوا الإِرْغَامَ[1]
وَيَكْرَهُونَ الأَكْلَ مَرَّتيْنِ ... فِي اليومِ، والمَرَّةَ فِي اليَوْمَينِ

١١. يؤثرون على أنفسهم إذا جاءهم طعام، فيُقَدِّمُون غيرهم، ممن هو أحوج منهم، أو ممن هو عاجز عن الكسب وطلب الرزق، ويكرمون جيرانهم وإخوانهم ومحتاجيهم، وكما كان النبي ﷺ يفعل إذ يُقَدِّمُ أهل الصفة على نفسه.

وكما وصف الله أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨]، ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ ﴾ [الحشر: ٩].

١٢. يجتنبون طعام الظالمين والبغاة والفاسدين، فلا يأكلون طعاماً من غير التقي، لأن ماله قد يكون حراماً، كَسَبَهُ مِن معصية أو عَمَلٍ مُحَرَّمٍ كالربا، أو أَخَذَهُ بغير حَقٍّ ظُلماً وعدواناً، كالسرقة والرشوة والاحتيال أو مِن دَيْنٍ لم يرده لصاحبه.

وقد ذم الله أقواماً بأنهم ﴿ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ ﴾ [المائدة: ٤٢]، ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [النساء: ١٦١]، ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [التوبة: ٣٤].

فإن كان مالُ أحدِ الناسِ كلُّه محرماً، لم يأكلوا من طعامه أبداً، وإن كان ماله مختلطاً حراماً وحلالاً، تركوه تورُّعاً.

والمال الذي لا يعرفون أصله، هل هو حلال أم حرام، يتركونه تورعاً، ويتركون طعام صاحب هذا المال تورعاً، لكثرة الحرام في زماننا، فقد قال ﷺ:

---

(١) الإرغام: الإجبار والإلحاح.

« يأتي على الناس زمان لا يبالي أحدهم ماله من حرام أم من حلال »[١].

١٣. ولا يكرهون الكلام والحديث عند الطعام، بل يستحبونه إذا كان فيه إيناس للضيف، واغتنام للوقت في خير.

١٤. يكرهُون الإجبارَ على الطعام، والإلحاحَ في الزيادة عن طاقة الإنسان ورغبته، ولا يتركون الترغيب به من غير إلحاح ولا حَلْف.

١٥. ويكرهون كثرة الطعام، فيكرهون وجبتين كبيرتين في اليوم، والعبرة في ذلك عدم الإكثار، فقد يأكل الواحد أكثر من وجبة لكنها قليلة، فلا بأس، وقد يأكل وجبة واحدة مُتْخِمَة فيكون مسيئاً.

١٦. ويكرهون مواصلة الصيام ليومين، وترك الطعام مدة طويلة، بحيث يؤدي إلى الضعف والمرض والمخمصة والكسل، فقد نهى النبي ﷺ عن مواصلة الصيام[٢].

وَفَضَّلُوا الجَمْعَ على الإفْرادِ ... فيهِ لأَجْلِ كَثْرَةِ الأَيادِي
وَلَمْ يُلَقِّمْ بعضُهم لِبَعْضِ ... وَلَمْ يُجِلْ بصرَهُ بَلْ يَغْضِي
وَلَمْ يَرَوْا فِيهِ بِالانْتِظارِ ... فَيَذْهَبَ الوقتُ بِلا تَذْكارِ
وَكَرِّهُوا البِطْنَةَ[٣] لِلإِخْوانِ ... فَالبَطْنُ كالوِعاءِ لِلشَّيْطانِ
قالُوا: وَلا يُمْسِكْ يَداً مَا دَامُوا ... في الأَكْلِ، وَلْيَقُمْ مَتى ما قامُوا
وَأَمَرُوا فيهِ بِفَتْحِ البابِ ... وَأَكَلُوا بِالقَصْدِ والآدابِ

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٩٧٧، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) قال ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: « إنك لتصوم الدهر وتقوم الليل؟ فقلت: نعم، قال: إنك إذا فعلت ذلك هجمت له العين [أي غارت، وذلك بسبب شدة النحافة والجوع]، ونفهت له النفس [أي تعبت وكَلَّت، من الإعياء]، لا صام من صام الدهر، صوم ثلاثة أيام صوم الدهر كله، قلت: فإني أطيق أكثر من ذلك، قال: فصم صوم داود عليه السلام، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى » أخرجه البخاري رقم ١٨٧٨.

(٣) البطنة: امتلاء البطن بكثرة الأكل، والسمنة.

وَفَتَحوا البابَ لِكُلِّ سَارِ   وَأَكلوا بِالرِّفْقِ والإِيْثارِ

١٧. يفضلون الأكل مجتمعين على أن يأكل أحدهم منفرداً، طلباً لبركة الاجتماع.

١٨. ليس من أدب الصوفية أن يضع الواحد منهم اللقمة في فم أخيه، فذلك استحبه النبي ﷺ بين الزوجين، وهو مقبول إذا كان من الشيخ لتلميذه على سبيل البركة.

١٩. لا ينظر إلى الآكلين، لئلا يحرجهم، أو يرى ما لا يحب.

٢٠. إذا كان للطعام وقت أو موعد، وتأخر أحد الْمَدْعُوِّين، لم ينتظروه، لئلا يضيعوا أوقاتهم بلا نفع ولا عمل ولا ذكر، فالنفوس تكون متعلقة بالطعام عندئذ.

ولا بأس بالانتظار القليل، أو مراعاة بعض الأكابر كالآباء والعلماء والولاة الصالحين.

٢١. يكرهون إدخال الطعام على الطعام، والإكثار الدائم من الطعام، المؤدي إلى السمنة، فذلك يعين الشيطان ويقويه على الإنسان، «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[(١)].

وقال ﷺ : « مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنٍ »[(٢)].

وقد بين النبي ﷺ أن الأكل الكثير من شأن الكافر، فقال ﷺ : « يأكل المسلم في مَعِيٍّ واحد، والكافرُ يأكلُ في سبعة أَمْعاء »[(٣)].

٢٢. وإذا شبع الواحد لم يترك الأكل، بل يتظاهر أنه يأكل معهم، فيأكل ولو شيئاً يسيراً، ليشبع الجميع.

ولا يقوم عن الطعام حتى ينتهوا جميعاً، حتى لا يُحْرِجَ الآخرين ممن لم يشبع.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٣١٠٧ ومسلم رقم ٢١٧٥.

(٢) سبق تخريجه وتمامه.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٠٨١ عن أبي هريرة ﷺ ونحوه مسلم رقم ٢٠٦٠ عن ابن عمر رضي الله عنهما، وروي بلفظ: « المؤمن » بدل « المسلم »، وروى مسلم رقم ٢٠٦٣ عن أبي هريرة ﷺ أن سبب الحديث أن رجلاً كان كافراً فشرب وشرب كثيراً، ثم أسلم فلم يشرب سُبُعَ ما كان يشربه من قبل، وبمعناه البخاري رقم ٥٠٨٢.

٢٣. إذا جلسوا للطعام لم يغلقوا الأبواب، ولم يخلوا عن المارَّة والمسافرين، بل يفتحون الأبواب، ويحبون إكرام الناس، ويرغبونهم في مشاركتهم، ويدعونهم إلى طعامهم.

٢٤. يأكلون أكلاً متوسطاً معتدلا، فيأكلون ببطء وبغير شَرَهٍ وسرعة، ويُصَغِّرون اللقمة، ويُطِيلُون المضغ.

٢٥. يأكلون بترفق وإيثار للجالسين على الطعام، فلا يسرعون في الأكل، فيأكلون حاجتهم وينتهي الطعام، وغيرهم لم يأخذ حاجته، بل يأكلون بما يراعي قدر الطعام وكثرة الآكلين، بحيث يأخذ كل آكل نصيباً مساوياً للآخر، أو يؤثر إخوانه، فيأكل أقل منهم.

٢٦. يتأدبون بجميع الآداب الواجبة والمسنونة في طعامهم وشرابهم، كالتسمية قبل الطعام، والحمد بعده، والأكل باليمين، ومما يَلِيه، وغسل اليدين قبل الطعام وبعده، والمضمضة بعده، وإكرام الضيف وجائزته، وعدم المفاخرة بالطعام(١).

---

(١) انظر آداب الطعام والشراب وتفاصيلها وأدلتها، في كتاب التزكية على منهاج النبوة، الفصل الثاني من الباب الرابع، الأخلاق والآداب، ص ٤٨١ وما بعدها. **ومن أهمها**: أن ينوي به نية صالحة، كالتقوِّي على طاعة الله، وأن يكون طعامه حلالاً طيباً، لا حراماً، ولا خبيثاً، ولا شبهة فيه، وأن يعتدل في الأكل والشرب، فلا يأكل ما يضره، وأن يتجنب التَجَشُّؤَ أمام الناس، وأن لا يتقوى بالطعام على الظلم والإفساد والمعصية، وأن لا يأكل أكل المترفين وجالساً جِلْسِة المتكبرين، وأن لا يمتنع عن الأكل مع أهله وأولاده وخادمه والفقراء، وأن لا يأكل ولا يشرب بملاعقَ وصحونٍ وكؤوسٍ وأدواتٍ من ذهب أو فضة، وأن لا يأكل بِنَهَمٍ وشَراهَةٍ واستعجال، وأن لا يتنفس وينفخ في الطعام والشراب والآنية، وأن يجتنب الطعام الذي تصدر عنه رائحة كريهة، كالثوم والبصل، عند مخالطة الناس، وأن يراعي أذواق الناس في الطعام فلا يَذُمُّه أو يَعِيبُه، وأن يغسل اليدين قبل الأكل وبعده، وأن يغطي الطعام والشراب ويحفظه مما يُغَيِّرُه، وأن لا يخص الأغنياء بالدعوة إلى الطعام دون الفقراء، وعدم تأخير الطعام انتظاراً لغائب إلا أن يكون كبيرَ المجلس كالعالِم والأمير والأبوين، وعدم البدء بالطعام حتى يبدأ به كبيرُ القَدْرِ أو السِّنِّ، وأن يذكر اسم الله عند بداية الأكل أو الشرب، ويحمد الله إذا انتهى منه، وأن يشكر مَن أطعمه وسقاه من الناس، وأن يأكل من الطعام القريب منه، مِن جِهَتِه، وأن يأكل ويشرب باليد اليمنى، إذا كان مستطيعاً، ويستحسن الشرب جالساً، وإن شرب واقفاً فلا بأس، وأن لا يُلقِي شيئاً من الطعام مهما كان قليلاً، حتى ما يبقى في الإناء أو على الأصابع، وعدم وضع بقايا الطعام التي تخرجها من فمك؛ مع الطعام النظيف في إناء واحد.

المبحث الخامس
الأدب عند الصوفية

وَلِلطَّرِيقِ ظاهِرٌ وَباطِنْ يُعْرَفُ مِنهُ صِحَّةُ البَواطِنْ
ظاهِرُهُ الآدابُ والأَخْلاقُ مَعَ كُلِّ خَلْقٍ مَا لَهُ خَلاقُ(١)
باطِنُهُ مَنازِلُ الأَحْوالِ مَعَ المَقاماتِ لِذِي الجَلالِ
والأَدَبُ الظّاهِرُ لِلْعَيانِ دَلالَةُ الباطِنِ في الإِنْسانِ
وَهْوَ أيضاً لِلْفَقيرِ سَنَدُ وَلِلْغَنِيّ زِينَةٌ وَسُؤْدَدُ
وَقِيلَ: مَنْ يُحْرَمُ سُلْطانَ الأَدَبْ فَهْوَ بَعِيدٌ ما تَدانَى وَاقْتَرَبْ
وَقِيلَ: مَنْ تَحْبِسُهُ الأَنْسابُ فَإِنَّما تُطْلِقُهُ الآدابُ
والقومُ بالآدابِ حَقّاً سَادُوا مِنْهُ اسْتَفادَ القومُ ما اسْتَفادُوا

مقدمة في الأدب

الأخلاق لها شأنها العظيم عند الله، لذلك مدح الله بها نبيه ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وشهد له ﷺ بها أصحابه المقربون، فقال أنس بن مالك ﷺ: « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً »(٢).

وقالت عائشة رضي الله عنها: « فإن خُلُقَ نبيِّ اللهِ ﷺ كان القرآنَ »(٣).

(١) ما له خَلاق: أي ليس له نصيب من الخير.
(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٨٥٠ ومسلم رقم ٦٥٩ و ٢١٥٠، عن أنس ﷺ .
(٣) أخرجه مسلم رقم ٧٤٦.

ومن لم يكن صاحب أدبٍ ظاهرٍ مع الخلق، فذلك دليلُ نقصٍ في إيمانه، كما قال ﷺ : «أَكْمَلُ الْمُؤمنِينَ إِيمَاناً أَحسَنُهُم خُلُقاً، وخيارُكُم خِيَارُكُمْ لِنسَائِهِمْ»(١)، وقال ﷺ : «خياركم خياركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»(٢).

والصوفي والسالك إلى الله يَقْوَى سُلوكُه بخُلُقِه، فالخُلُق جزء مهم من السلوك إلى الله، بل ربما يَنال بِحُسْنِ الخُلُق ما لا يناله بالعبادات، كما قال ﷺ : « إن الرجلَ لَيُدْرِكُ بحُسنِ خلُقه درجةَ الصائم القائم »(٣).

وقد قيل: التصوف كله أدب، وقال الجنيد: طريقتنا كلها آداب.

وهاهنا بَيَّنَ الناظِمُ أهميةَ الأدب.

وبين أن التصوف والسلوكَ إلى الله يعتني بالظاهر والباطن، وبآداب الظاهر وآداب الباطن، ووجود الأدب في الظاهر يدل على وجود أدب في الباطن، فإن فسد باطنه لا بد أن يظهر الفساد والخطأ على ظاهره.

قال تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠].

وقال ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغةً، إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب »(٤).

ومن كان باطنه سليماً كتب الله له القبول بين الناس(٥).

---

(١) حديث صحيح، أخرجه عن أبي هريرة ﷺ أحمد في مسنده رقم ١٠١١٠، والترمذي رقم ١١٦٢، وابن حبان رقم ٤١٧٦، ولفظ أحمد وابن حبان: لنسائكم، بدل: لنسائهم.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٣٨٩٥ و ابن حبان رقم ٤١٧٧ عن عائشة رضي الله عنها، وابن ماجه رقم ١٩٧٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٤٧٩٨، عن عائشةَ رضيَ الله عنها، وأخرجه أحمد رقم ٢٤٦٣٩ بلفظ: « ... درجات قائم الليل جائع النهار ».

(٤) أخرجه البخاري رقم ٥٢ ومسلم رقم ١٥٩٩، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٥) فإن الله لا يقبل إلا صالحاً سليماً، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مَن أحبَّه الله كتب له القبول عند الملائكة وفي الأرض.

فالأدب **الظاهر** هو الأدب مع الناس، وهو الذي يُعرَفُ **بالأخلاق** والآداب، ويدخل فيه: **الصدقُ** ، **والأمانة** ، **والعدل** ، **والتواضع** ، **والعفة** ، **والكرم** ، **والصبر** ، **والرحمة** ، **والحياء** ، **والشجاعة.**

ويدخل فيه آداب الأخوة وحقوقها وآداب البر والصلة وآدابُ اللباس والطعام والنوم والاستئذان وآداب الطريق والسفر وآداب التعامل المالي، وغيرها.

والصوفي يتأدب مع كل إنسان، حتى مع مَن لا نصيب له من الخير، كما أمر الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

والأدب **الباطن** هو الأدب مع الله، وهو الذي يُعْرَف بالأحوال **والمقامات**، ويدخل فيه: **الإيمان** ، **والإنابةُ** **واليقظة والإقبال** ، **والتوبة** ، **والزهد** ، **والحب** ، **والخوف والخشية** ، **والرجاء** ، **والصبر** ، **والشكر** ، **والتسليم والرضا** ، **والاستقامة** ، **والتوكل** ، **والإخلاص** ، **والعبودية والتواضع** ، **والمراقبة** ، وكل ذلك مبني على الإيمان بالله العظيم الجليل ﷻ.

وإذا كانت هذه الصفات ضعيفة، تذهب وتجيء، تظهر وتخفى؛ سميت **أحوالاً**، لأنها تتحول عند صاحبها، وإذا استقرت ودامت سميت **مقامات**، لأنها أقامت عند صاحبها.

والأحوال تتمكن وتدوم بالمجاهدة ودوام الذكر وكثرة الطاعات.

كما يطلق الحال على ما يَحُلُّ في القلب ثم يرتحل، وهو أمر لا يطلع عليه إلا الله، مما هو نفحة ربانية تنفع صاحبها في وقتها، وتترك أثراً طيباً في نَفْسِ الإنسان وسُلُوكه، وتَبْقَى عِلماً وذَوقاً يستحضره.

والفقير الذي لا يملك مالاً يُسْعِفُه خُلقُه وأدبه، فيحبه الناس لأجله ويكرمونه، والغني مفتقر إلى الأخلاق، ويزداد بالخلُق مكانة وسيادة وجمالاً، ولو كان سيء الخلُق لما كان لماله قيمة.

ومن أمثال العرب: ما قيل: (مَن يحرمُ سلطان الأدب؛ فهو بعيد ما تدانى واقترب)، فمن كان خالياً من الآداب؛ فإنه مذمومٌ عند الناس بعيدٌ عن قلوبهم مهما حاول أن يَتَقَرَّبَ

أو كان قريب النسب أو كان غني المال، وسمي الأدب سلطاناً لأنه يحكم على صاحبه في تصرفاته، فيضبطه ويمنعه من النقائص، ويجعله مقدماً عند الآخرين فهو مُقَدَّم كالسلطان.

وقيل في الأمثال: (من تحبسه الأنساب؛ فإنما تطلقه الآداب)، فمن لم يكن له جاه ولا حسب ولا نسب؛ يرفعه عند الناس أدبه، فيبلغ به رتبة أهل الشرف والسؤدد.

والصوفية قد تميزوا بآدابهم، ومن التزمها منهم مُدِحَ بها وكان له رِفْعة وشرف وعِزَّة، والتزامهم آداب الباطن والظاهر هو الذي قدمهم عند الله وعند الخلْق، فكانوا محسنين.

والأدب هو اتباع أمر الله، ومن اتبع أمر الله فقد انتسب إليه وصار ربانياً، ومَن انتسب إلى الله عَزَّ، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨].

ثم ذكر الناظم أهم آداب الصوفية في لقاءاتهم واجتماعاتهم، فقال:

إِذْ نَصَحُوا الأَحْداثَ والأَصاغِرْ ... وَحَفِظُوا السّادَاتِ والأَكابِرْ[١]
وَاْجتَنَبُوا ما يُؤْلِمُ القُلُوبَا ... وَاْبتَدَرُوا الواجِبَ والمَنْدُوبَا
وَخَدَمُوا الشُّيُوخَ وَالإِخْوانا ... وَبَذَلُوا النُّفُوسَ والأَبْدانا
وأَنْصَتُوا عِندَ المُذَاكَرَات ... وَاْحتَرَمُوا الماضِيْ مَعاً والآتِ
وَسَأَلُوا الشيوخَ عَمّا جَهِلُوا ... وَوَقَفُوا مِنْ دُونِ ما لَمْ يَصِلُوا
وَعَمِلُوا بِكُلِّ ما قَدْ عَلِمُوا ... وَآثَرُوا وَاْغتَفَرُوا واْحتَشَمُوا[٢]
وَاْحتَكَمُوا بِالعَدْلِ والإِنْصافِ ... فَوَرَدُوا كُلَّ مَعِينٍ صَافِ

١. ينصحون الصغير والحَدَث، فيغرسون فيهم الأدب وحب الخير، ويذكرونهم بالحق حتى لا يَغُشَّهم أحدٌ، والأصاغر في السلوك: المبتدئون الذين لم يعلموا الطريق والسلوك جيداً

(١) الأحداث: الصِّغار، جمع حَدَث، سمي بذلك لأنه لا ثَبات له، إذ لا يميز الأمور، يُغَشُّ بما يراه، رَأْيٌ يأخذه ورأيٌ يُغَيِّره.
(٢) اغتفروا: سامحوا، احتشموا: احتجبوا عن المنازعات والمشاجرات، وترفعوا عنها.

بعدُ، والحدث في السلوك: من لم يَستقِر على المنهج، بل ما زال متردداً أو متشككاً أو جاهلاً حقيقته، فيَدُلُّونَه ويُثبِّتونَه على الحق، **فالدين النصيحة.**

٢. يحفظون حُرْمة الشيوخ والمربين والعلماء والأولياء والزُّهاد والعُباد والكبار، ويتأدبون معهم، ويحسنون الظن فيهم، قال ﷺ: « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا »[(١)]، وقال ﷺ: « ليس من أمتي من لم يُجِلَّ كبيرنا، ويَرحم صغيرنا، ويَعرف لِعالِمِنا حقَّه »[(٢)]، وقال ﷺ: « قوموا إلى سيدكم سعد »[(٣)]، ومن هذه الحُرمَةِ أن نَرُدَّ الأمر إلى أهل الاختصاص، قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ [النساء: ٨٣].

٣. لا يتكلمون كلاماً ولا يتصرفون تصرفاً يؤذي الناس ويُوغِر صدورهم ويُؤلِمُ قلوبهم، قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحجرات: ١٠-١٢].

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ١٩٢١ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال حديث حسن صحيح، وأخرجه بمعناه أحمد رقم ٧٠٧٣ وأبو داود رقم ٤٩٤٣ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، والحاكم رقم ٧٣٥٣ عن أبي هريرة ﷺ، وبعضهم بلفظ: « حَقَّ كَبِيرِنَا ».

(٢) حديث حسن، أخرجه أحمد رقم ٢٢٨٠٧ عن عبادة بن الصامت ﷺ، وأخرجه الحاكم رقم ٤٢١ بلفظ: « ليس منا ... ».

(٣) عن أبي سعيد الخدري ﷺ يقول: « نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل النبي ﷺ إلى سعد، فأتى على حمار، فلما دنا من المسجد قال ﷺ للأنصار: قوموا إلى سيدكم أو خيركم ». جزء من حديث، أخرجه البخاري رقم ٣٨٩٥، وقد كان سعدٌ مصاباً، فأمر النبي ﷺ أصحابه بأن يقوموا ليعاونوه واحتراماً له.

وقال ﷺ : « إياكم والظَّنَّ، فإن الظن أكذبُ الحديث، ولا تَحَسَّسُوا، ولا تَجَسَّسُوا[١]، ولا تناجشوا[٢]، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا[٣]، وكونوا عباد الله إخواناً »[٤]، « ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام »[٥].

وقال ﷺ : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يظْلِمُه، ولا يُسْلِمهُ، منْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخيهِ كَانَ اللّٰهُ فِي حاجتِهِ، ومَنْ فَرَّج عنْ مُسْلِمٍ كُرْبةً فَرَّجَ اللّٰهُ عنْهُ بِهَا كُرْبَةً[٦] مِنْ كُرَبِ يوْمَ الْقِيامَةِ، ومَنْ ستر مُسْلِماً سَتَرَهُ اللّٰهُ يوْم الْقِيامَةِ »[٧].

وقال ﷺ : « ولا يَحْقِرُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، التَّقْوَى هَاهُنا ـ ويُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مرَّاتٍ ـ بِحسْبِ امْرِيءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِر أَخاهُ المسلمِ، كُلَّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حرامٌ دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ »[٨].

وقال ﷺ: « ولْيَأْتِ إلى الناسِ الذي يُحِبُّ أن يُؤْتَى إليه »[٩].

ومن عمل بهذه النصوص كان قائماً بِأَهَمِّ حُقوق الأُخُوَّة الإسلامية، وكانت معاملته أحسن معاملة وأروعها.

---

(١) (التحسس): قال الخطابي عن أصل كلمة التحسس: « وَأَصْل هَذِهِ الْكَلِمَة الَّتِي بِالْمُهْمَلَةِ مِنْ الْحَاسَّة إِحْدَى الْحَوَاسّ الْخَمْس، وَبِالْجِيمِ [أي التجسس] مِنْ الْجَسّ بِمَعْنَى اِخْتِبَار الشَّيْء بِالْيَدِ وَهِيَ إِحْدَى الْحَوَاسّ، فَتَكُون الَّتِي بِالْحَاءِ أَعَمَّ »، وقال بعض العلماء: هما بمعنى واحد، فتكون للتأكيد، وقيلَ: بِالْجِيمِ الْبَحْث عَنْ عَوْرَاتهمْ، وَبِالْحَاءِ اسْتِمَاع حَدِيث الْقَوْم.

(٢) (النَّجَش): أَنْ يزِيدَ فِي ثَمَنِ سلْعةٍ يُنَادِي عَلَيْهَا فِي السُّوقِ ونحْوِهِ، ولا رَغْبةَ لَه فِي شِرائِهَا، بَلْ يقْصِد أَنْ يَغُرَّ غَيْرهُ، وهَذا حرامٌ، والمال الذي يحصله لنفسه أو يوفره على غيره بالنجش؛ مال حرام.

(٣) (التدابر): أن يُدِيرُ الإنسان دُبَرَه لأخيه؛ وهو كناية عن الإعراض والاحتقار والمُعاداة.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٥٧١٩ ومسلم رقم ٢٥٦٣، عن أبي هريرة ﷺ، وزاد مسلم: « ولا تنافسوا ».

(٥) أخرجه البخاري رقم ٥٧١٨ ومسلم رقم ٢٥٥٩، عن أنس بن مالك ﷺ.

(٦) (كربة): أي مصيبة من مصائب الدنيا، تجعله مهموماً مغموماً، مشغول الفكر.

(٧) أخرجه البخاري رقم ٢٣١٠ ومسلم رقم ٢٥٨٠ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٨) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤ عن أبي هريرة ﷺ.

(٩) أخرجه مسلم، ومعناه: فليتصرف مع الناس كما يحب أن يتصرف الناس معه، حُسْنَ ظَنٍّ، واحتراماً، وإكراماً.

٤. يسارعون إلى القيام بالواجبات، ولا يتأخرون عن المندوبات، من الأعمال والعبادات والمعاملات، ويؤدونها على حقها وكمالها، ويتعاونون فيها.

٥. يخدمون مشايخهم وإخوانهم، ولا يتكبرون عن الخدمة والمعاونة، قال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢].

وقال ﷺ : «من كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته»(١)، فمن مشى في قضاء حوائج إخوانه، أعانه الله تعالى وسهل له قضاء حوائجه.

٦. يبذلون نفوسهم وأبدانهم، فنِيّاتُهم لله، وأبدانُهم في العمل والطاعةِ لله، لا يبخلون بأنفسهم أن يضحوا بها في سبيل الله، ولا يبخلون بجهد ولا وقت ولا مال في أمر الله.

٧. يُنْصِتون عند الْمُذاكرة والْمُحادثة والسؤال والجواب، فلا يقاطع بعضهم بعضاً، ولا يشوش بعضهم على بعض.

٨. يحترمون المسلمين ممن مضى من السلف، فلا يخوضون فيهم، ولا يذكرونهم بشر، وقد تركوا الدنيا وأقبلوا على حساب أعمالهم.

قال ﷺ : « لا تَسُبُّوا الأمواتَ، فَإِنَّهُمْ قد أفْضَوْا إلى ما قَدَّموا »(٢).

وقال ﷺ: « لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدَكم أنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذهباً، ما بَلَغَ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه »(٣).

ويحترمون كل مسلم، لما عنده من الإيمان والتوحيد، وتزداد حرمةُ كلِّ أحدٍ بحسب صلاحه وطاعته وبُعْدِه عن المعصية.

---

(١) سبق تخريجه آنفاً.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٣٢٩ عن عائشةَ رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٣٤٧٠ ومسلم رقم ٢٥٤٠ عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وهذا الحديثُ خطاب لأحد الصحابة الذين أسلموا متأخراً، مقارنة بأحد الصحابة الذين أسلموا مبكراً، فهذا إذا تصدق بقدر ملء الكفين فأجره أكبر من أجر المتأخرين إذا تصدقوا بقدر جبل أُحُدٍ من الذهب، فكيف بنا في جنبهم.

٩. يسألون أهل العلم فيما جهلوا، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣]، وقال ﷺ : « أَلاَ سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ »(١).

١٠. ولا يخوضون في شيء لا يعلمونه، رداً ولا إثباتاً،﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فيتوقفون إلى أن يعلموا ويتثبتوا، ولا ينكرون شيئاً لا يعلمون حقيقته وحكمه.

١١. يعملون بكل ما تعلموا، من العلوم التي يقصد منها العمل، فالعمل هو المقصود، ومن تعلم علماً من علوم العمل، ثم لم يعمل به، فهو حجة عليه، «القرآن حجة لك أو عليك»(٢).

ولا ينبغي أن يغتر بالعلم بلا عمل ولا إخلاص، فهو جاه في الدنيا لكنه عذاب في الآخرة، وقد أخبر النبي ﷺ أن من الثلاثة الذين تسعر بهم النار: عالم مُعَلِّمٌ لكنه غير مخلص ولا صادق(٣).

١٢. ويؤثرون الآخرين بما آتاهم الله من مال ودنيا، ويؤثرون إخوانهم بالمجلس الأفضل، ويتنافسون معهم على الآخرة.

١٣. يغفرون لإخوانهم زلاتهم ويسامحونهم في حق أنفسهم، ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٣٣٦ عن جابر ﷺ، والحاكم رقم ٦٣٠ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وهذا نصه في أبي داود: قَالَ جابر: « خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلاً مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ، فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أُخْبِرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: قَتَلُوهُ، قَتَلَهُمُ اللَّهُ، أَلاَ سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ - أَوْ يَعْصِبَ - عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ ». العي: العجز عن الإجابة الصحيحة.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٢٣، عن أبي مالك الأشعري ﷺ.

(٣) أخرج مسلم رقم ١٩٠٥، عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد... ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأُتي به، فَعَرَّفَه نِعَمَه، فعرَفَها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله...».

١٤. يحتشمون ويحتجبون ويترفعون عن المنازعات والمشاجرات، فالمسامحة بحقوقهم أحب إليهم من المنازعة والمقاضاة لأجلها، فيسامحون من يحسنون الظن به، ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور: ١٢].

ويُعرِضون عن الجاهل ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ويتركون الجدال، فإنه « مَنْ ترك الْمِراءَ وهو مُحِقٌّ بني له بيت في وسط الجنة »[١]، وقال ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل »[٢]، وقد ذم الله الجدال بقوله: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤].

١٥. يعدلون ولا يظلمون، ولا يأكلون حق غيرهم، يعدلون في المعاملة والتصرف والمال والكلام والشهادة، ويُنصِفون ولا يَحيفون ولا يَميلون، ولا يتعصبون لمن يحبون، ولا يدافعون عن باطل، ولا يَتهمون بالشك مَن لا يُحبون، ولا يبخسون الناس أشياءهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

فبلغوا بهذه الأخلاق والآداب صفاء القلب وصلاح الحال، إذ تحققوا بالأخذ من المعين الصافي؛ شريعةِ الإسلام.

---

(١) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ١٩٩٣ وابن ماجه رقم ٥١، عن أنس بن مالك ﷺ .

(٢) حديث حسن، أخرجه أحمد رقم ٢٢٢١٨ والترمذي رقم ٣٢٥٣، عن أبي أمامة ﷺ.

وَبَعْضُهُمْ كانَ لِبَعْضٍ عَوْنا ... يَلْقَى لَدَيْهِ دَعَةً[١] وَأَمْنَا
يَنْصرُهُ في الحقِّ حَيثُ كانا ... فَإنْ أَسَا قارَضَهُ إِحْسانا
وَلَيْسَ حَظُّ الرَّأْسِ مِنْ آدابِهِ ... بَلِ الصَّوابُ كانَ في اْجْتِنابِهِ
إذْ كان مَبْنِيّاً على القِصاصِ ... لِمَنْ أرادَ حِسْبَةَ الخَلاصِ[٢]
وَلَيْسَ في قِيامِ الاِسْتِغْفارِ ... أَصْلٌ صحيحٌ واصْطِلاحُ جارِ
والقَصْدُ مِنْ هذا الطَّرِيقِ الأَدَبُ ... في كُلِّ حالٍ مِنْهُ؛ هذا المَذْهَبُ

١٦. يتعاونون في الحق والخير، ويدل بعضهم بعضاً على الخير، قال تعالى: ﴿ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد »[٣].

وقال ﷺ : « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »[٤].

١٧. يجد عند أخيه راحة وأمناً، لا يخاف من أخيه ظلماً ولا إساءة ولا ترويعاً.

قال ﷺ : « لا يُسْلِمُه ولا يَظلمه ولا يَخْذُلُه »[٥].

وقال ﷺ: « لا يحل لمسلم أن يُرَوِّعَ مُسلماً »[٦]، بل يجد فيه أنساً وملجأً.

---

(١) دَعَة: راحة وسكوناً واطمئناناً.

(٢) القصاص: قتل القاتل، أو جَرْح الجارح، أو عقوبته بمثل ما فعل. أراد حسبة الخلاص: أراد الخلاص والتحلل من ذنبه، محتسباً ذلك عند الله لينجو من ذنبه.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٦٦٥ ومسلم رقم ٢٥٨٦، عن النعمان بن بشير ﷺ.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٢٦٩٩، عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٥٠٠٤ وأحمد رقم ٢٣١١٤، عن أصحاب رسول الله ﷺ، والحاكم نحوه رقم ٥٧٧٨ عن زيد بن ثابت ﷺ. وفي بعض روايات الحديث أن نائماً أخذوا حبله أو نبله وهو نائم فاستيقظ، ففزع، فضحكوا، فقال النبي ﷺ ذلك.

١٨. ينصر أخاه في الحق، ويكون عوناً في الدفاع عنه وفي تحصيل حقوقه، قال ﷺ : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً »(١).

١٩. ينصر أخاه إن أساء، بِرَدِّهِ إلى الحق، وحَجْزِه عن الباطل، وعونِه على رد الحقوق.

ثم نبه الناظم رحمه الله إلى مسألتين ظهرتا عند بعض الصوفية، فبين أنها عادات ليست مقررة عند أهل التصوف ومحققيه:

فقد جرى عند بعض الصوفية: أن يقف المسيء أمام من أساء إليه وينكس رأسه، فبين الشيخ أن ذلك ليس من آداب التصوف، بل الصواب اجتناب ذلك، والمطلوب طلب المسامحة ورد الحقوق فحسب، ولا حاجة لهذا التصرف، وبين الشيخ أن ذلك دخل على الصوفية من صورة القصاص، فالقاتل يحني رأسه أمام أهل القتيل، إظهاراً لاستسلامه ليقتصوا منه إن شاؤوا.

وجرى عند بعض الصوفية القيام إذا أراد أن يطلب المسامحة، وذلك أيضاً غير مطلوب، فليس لذلك دليل شرعي ولا قَبِلَ ذلك الصوفية، ولا جعلوه اصطلاحاً ولا عرفاً جارياً عندهم.

وطريق التصوف كله آداب، فهذا مذهب التصوف، فالأدب مع الله عبادتُه والخضوع له وطاعته والإخلاص له، والأدب مع الناس جزء من عبادة الله، فهو سبحانه أَمَرَ بذلك، فالآداب هي أحكام الشريعة، ما وَجَبَ منها وما نُدِب.

(١) أخرجه البخاري رقم ٢٣١٢ وأخرج مسلم نحوه رقم ٢٥٨٤ وفيه: « إن كان ظالما فلينهه فإنه له نصر ».

المبحث السادس
حُكْم السَّماع وآدابه

مُقدِّمةٌ أُولى: في الكلام

أمرنا الله تعالى بإصلاح اللسان والكلام، وبين أن للشيطان مدخلاً إلى الإنسان بسبب الكلام الباطل والسيء، فقال سبحانه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وحذرنا النبي ﷺ أن الإنسان قد يتكلم بالكلمة ولا ينتبه إليها فتكون سبباً في عذابه، قال ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يَزِلُّ بها في النار أبعدَ مما بين المشرق»(١).

وإصلاح الكلام سبيل لإصلاح النفس كلها، فقد تكفل الله تعالى لمن يتقي الله ويُصلحُ لسانه أن يُصْلحَ له سائر أعماله، قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، فقوله: ﴿ يُصْلِحْ ﴾ جوابُ شرطٍ متضمَّن من معنى الكلام السابق: أي إن تتقوا الله وتقولوا القولَ السديدَ يُصلحْ لكم أعمالكم.

وأكثر معاصي الناس في كلامهم، لذلك كان الكلام عائقاً عن تزكية النفس، فالكلام الخاطئ يُفسِد حال الإنسان مع الله، ويسيء إلى عباد الله، لذلك نبهنا النبي ﷺ إلى أنه أعظم سبب لدخول النار، فقد سُئِلَ عن أَكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: « الفَمُ وَالفَرْجُ »(٢).

وقال ﷺ بعد أن ذكر أهم أبواب الخير لمعاذ بن جبل ﷺ: « أَلا أُخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذَلِكَ

(١) أخرجه البخاري رقم ٦١١٢ ومسلم رقم ٢٩٨٨ عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٢٠٠٤ عن أبي هُريرة ﷺ، وقال: صحيح غريب، وأخرجه ابن حبان والحاكم وصحح إسناده.

كُلِّه، قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ، فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، **وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**؟ »(١).

ولما كانت أكثر ذنوب الناس في الكلام والشهوات، فمن تخلص منهما صار حاله صالحاً، وكأنه تخلص من الذنوبِ كلِّها، وصار أهلاً لدخول الجنة لذلك قال ﷺ: « مَن تَوَكَّلَ لي ما بين رجليه وما بين لَحْيَيْهِ، توكَّلْتُ له بالجنة »(٢).

وشأن المؤمن والمحسن أن ينشغل بالكلام الطيب والذكر والقرآن والعلم عن معاصي اللسان، حتى إنه لا يقبل على نفسه أن يتكلم كلاماً لا معنى له ولا فائدة منه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣].

وما حَرُمَ كلامُه حَرُمَ سماعُه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ [القصص: ٥٥].

وعلى ضوء هذا يجب أن نتعامل مع هذا المبحث.

مقدمة ثانية: في الأغاني والأناشيد والمعازف

السماع مصطلح يُطلق على كل ما تستمعه الأذن مما تستلذ به وتطرب له، وغلب إطلاقه على الأناشيد والأغاني والمعازف(٣).

والأغاني والأناشيد هي ترنيم الشعر بصوت جميل ولحن جميل، وحكمها يرجع إلى أمرين: المعنى، والنَّغَم.

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٥٤١ وقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وأخرجه الحاكم رقم ٣٥٤٨ وصححه على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٨٠٧، عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

(٣) وبعض العلماء يجعل هذا المصطلح شاملاً لسماع القرآن والذكر، لكنه في كلام الشيخ الناظم يقتصر على ما ذكرنا.

الأول: معنى الأغنية والشعر الذي يقوله، فإن كان حقاً وصدقاً وخيراً ونافعاً فهو جائز، وحكمه حكم سائر الكلام.

قال رسول الله ﷺ : «**الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام**»(١).

فما كان من الكلام محرماً فهو محرم إن كان شعراً، وما كان من الكلام مكروهاً فمكروه في الشعر، وما كان من الكلام جائزاً فجائز، وإذا كان الكلام الذي في الشعر واجباً فهو واجب، وإنْ مندوباً فمندوب، فينطبق عليه نصوص الشرع التي تأمرنا بالكلام الحق الحسن، وتنهانا عن الكلام الباطل والمعصية.

وقد سمع النبي ﷺ الشعر، ومدحه، فقال: « إن من الشعر حكمة »(٢).

وأمر ﷺ حسانَ بن ثابت ﷺ أن يقول الشعر في مسجده ﷺ في مدح النبي ﷺ والدفاع عنه ﷺ.

وأمر ﷺ بأن يُجعَلَ له منبرٌ ليقول الشعر عليه(٣).

وقد مدح النبي ﷺ بعض الشعر، كمدحه مقولة لبيد، قال النبي ﷺ: « أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل »(٤).

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٨٦٥ عن عبد الله بن عمرو، وروى رقم ٨٦٦ عن عائشة رضي الله عنها قالت: « الشعر منه حسن، ومنه قبيح، خذ بالحسن، ودع القبيح ».

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٧٩٣ عن أبي بن كعب ﷺ.

(٣) أخرج مسلم رقم ٢٤٨٥ عن أبي هريرة « أن عمر مرَّ بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: أجب عني، اللهم أيده بروح القدس، قال: اللهم نعم » وأخرجه البخاري رقم ٤٤٢ مختصراً، وليس فيه ذكر المسجد، لكن جعل ترجمة الباب: « باب الشعر في المسجد ». وفي رواية عند الترمذي رقم ٢٨٤٦ وأبو داود رقم ٥٠١٥ والحاكم رقم ٦٠٥٨ عن عائشة قالت: « كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر ـ أو ينافح ـ عن رسول الله ﷺ... ».

(٤) أخرج البخاري ٥٧٩٥ عن أبي هريرة ﷺ، وتتمته: « وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم ».

واستحب شِعر الثَّناء على الله، فقَالَ ﷺ: « أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْمَحَامِدَ »[(١)].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ [الشعراء ٢٢٤-٢٢٧]. فذم اللهُ شِعرَ الكفار والغافلين والكاذبين[(٢)]، ثم استثنى من الذم الشعر الصالح الصادق الطيب، الذي يقوله المؤمنون الصالحون، الذي ينتصرون فيه لدينهم الحق ويذكرون الله.

فلا بأس بالشعر وغنائه في معاني طيبةٍ تُذَكِّر بالله وصفاته وتعظيمه وحبه، أو تذكِّر بوصف رسوله ﷺ وبيان قَدْرِه ووجوب حبه وطاعته، أو تذكِّر بواجبات المؤمن وصفاته، ونحو ذلك.

وقد يصير الشعر وغناؤه واجباً إذا كان سبيلاً لتحقيق واجب، كأن يكون سبباً في زيادة حب الله ﷻ وحب رسول الله ﷺ وتذكير الناس بما هو خير.

وما ورد من نصوص تذم الشعر[(٣)]، فقد حملها الفقهاء على الشعر المذموم في الآية، وهو الشعر الفاسد المعنى والذي يدخل في اللغو والباطل.

---

(١) عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ قَالَ: كُنْتُ شَاعِراً، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: أَلاَ أُنْشِدُكَ مَحَامِدَ حَمِدْتُ بِهَا رَبِّي؟ قَالَ: أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْمَحَامِدَ، وَلَمْ يَزِدْنِي عَلَيْهِ. أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٨٦١ ونحوه ٨٥٩ وأحمد رقم ١٥٦٧١، وهو حديث حسن.

(٢) وقد ذكر البخاري في صحيحه في باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه؛ ذكر هذه الآية ثم ذكر قول ابن عباس تعليقاً مبيناً مَن هُم الذي ذَمَّ اللهُ شعرَهم، قال ابن عباس: في كل لغو يخوضون.

(٣) كقول النبي ﷺ « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يَرِيَه؛ خير له من أن يمتلئ شعراً »، أخرجه البخاري رقم ٥٨٠٢ عن ابن عمر رضي الله عنهما ورقم ٥٨٠٣ عن أبي هريرة ﷺ، ومسلم أرقام ٢٢٥٧ و ٢٢٥٨ و ٢٢٥٩ عن أبي هريرة ﷺ وسعد ﷺ وأبي سعيد الخدري ﷺ، وقولُه: « يريه »: أي يُمرِضُه ويفسد جوفه. وكالذي أخرجه الترمذي رقم ٣٢٢ وغيره عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه « نهى عن تناشد الأشعار في المسجد، وعن البيع والاشتراء فيه، وأن يتحلق الناس يوم الجمعة قبل الصلاة »، وأخرجه أبو داود رقم ٤٤٩٠ عن حكيم بن حزام بلفظ: « نهى رسول الله ﷺ أن يُسْتَقَادَ في المسجد، وأن تُنْشَدَ فيه الأشعار، وأن تُقام فيه الحدود ». ولا يجوز الاستدلال على تحريم صالح الشعر والنشيد بقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، [لقمان: ٦] فهذه النصوص كلها في الكلام الباطل والمُضِلِّ سواء كان في شعر أو غيره.

الثاني: وهو تجميل الصوت وتلحين الكلام، وهو أمر لا حرج فيه بذاته.

وقد سمع النبي ﷺ مثل ذلك ولم ينكره، فقد سمع عامر بن الأكوع ﷺ يَحْدُو بالصحابة(١)، وسمع أنجشة يَحْدُو بنسائه(٢)، ولم ينكر ذلك.

وحث النبي ﷺ على غناء النساء في الأعراس(٣)، وسمع غناءهن في العيد ولم ينكره(٤).

أما **المعازف**: فقد ذهب جمهور العلماء إلى تحريمها أو كراهتها، إلا الدف فأكثر العلماء على إباحته، وبعض العلماء قَصَرَ جوازه على الولائم والأعراس للنساء(٥).

---

(١) أخرج البخاري رقم ٥٧٩٦ عن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: « خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لِعَامِرِ بْنِ الأَكْوَعِ أَلاَ تُسْمِعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ، قَالَ: وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلاً شَاعِراً، فَنَزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ: **اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا اقْتَفَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا** فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ هَذَا السَّائِقُ؟ قَالُوا: عَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ، فَقَالَ: يَرْحَمُهُ اللَّهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: وَجَبَتْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَوْ أَمْتَعْتَنَا بِهِ ... » وأخرجه مسلم.

(٢) أخرج البخاري رقم ٥٧٩٧ ومسلم رقم ٢٣٢٣، « عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ أَتَى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ وَمَعَهُنَّ أُمُّ سُلَيْمٍ، فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا أَنْجَشَةُ، رُوَيْدَكَ سَوْقاً بِالْقَوَارِيرِ » [ويحك: كلمة ترحم وتوجع تقال لمن يقع في أمر لا يستحقه، أنجشة: غلام أسود حبشي كان مملوكاً للنبي ﷺ يكنى أبا مارية، رويدك: أمهل وارفق، أو كفاك، بالقوارير: جمع قارورة، كناية عن النساء لضعفهن ورقتهن ولطافتهن فشبهن بالقوارير من الزجاج، أو لتأثرهن بحدائه]، وكان أنجشة يحدو بإبل النساء على هوادجها، « وكان [أي أنجشة] لرسول الله ﷺ حادٍ حسنَ الصوت » أخرجه مسلم رقم ٦١٨٥، وليس في الحديث ذم للإنشاد والغناء، وإنما ذم بعض كلامه حيث كان فيه بعض التشويق لأزواجهن - وهن في سفر - كما فهم بعض العلماء.

(٣) أخرج ابن حبان رقم ٥٨٧٥ « عن عائشة قالت: كان في حجري جارية من الأنصار فزوجتها، قالت: فدخل علي رسول الله ﷺ يوم عرسها، فلم يسمع غناءً ولا لعباً، فقال: يا عائشة **هل غنيتم عليها، أَوَلا تغنون عليها**، ثم قال: إن هذا الحي من الأنصار يحبون الغناء ».

(٤) « عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الأَنْصَارِ، تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتِ الأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثَ - قَالَتْ وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ؟ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ عِيدٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيداً، وَهَذَا عِيدُنَا » أخرجه البخاري ٩٠٩ ومسلم ٨٩٢.

(٥) والأحاديث الصحيحة الواردة في تحريم المعازف، لبعض علماء الحديث فيها كلام وأن فيها عللاً، لكن على الرغم من ذلك فإنها بمجموعها تكفي لِيَبْنِي الفقيهُ عليها الكراهة الشديدة، وبعض العلماء من الفقهاء والصوفية لَفَتَ النَّظَرَ إلى أن المعازف فيها معنى اللهو وتضييع الأوقات، كما أنها اقترنت بمجالس اللهو والخمر والشهوات، وذلك جعلهم يرجحون المنع، سداً للذرائع.

وَلِلأَنامِ فِي السَّماعِ خَوْضُ لِكِنْ لِهذا الحِزْبِ فِيهِ رَوْضُ
قالَ العِراقِيّونَ بِالتَّحْرِيمِ قالَ الحِجازِيّونَ بِالتَّسْلِيمِ

بعض عامة الناس يحبون الأغاني، لما فيها من لهو وشهوة، فيستمعون لما هو محرم منها، أما الصوفية فلهم راحة وانبساط وجمال وانتفاع في الأناشيد، فهم يقتصرون منها على ما هو مقبول شرعاً، من معاني طيبة وتذكير نافع، ولهم فيه مقصد شرعي صالح ونية صالحة، فللصوفية نهجهم الخاص الذي يميزهم في هذا الشأن.

أما الفقهاء فقد اختلفوا في الأغاني بين موسع ومضيق، فالحنفية وأهل العراق يشددون، والمالكية والشافعية والحجازيون يوسعون بين إباحة وكراهة[1].

والغالب أن كلام الفقهاء الذين شددوا حرموه لما فيه من باطل وإثارة للشهوات واقتران مع مجالس الخمر واللهو الباطل، ومن أجازه قَصَدَ الإنشادَ والأغاني بالمعاني المقبولة، أو ما هو قريب منها مما يحتمل معنى طيباً.

مع اتفاقهم على تحريم الإنشاد والأغاني بالكلام الباطل، بما يدعو إلى الهوى والمعصية والخمر والزنا، وبما يثير الشهوات ويُحرِّك إلى الرَّقص ويَذْكُر العورات، وبما فيه تَكَبُّر وتفاخر

---

(١) قال النووي في شرح مسلم ١٨٢/٦-١٨٣: « واختلف العلماء في الغناء، فأباحه جماعة من أهل الحجاز، وهي رواية عن مالك، وحرمه أبو حنيفة وأهل العراق، ومذهب الشافعي كراهته، وهو المشهور من مذهب مالك، واحتج المجوزون بهذا الحديث [حديث عائشة الذي قال فيه النبي ﷺ: وهذا عيدنا] وأجاب الآخرون بأن هذا الغناء إنما كان في الشجاعة والقتل والحذق في القتال، ونحو ذلك مما لا مفسدة فيه، بخلاف الغناء المشتمل على ما يهيج النفوس على الشر ويحملها على البطالة والقبيح، قال القاضي إنما كان غناؤهما بما هو من أشعار الحرب والمفاخرة بالشجاعة والظهور والغلبة، وهذا لا يهيج الجواري على شر، ولا إنشادهما لذلك من الغناء المختلف فيه، وإنما هو رفع الصوت بالإنشاد، ولهذا قالت: وليستا بمغنيتين، أي ليستا ممن يتغنى بعادة المغنيات من التشويق والهوى والتعريض بالفواحش والتشبيب بأهل الجمال وما يحرك النفوس ويبعث الهوى والغزل، كما قيل: الغنا فيه الزنا، وليستا أيضاً ممن اشتهر وعرف بإحسان الغناء، الذي فيه تمطيط وتكسير وعمل يحرك الساكن ويبعث الكامن، ولا ممن اتخذ ذلك صنعة وكسباً ».

واختيال ودعاوى باطلة، واتفاقهم على تحريم غناء النساء أمام الرجال، واتفاقهم على عدم جواز الانشغال بالأغاني عن الواجبات والمهمّات، كالصلوات وقراءة القرآن والذكر وطلب العلم(١).

وقد قال بعض أهل التربية والتصوف: قليل الشعر والإنشاد حسن، وينبغي أن يكون كالملح للطعام، فلا يكون كثيراً، فإنه يكون على حساب غيره من الواجبات والمندوبات، فيصير فاسداً.

ولا ينبغي للمسلم والصوفي أن يتعلق بالإنشاد تعلقاً يجعله هوىً من أهواء النفس، فلا يستطيع مفارقته، فتجده يستمع إليه عند العمل ومع الدراسة وفي السيارة وفي كل حال.

كما حذر بعض علماء الصوفية من الشعر والنشيد الذي يستعمل عبارات موهمة، تحتمل معانيَ باطلة، أو تحتمل عقائدَ فاسدة، أو تحتمل إثارةً للشهوات، فعلى الشاعر والمنشد أن لا يستعمل لفظاً ولا معنى يعترض عليه علماء العقيدة والفقه.

مع حرص المسلم أن يتأول كلام المسلم على أحسن وجه، من باب إحسان الظن.

وَإِنَّ لِلشُّيوخِ فيهِ فَنّا إِذْ جَعلُوه لِلطَّريقِ رُكْنَا
وَإِنَّما أُبيحَ لِلزُّهادِ وَنَدْبُهُ إلى الشُّيوخِ بَادِ
وَهُوَ على العَوَامّ كالحَرَامِ عِنْدَ الشيوخِ الجِلَّةِ الأَعْلامِ

لِشُيوخِ التصوفِ تفنُّنٌ واهتمام بالسماع والإنشاد، لما له تأثير على قلوب السالكين، فالمنشد مرشد، إذا أحسن اختيار الأشعار والأناشيد، واختار منها ما يُحرِّك القلوب نحو الخير والحق، ويُوَجِّه النفس إلى التوبة، ويحرك في القلوب تعظيم الله ﷻ ورسوله ﷺ، ويذكر

(١) روي أن أنس بن مالك ﷺ سمع أخاه البراءَ ﷺ يترنم بشيء من الشعر، وكان شاعراً، فقال له أنس: قد أبدلك الله به ما هو خير منه، القرآن.

بما يوجب حب الله ﷻ ورسوله ﷺ، ويحرك العواطف نحو حُبِّهما وطاعتهما ورضاهما، ويختار من القصائد من يوافق أحوال التلاميذ لتكون أكثر نفعاً وتأثيراً ومطابقة لاحتياجاتهم في السلوك.

لأجل ذلك كان السماع كالركن في التصوف، فهو أمر مهم ومؤثر في السلوك، ولا يقصد الناظم بقوله: (جعلوه للطريق ركناً) أنه ركن لا يستغنى عنه، فسيأتي في كلام الناظم رحمه الله إنكاره على من جعل السماع والإنشاد شيئاً لا يستغنى عنه، وإنما هو رخصة يأوي إليها السالكون، بنية صالحة، ويتمتعون بها، على وجه يعينهم ويزيدهم خيراً.

والسماع والأغاني لا تخلو من كلام فيه تغزل أو تَجَوُّزُ أو كنايات أو ضرب أمثال، فيكون بعض معانيها محل تأثير مختلف بحسب أحوال السامعين، فالزاهد في الدنيا لا يتأثر بذلك، لخروج الدنيا والشهوات من قلبه، والشيوخ الصالحون والعارفون يفهمون كناياته، ويحملونه على معاني روحانية، فيكون نافعاً لهم جداً، ويحرك قلوبهم وأحوالهم إلى الله وحبِّهِ.

وأما العامة فقد يقفون عند ظاهره، فيحرك لديهم شهوات، ويثير في نفوسهم رغبة في المعاصي، فمِنْ هنا كان حراماً عليهم، وقد يشغلهم النغم عن المعاني الراقية والحضورِ مع الله، لأنهم أوقفوا أنفسَهم عند ما تهوى، ولم يلتفتوا إلى الهدى.

وهذا الكلام السابق ينطبق على الأشعار التي فيها عبارات موهمة أو بعيدة أو يكثر فيها المجاز، أما ما كان منها سليم الألفاظ والمعاني، ظاهره كباطنه، فذلك حلال عليهم جميعاً، ويكون نافعاً بإذن الله للمسلمين كلهم.

فوائدُ السماع ومَضارُّه

ثم بين الناظم أن السماع يؤثر في الناس كثيراً، ويختلف تأثيره بحسب أحوال الناس، فمنهم من يكون خيراً له، ومنهم من يكون شراً عليه:

وَفيهِ كانَ مَيْلَقُ(١) الأحوالِ كَيْما يَبِينَ سَافِلٌ وَعَالِ
وَهوَ صِراطٌ عِنْدَهُمْ مَحْدُودُ يَعبرُهُ الوَاجِدُ والفَقيدُ
فَعَابِرٌ يُحِلُّهُ عِلّيِّنا وآخَرٌ يَحُطُّهُ سِجّيْنَا(٢)
وَهوَ سُرورُ ساعةٍ يَزُولُ نعَمْ، وَسُمٌّ ساعةً قَتُولُ
وَهوَ قِياسُ العَقْلِ نَقّاشُ القُلُوبْ إِذْ يَنْزِلُ الحالُ بِهِ ثُمَّ يؤُوبْ(٣)
وآثارُهُ في عَرَصاتِ القَلْبِ كَالوَبْلِ في الغُصْنِ القَويمِ الرَّطْبِ(٤)

في السماع والأغاني ما يميز بين الرجال، من كان منهم سافل الفكر والحال، ومن كان عالي المقام صحيح الحال، فهو حد دقيق، والواجد للأحوال الطيبة والفاقد لها يدعي النفع والاستفادة والرغبة في خيره.

والواجد صادق والفقيد كاذب في ذلك، والصادق يَرفعُه السماع، ويُعطيه أحوالاً طيبة تُرَقّيه، والكاذب يخفضه لما يثير عنده من الشهوات والغفلات.

والمستمع للإنشاد ينبسط به ويُسَرُّ به ساعة السماع، لكنه إن كان من أهل الشهوات فآثاره وسُمُّه يَستمرُّ ويقتله، إذ يُفسِد حالَه ويَزيدُه بُعداً ومعصيةً، وهو لمن كان له قلبٌ وأذنٌ واعيةٌ خيرٌ ويبقى أثره الصالح زمناً.

وسماع الشعر وغناؤه يقيس رزانة الإنسان ووقاره مِنْ خِفَّته وطيشه، فالوقور يتحرك قلبه بمعاني الخير، ويبقى جسده ساكناً، والطائش يتحرك جسده ويتمايل طرباً، ولا يتأثر قلبه بخير.

(١) ميلق: محرك الأحوال بما يجعلها تتمايز.

(٢) عليين: الموضع الأعلى وهو مُسْتَقَرُّ المؤمنين، وسجين: موضع الضّيقِ الأسفلُ الذي يستحقه الكافرون والعصاة، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧] وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨].

(٣) قياس العقل: يقيس قَدْرَ العقل ورَزانَته أو خِفَّتَه، نقّاش: ينقش ويحفر ويؤثر فيها تأثيراً عميقاً. يؤوب: يعود كما كان إلى طبيعته.

(٤) عرصات: جنبات، الوبل: المطر.

والسماع يحفر في القلوب ويؤثر، فمنهم من يحرك في قلبه حالاً وقتَ السماع، ثم يعود كما كان، لكنه أخذ حظاً من النور والخير، ومنهم من يبقى أثره في القلب أكثر من ذلك، كماء المطر الذي يسقى الزرع فيقوي الأغصان اللينة.

ولا يزال السالك يسقي قلبه بماء السماع للمعاني الطيبة، فيزداد غصنه قوة ومَتانة وطُولاً وثباتاً.

آداب السماع وآداب مجلس السماع

ثم بين الشيخ الناظم أهم الآداب التي يلتزمها الصوفية في مجلس السماع:

وَلا يجوزُ عِندَه التَّكَلُّمُ — وَلا التَّلاهِي، لا، ولا التَّبَسُّمُ
وَيُمْنَعُ الأَحْداثُ مِنْ حُضُورِهِ — فَإِنْ يكُنْ ذاكَ فَمِنْ ظُهُورِهِ
وَالرَّقْصُ فيهِ دُونَ هَجْمِ الحالِ — لَيْسَ على طَرِيقةِ الرِّجالِ
وَإِنْ يكنْ يَقْوى على السُّكُونِ — فإنَّهُ أَسْلَمُ لِلظُّنونِ

١. لا يصح أن يتكلم السالك عند السماع، لأنه إنما جُعل للإرشاد والنفع، فلا يصح أن يشوش على نفسه وغيره، ولا يتلاهى ولا يتشاغل عن الإنصات والتفهم، ولا يتبسم كالذي يسخر أو يشُعِر الآخرين أنه غير مهتمٍّ ولا مُبالٍ.

٢. يمنع الصغار من حضور مجلس السماع، حماية لأهل التصوف من الشبهة والريبة والتهمة، فقد يَدَّعي بعض الناس أنهم يَجمَعون الصغارَ والْمُردان لأجل الشهوات، وقد يكون في السالكين رجل ضعيف فينظر إلى الصبيان والغلمان بشهوة، وذلك مُحَرَّم، وإن جاء الأحداث والصغار، فلا يُجْلَسُون في مُقابلة الرجال، بل من ورائهم، كما يصطف الصبيان خلف الرجال في صلاة الجماعة.

٠٣ ولا يتمايل السالك في مجلس السماع والذكر، إلا إذا غَلَبَه الحال(١)، فيكون معذوراً عندئذ، والرجالُ أهلُ التمكين لا تَغلِبُهم الأحوال، فيَبْقَون ساكنين لا يتحركون، وذلك أفضل وأكمل، وهو يُبعِد كلامَ الناس وسوءَ الظنون.

والرقص الذي يذكره الصوفية في كتبهم، والذي يكون في مجلس الذكر أو مجلس السماع؛ ليس رقص التثني وإظهار المفاتن، وإنما هو مجرد الحركة المعبرة عن التَّواجُد والتأثر.

وَليسَ يَحتاجُ إلى السماعِ ... إلّا أَخُو الضَّعْفِ القَصيرُ الباعِ(٢)
والزَّعَقَاتُ فيه والتَّمزيقُ ... ضَعْفٌ، وَهَزُّ الرأْسِ والتَّصْفيقُ(٣)
ولَمْ يكنْ لأَجْلِهِ اجْتِماعُ ... ولا لَدَى غَيْبَتِهِ انْصِداعُ(٤)

٠٤ السماع ليس أمراً لا بد منه، فالرجال الأقوياء في السلوك لا يحتاجون إلى سماع الأناشيد، فذكرهم لله وحضورهم مع الله وتلاوتهم لكتاب الله وتدبرهم لآياته وخشوعهم في صلواتهم؛ تغنيهم عن الأناشيد، وهي أعلى وأرفع.

لكن الضعيف الذي يقل حضوره وتدبره وخشوعه؛ فإنه ينتفع بسماع الأناشيد، وتكون مقوية لحضوره وانتباهه، وتشد قلبه إلى المعاني التي غَفِل عنها.

وربما كانت نفس الضعيف المبتدئ في السلوك لا تنجذب نحو الذكر والقرآن والصلاة، لكنها يجذبها الإنشاد لما فيه من حظ النفس من الأنغام والألحان، فتأخذ النفس حظها

---

(١) وهذا مذهب الإمام الرفاعي أيضاً، كما ذكره في البرهان المؤيد، ص ٢٨ فقال: « يهتزون اهتزاز الأغصان التي تحركت بالوارد لا بنفسها »، وبعض الصوفية لا يرى حرجاً في التمايل من غير حال؛ من باب استحضارِ الحال، والاستغراقِ في السماع والحضور، وهذه المسألة مسألة فقهية يختلف فيها الفقهاء بحسب النظر إلى المصلحة والنفع في الحركة والتّواجُد في تلك المجالس، ولا أحد يعتقد ذلك سُنَّة، والبعض يتركها من باب التورع.

(٢) الباع: هو المسافة ما بين طرفي اليدين إذا مد يد اليمنى يميناً واليسرى شِمالاً، وقصير الباع: كناية عن أن تحصيله قليل.

(٣) الزعقات: الصيحات والصرخات.

(٤) انصداع: أي كالذي يصيبه الصداع، من شدة اشتياقه.

المباح وتسكن، وتلتفت أحياناً إلى بعض المعاني، فتستفيد، فيكون الإنشاد كالحيلة على النفس لتسمع الكلام الطيب النافع الْمُذَكِّر.

٥. وليس من أدب المسلم والصوفي أن يصيح ويصرخ في مجالس الإنشاد، أو يمزق الثياب كأهل النياحة، أو يهز رأسه بشدة، أو يصفق طَرَباً، بل عليه أن يضبط نفسه، ويبقى متمالكاً لحاله، متأدباً بالسكينة بين إخوانه.

٦. ولا يجعلون للأغاني والأناشيد والسماع مجالس خاصة، يجتمعون فيها لأجل ذلك وحدَه قصداً، وإنما تكون ضمن مجالسهم ولقاءاتهم الأخرى، كمجالس الذكر والعلم، فيجعلون للسماع وقتاً قليلاً ترطيباً للمجلس وتحبيباً للضعفاء وزيادة في الوعظ والنفع.

ولا يكون حال السالك تجاه النشيد كَحَالِ مَنْ يَخْرَمُ على كأسِ شايٍ، مِنْ شِدَّةِ تَعَلُّقِه بها ورغبته فيها، فإن وُجِد النشيد استمعوا واستفادوا، وإلا لم يطلبوه ولم يشتاقوا إليه، فمن تعلق بشهوة قهرته، وأزعجت همته، وأفسدت أوقاته.

ولم يكنْ فيه مُراسِنُونا ولا طَنَابِيرُ ومُسْمِعُونا(١)
وليسَ أيضاً كان فيه طَارُ ولا مَزاهِرٌ ولا تَنْقارُ(٢)
والشَّمْعُ والفُرُوشُ والتَّكالُفْ أُقْسِمُ ما كانتْ يَمِينَ الحالِفْ(٣)
وأَمَروا فيه بِغَلْقِ البابِ وإِنَّما ذاكَ لِلاجْتِنابِ

٧. ولا يفعلون فعل أهل اللهو والفساد، من ترديد نهاية البيت بعد المنشد بالدندنة والْهَاهَات.

---

(١) مراسنون: هم الذين يجيبون المنشد بالدنادن والهاهات، طنابير: العود ونحوه، مُسمِعون: مختصون بالإنشاد وحَفلاته، أو يجعلونه صنعة لهم يأخذون عليه المال.

(٢) الطّارُ: الدف أو الطبلة الصغيرة، المِزْهَر: ما له أوتار كالعود، تنقار: ما ينقر عليه ويدق عليه من طبلٍ ودُفٍّ وآلةٍ موسيقية.

(٣) الشمع: كناية عن الإضاءات والأنوار، الفروش: يعني الفراش الوثير والمزخرف، التكالف: التكلف والتصنع والإسراف.

ولا يستعملون العُودَ وآلات الطَّرب والعَزْف.

ولا يخصصون له منشدين يجعلون الإنشاد صنعة ويتكسبون بها، فالمنشد له حياته وصنعته، والنشيد جزء محدود من حياته، ولا يأخذ عليه المال، لأن مقصوده كمقصود العلم وقراءة القرآن، مقصوده الهداية والتذكير.

والذين يجعلون الإنشاد صَنْعَة تذهب من إنشادهم روحُ الإنشاد وتأثيرُه، فشتان بين النائحة والثَّكْلَى، ويذهب الصدق في قولِهم، ويتلاشى حرصُهم على إفادة الناس وموعظتهم، ويصير هَمُّهم إرضاءَ الناس بالنغم لا بالمعنى.

٨. والذي كان عليه الأقدمون أنهم لم يكن في مجالس السماع عندهم من المعازف وما يدق عليه شيء، لا دف ولا طبل ولا غيره.

وقد توسع المتأخرون في ذلك، فاستعملوا الدُّفّ، وبعضهم أجاز الدف المُجَلْجَل بجلاجل.

٩. ولا يتكلفون لمجالس الإنشاد والسماع، فلا يجعلون فيها إضاءات وألواناً، وفرشاً وثيرة وزخارف، ولا يتصنعون لها، ولا يسرفون فيها، فذلك لم يكن عند أهل التصوف ولم يكن عند سلفنا، وليس من شريعتنا، وإنما هو فعل الفساق وأهل الفساد.

والصوفي يزهد ويتورع، فليس عنده اعتناء بتزيين الدنيا، ولا وقت لديه لشيء يشغله عن الطاعة، ولا يضيع أمواله في هذه الأمور، ولا يُفْنِي حياته في التكسب لبذل المال في مثل هذا.

١٠. ويغلقون باب المجلس إذا أنشدوا، لأن نشيدهم لا يخلو من مصطلحات خاصة، أو من كلمات تحتاج إلى تأويل، حتى لا يجلس معهم من لا يفهم مصطلحهم، فيتهمهم بأنهم أهل باطل، ولئلا يجالسهم من يطلب الشهوات، فيفهم الكلمات في حب المخلوقات، وهم يستعملونها في حب الخالق.

وليَسَ لِلْقائلِ ما يَقُولُ في الشّعْرِ إذْ سَمِعَهُ الرَّسُولُ
وَإِنّما كانَ السَّماعُ قِدْمًا قَصْدُ المُرِيدِ الشَّيْخَ يَشْكُو السَّقَمَا(١)
وجاءَ هذا، ثُمَّ جاءَ هذا حتّى اسْتَقَلُّوا عِندَهُ أَفْذَاذَا(٢)
فَبَثَّ كُلٌّ ما بِهِ قَدْ جَاءَا فَعُوِّضُوا مِنْ دائِهِمْ دَوَاءَا
فَعنْدَما نَشطَتِ النُّفوسُ وَزَالَ عَنْها كَسَلٌ وَبُوسُ(٣)
وَطَابَتِ القُلُوبُ بِالأَسْرارِ وَاسْتُعْمِلَتْ نَتائِجُ الأَفْكارِ
تَرَنَّمَ الحادِيْ بِبيْتِ شِعْرِ فَاكْتَنفَتْهُ غامِضاتُ الفِكْرِ(٤)
كُلٌّ لَهُ مِمّا اسْتَفَادَ شِرْبُ هذا لهُ قِشْرٌ، وهذا لُبُّ(٥)
فَإِنْ تَمادَى وَأَتَمَّ الشِّعْرَا أَبْدَوا مِنَ الشَّرْحِ عليهِ سِفْرَا(٦)
فَهكَذا كانَ سَماعُ النّاسِ فَهَلْ تَرَى بِهِ كَذَا مِنْ بَاسِ

وليس لأحد أن ينكر على الشعر والإنشاد، فالنبي ﷺ سمعه وأقره، والصحابة رضي الله عنهم ارتجزوا وأنشدوا وسمعوا.

---

(١) قِدْما: قديماً، السقم: المرض، وهنا كناية عن أمراض القلوب.
(٢) جاء هذا: أي هذا التلميذ والسالك، استقلوا عنده: انفردوا به، أفذاذا: واحداً بعد واحد.
(٣) بُوس: أي بؤس، وهو الضُّرّ.
(٤) ترنم: غَنَّى، الحادي: المنشد، فاكتنفته: أي أحاطت به، غامضات: ما يخفى.
(٥) اللُّب: القلب الذي داخل القشر، وهو المقصود كداخل البرتقالة والبطيخة.
(٦) السِّفْر: كتاباً أو مجلداً.

وكان أصل الإنشاد والسماع عند الصوفية، أن السالك يريد أن يشكو ضعفَ حالِه وبعضَ همِّه للشيخ، فجعل بعضهم يقول الشعر في ذلك، ليكون أبلغ، وأكثر استعطافاً للشيخ، وليستعمل الكنايات بدلاً من التصريح بسوء حاله.

فكان يأتي المريد بعد المريد، وكل واحد يُذاكِر الشيخ بأحواله، ويُخبِره عما يشكو منه، فيذكر له الشيخ دواء وعلاجاً لمرضه القلبي أو لتقصيره العملي أو لِسُوءِ خُلُقه.

ومن السالكين من يرجع وقد نشطت نفسه إلى الطاعة، وتخلت عن المعاصي والشهوات والأهواء، وتعلق قلبه بالله، وذاق من حلاوة الإيمان، فينشرح صدره وتطيب نفسه، فيُلْقِي من القول والشعر والإنشاد بين يدي الشيخ شاكراً ما مَنَّ الله به عليه، ومُعَرِّفاً إخوانه منافعَ الطريق والسلوك وبركةَ الشيخ وأثَرَه، ومُبيِّناً الحال الذي ينبغي أن يكون عليه المريد حتى يصير من العابدين الصالحين والعارفين الموقنين.

فينقدح لديه من الأفكار والمعاني فيترنم بها ويغني، فتجتهد أفكار السالكين في فهمه، وتبحث عن مراميه، فيكون لكل سالك من الفهم بحسب حاله ومقامه، فمنهم من يقف عند القشور والظواهر، ومنهم من ينال حظاً من باطن المعنى ودقائقه وإشاراته.

ويَظهر مِنْ بعضهم شعرٌ بليغ وعميق، لو أراد العارفون بمعانيه أن يشرحوه لكتبوا عليه مجلدات، حيث لا تنتهي معانيه، لسعة مراميه، فالعلم لا نهاية له، كما قال الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦].

فهذا سبب نشوء الإنشاد والاهتمام به عند الصوفية، فهل على هذا اعتراض، أو فيه شَرٌّ أو مَلامَة.

الخِلْعَة والخِرْقة(١)

الأصل الشرعي للخِلَع:

اعتاد العرب أن البشير الذي يأتيك ببشرى تُقَدِّمُ له هديةً على الفَوْرِ ثوباً من ثيابك، إكراماً له وفَرَحاً بما قَدَّمه لك، ومُبادَلة لِفَرَحِه بما يُفْرِحُك، فتَنْزِعُ عنك ثوباً أو عَباءة وتُلْبِسُه إياها، ويسمى هذا الثوب خِلْعة، ومثل ذلك أن تخلع ثوباً على من يقدم لك خيراً.

وقد أقر الإسلام هذه العادة، وفَعَلَها أصحابُ رسول الله ﷺ، فيما هو مباح لا في لهو وخمر وباطل، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم أن كَعْب بن مالك ﷺ، وقد كان من الثلاثة الذين تخلفوا يوم تبوك، لما بُشِّر بتوبة الله عليه؛ خلع ثيابه وألبسها لمن جاء يبشره(٢).

قال النووي: «فِيهِ اِسْتِحْبَاب إِجَازَة الْبَشِير بِخِلْعَةٍ، وَإِلَّا فَبِغَيْرِهَا، وَالْخِلْعَة أَحْسَن، وَهِيَ الْمُعْتَادَة»(٣).

وقد جرى بعض الصوفية على هذا مع المنشدين، فالمنشد يُسمع السالكَ كلاماً طيباً ينفعه ويحرك قلبه، فقد أسدى للسالك معروفاً وخيراً، فيكافئه السالك بخلعة إكراماً ووفاءً.

---

(١) (الخِلْعة): والجمع خِلَع، وهو أن ينزع ثوباً من ثيابه فيلقيه على غيره، وقد يُلْبِسه ثوباً ليس من ثيابه. (الخِرْقَة): والجمع خُروق أو خِرَق: وهي ثوب أو كِساء يُلْبِسُه الشيخ للمريد، وأصل الخرقة في اللغة: القطعة من الثوب، وتطلق في زماننا على القطعة من الثوب الممزق.

(٢) جاء ذلك ضمن حديث طويل، وفيه: سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبَ بْنَ مَالِك أَبْشِرْ قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِداً وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ وَآذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا ... وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَساً وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ **فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا** بِبُشْرَاهُ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا ... فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِ اللهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قُلْتُ فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ. أخرجه البخاري رقم ٤١٥٦ ومسلم رقم ٢٧٦٩.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧ / ٩٥.

الأصل الشرعي للخِرَق:

خَلَع النبيُّ ﷺ على بعض الناس خِلَعاً وأثواباً.

ومن ذلك:

عن أم خالدٍ بنتِ خالد بن سعيد بن العاص قالت: « أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بثيابٍ فيها خَميصةٌ[١] سوداءُ، فقال: مَنْ تَرَوْنَ نَكْسُوها هذه الخميصةَ؟ فأَسْكَتَ القومُ، قال: ائتوني بأمِّ خالدٍ، فأُتِيَ بي النبيُّ ﷺ [٢]، فأَلْبسَنيها بيده، وقال: أَبْلِي وأَخْلِقي[٣]، مرتين، فجعلَ ينظرُ إلى عَلَمِ الخَميصَةِ، ويشير بيده إليَّ، ويقول: يا أُمَّ خالدٍ، هذا سَنا، يا أمَّ خالدٍ: هذا سنا، والسَّنَا بلسان الحبشة: الحَسَنُ »[٤].

وروي في كتب السيرة أن النبي ﷺ كسا مَخْرَمَة بن نوفل القرشي الزهري حُلَّةً فاخرة، باعها بأربعين أوقية، وكان من الطلقاء ومن المؤلفة قلوبهم[٥].

وعن « مُشَمْرِج بن خالد السعدي قال: قدمت على رسول الله ﷺ في وفد عبد القيس فسألهم النبي ﷺ هل فيكم غيركم؟ قالوا: لا، غيرَ ابنِ أختنا، قال: ابن أخت القوم منهم، ثم كساه رسولُ الله ﷺ بُرْداً وأقطعه رَكِيَّ ماءٍ بالبادية وكتب له بها كتّاباً »[٦].

ويُستأنَس لهذا الأمر بما ذكره القرآن من إرسال يوسف ثوباً لأبيه عليهما السلام:

﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ

---

(١) خَمِيْصَة: كساء أسود له عَلَم، أي خط، ولا يسمى خميصة إن لم يكن له عَلَم.

(٢) وفي روايات ما يدل على أن عمرها كان أقل من عشر سنين.

(٣) أبلي وأخلقي: هي دعوة بطول العمر، حتى يَبْلَى الثوبُ ويهترئ ويُرَقَّع.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٥٥٠٧.

(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي ٢ / ٥٤٢، والسالك كالمؤلفة قلوبهم في ضعف إيمانه وبداية إقباله.

(٦) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ٦ / ١٢٣ رقم ٨٠٠٦ و« رَكِيّ »: أي بئر.

﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٣-٩٦].

وقد أخذ الصوفية من ذلك أن الشيخ يعطي السالك ثوباً، قال السَّهْرَوَرْدِي: « ووجه لبس الخرقة من السنة [وذَكَرَ حديثَ أم خالد]، ولا خفاء أن لبس الخرقة على الهيئة التي تعتمدها الشيوخ في هذا الزمان لم يكن في زمن رسول الله ﷺ، وهذه الهيئة والاجتماع لها والاعتداد بها من استحسان الشيوخ، وأصله من الحديث ما رويناه »(١).

وللسهروردي كلامٌ حسن في موضوع الخرقة عند الصوفية، ومما قال: « الباب الثاني عشر في شرح خرقة المشايخ الصوفية: لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد، وتحكيم من المريد للشيخ في نفسه، والتحكيم سائغ في الشرع لمصالح دنيوية؛ فماذا ينكر المنكر للبس الخرقة على طالب صادق في طلبه يتقصد شيخاً بحسن ظن وعقيدة، يُحكِّمه في نفسه لمصالح دينه، يرشده ويهديه ويعرفه طريق المواجيد ويُبصِّره بآفات النفوس وفساد الأعمال ومداخل العدو، فيُلْبِسُه الخرقة إظهاراً للتصرف فيه؛ فيكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم، ودخوله في حكم الشيخ دخوله في حكم الله وحكم رسوله، وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله ﷺ، عن عبادة بن الصامت، قال: بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق حيث كنا ولا نخاف في الله لومة لائم.

ففي الخرقة معنى المبايعة، والخرقة عتبة الدخول في الصحبة، والمقصود الكلي هو الصحبة؛ وبالصحبة يرجى للمريد كل خير »(٢).

---

(١) عوارف المعارف، ص ٨٣.

(٢) عوارف المعارف، ص ٨١. وقال ص ٨٥-٨٦: « واعلم أن الخرقة خرقتان: خرقة الإرادة، وخرقة التبرك، والأصل الذي قصده المشايخ للمريدين خرقة الإرادة، وخرقة التبرك تَشَبُّه بخرقة الإرادة، فخرقة الإرادة للمريد الحقيقي، وخرقة التبرك للمتشبه، ومن تشبه بقوم فهو منهم ».

وكَرَّهُوا الخلْعَ على المُساعَدَةْ ... لأَنَّ فيهِ كُلْفَةَ المُعانَدَةْ(١)
وَمَنْ يَكُنْ يَخْلَعُ عِندَ الحالِ ... فَلا يجوزُ رَدُّهُ بِحالِ(٢)
إِذْ كانَ كُلُّ عائِدٍ في هَدْيِهِ ... كالكَلْبِ ظَلَّ عائِداً في قَيْئِهِ
وَحُكْمُهُ في أَفْضَلِ الأَحْكامِ ... رَأْيُ العِراقِ لَيْسَ رَأْيَ الشَّامِ
وَحَكَّمُوا الوَارِدَ في الخُرُوقِ ... لِلأُنْسِ والخِبْرَةِ بِالطَّرِيقِ
والسِّقْطُ مَرْدُودٌ بِلا خِلافِ ... وَقَدْرُ هذا في السَّماعِ كافِ

جرى العمل عند بعض الصوفية على أن المنشد إذا أنشد وأَثَّرَ في السالك وحَرَّكَ قلبه وأحواله، فإن السالك إن شاء نزع ثوباً وألقاه عليه، وذلك لا حرج فيه، فهو بمعنى الهدية لمن له فضل عليك.

وقد أجاز فقهاء الصوفية ذلك، إن كان بطيب نفس، ولم يكن فيه تكلف، مع الإقرار بأن ذلك ليس بواجب ولا مندوب.

وكرهوا أن يَفعَلَ ذلك مَنْ لم يتحرك حاله، لأنه يفعل ذلك من غيظ النفس وكبريائها، وكأنه يقول: لستم أنتم الكرماء فحسب، بل أنا كريم، ولأنه يوهم وجود الحال عنده، كأنه يكذب على الناس وينسب إلى نفسه ما ليس عنده.

والخلعة في معنى الهدية شرعاً، ولا يجوز أن يَسْتَرِدَّ ما خَلَعه على الْمُنْشِد، لأنه كالذي يعود بهبته، وقد شبهه النبي ﷺ بالكلب يقيء ثم يعود يأكل قيئه(٣)، وأقل أقوال الفقهاء في ذلك أنهم حملوه على الكراهة والتغليظ، وأنه لو عاد به يجوز قضاءً لكنه مكروه ديانة.

---

(١) الخلع: أي خَلْعُ ثوبِه أو عباءته وإلقاؤها على غيره، كلفة المعاندة: تكلف المتابعة والتشبه بغيره، لا عن نفسٍ طيبة.
(٢) رده: أي استرداده واسترجاعه، بحال: أي بأي حال، ولأي سبب.
(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: « العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه » أخرجه البخاري رقم ٢٤٤٩ ومسلم رقم ١٦٢٢.

وإذا سقط ثوب أو حطة أو عباءة عن أحد الناس ولم يرد إعطاءها لأحد، فهذا لا يعتبر خلعة، ولا يجوز أخذها منه، بل ترد على صاحبها الذي سقطت عنه.

أما الخِرْقَة التي يُلبسها الشيخ للتلميذ، فقد جرى بها عرف كثير من المشايخ في التصوف، وهي ليست واجبة، وإنما هو أمر استحسنه أهل الطريق لما فيه من مصلحة للسالك.

وتقترن عادة مع أخذ الطريق والبيعة من الشيخ، فإذا اعترف التلميذ بالشيخ شيخاً ومربياً، وتعاقد مع الشيخ على طاعته مقابل أن يتولى الشيخ تربيته ويقوم بحق تعليمه وإرشاده وتزكيته على طريق الكتاب والسنة، فإذا كان ذلك أعطى الشيخُ التلميذَ السالكَ أو أَلْبَسَه خِرْقَةً أي ثوباً أو كساءً أو شيئاً يبقى معه، كحُلَّة أو عمامة أو حَطَّة أو طاقية أو مِسْبَحَة.

والمصلحة المقصودة من الخِرْقة أن السالك يستأنس بها، فيتذكر سلوكه وعَهْدَه كُلَّما رآها أو لَبِسَها، فيَحْمِلُه ذلك على الالتزام بأمر الله وبطريق الإحسان، فذلك بركتها.

وقد يلبس الشيخُ السالكَ ثوباً معيناً صار عرفاً على السالكين، فيُعرَف السالكُ به أنه من أهل الطريق وطلابِ الإحسان، فيحمله ذلك على التزام آداب المحسنين والصالحين.

بيعة الشيخ:

واهتمام الصوفية بالخِرقة ليس أمراً لذاته، بل لأنها ارتبطت ببيعة الشيخ، والبيعة عقد بين الشيخ والتلميذ، فعلى الشيخ أن يدله على طريق الله وطريق إصلاح نفسه ما استطاع، وعلى التلميذ أن يطيعه في ذلك ما استطاع، وكل ذلك منضبط بأنه لا طاعة لأحد في معصية الله.

والتلميذ لا يبايع الشيخ حتى يتأكد من صفاته وأهليته للتربية، فعندئذ يسلم نفسه إليه للتربية، كما أن الطالب لا يسلم نفسه للمعلم ليعلمه، حتى يطمئن إلى أهليته في التعليم.

وأصل البيعة عند الصوفية، أن النبي ﷺ بايع أصحابه عدداً من البيعات.

فمنها بيعةٌ لكونه نبي.

ومنها بيعةٌ لكونه الحاكم، وهذه يرثها أهل العدل من الحكام، فيبايعهم الشَّعبُ، مُعلِناً طاعةَ الحاكم، ما لم يعص الله، وهي عقد مع الحاكم أن يحرص على العدل ومصلحة الشعب وحكمهم بشرع الله، وقد أمر النبي ﷺ بالبيعة للحاكم الحقِّ العَدْل، وعدم خَلْع هذه البيعة أو الخروج عليه، كما رواه البخاري ومسلم، وهي التي تسمى ببيعة الخلافة.

ومنها بيعة على الإسلام، فكان الصحابة إذا بلغ أبناؤهم سبع سنوات أتوا بهم إلى النبي ﷺ فيبايعونه على الإسلام، كما رواه مسلم. ومثلُها بيعةُ الوفود الذين أَتَوا إلى النبي ﷺ فأسلموا.

ومنها بيعةٌ على أعمال، وقد تتضمن بيعة الإسلام، كبيعة أهل العقبة الأولى والثانية، فقد بايعوا على الإسلام، وعلى أعمال ذكرها خصوصاً، ومنها حماية النبي ﷺ.

ومنها بيعة على عمل خاص، كالجهاد، كما في بيعة الأنصار للنبي ﷺ يوم غزوة بَدْرٍ، وكما في بيعة الرِّضْوان تحت الشجرة، وقد ذكرها القرآن الكريم.

ومنها بيعة خاصة، اخْتَصَّ بها النبي ﷺ قليلاً من أصحابِه دون غيرهم، وهي بيعة على عمل صَعْب أو شاقٍّ، لا يقدر عليه إلا أهل الإحسان، كبيعة ثَوْبانَ ﷺ ومعه نحوُ عشرةٍ من الصحابة فقط دون غيرهم، على أن لا يسألوا الناس شيئاً، كما رواه مسلم.

وهذه البيعة الأخيرة، يعتبرها الصوفية أصلاً ودليلاً على البيعة التي يعقدونها بين الشيخ والتلميذ السالك، وهي لا تتعارض مع الأنواع الأخرى، ولا تنفيها، ولا تلغيها.

ولهذه البيعة وهذا الالتزام مع الشيخ بركةٌ، يَدُلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠]، فالمسلم يلتزم بأمر الله ببيعة أو بغير بيعة، لكن إن وجدت البيعة فأوفى به فله أجر عظيم، كما قررت الآية، ويدل على ذلك أيضاً مَدْحُ اللهِ لمن نَذَرَ فأوفى بعهده، والبيعة عهد كاليمين والنذر.

المبحث السابع
حُكْمُ السفر والقدومِ على المشايخ والإخوان وحكمتُه وآدابُه

أسباب السفر المشروع

مَذْهَبُهُمْ فِي جَوْلَةِ البُلدانِ　　زيارةُ الشيوخِ والإخْوانِ
ثُمَّ اقْتِباسُ العِلْمِ وَالآثارِ　　أَوْ رَدُّ ظُلْمٍ أو لِلاعْتِبارِ
أَوْ لِلْخُمولِ أَوْ لِنَفْيِ الجاهِ　　أَوْ لِلرَّسُولِ أو لِبَيْتِ اللهِ

السَّفَرُ مشروع لمصالح الناس، وقد يصير واجباً إذا كان فيه نفع ومقصد شرعي، أما إذا كان للترفه والتنزه فهو جائز إن لم يكن فيه تَضييعٌ لواجبات ولا فِعلٌ لمنكرات، لكن أهل الطريق أخذوا على أنفسهم أن لا يتحركوا بأهوائهم وشهواتهم، والتزموا أن يجعلوا أعمالهم كلَّها خالصةً لله، وفيها طاعة لله وذكر، رغبة أن يتحققوا بمقام الإحسان.

فمن التجوال في البلدان والسفر المشروع والمستحق أن يسافر الإنسان إلى شيخه في التصوف، ليصل شيخه ويستفيد منه، ويراجعه في سلوكه، إذا كان السالك يعيش في غير بلد شيخه.

ويُشرع أن يسافر السالك لزيارة إخوانه في الطريق، لِيَصِلَهُم ويَتبادَل معهم الفوائد، كما شُرِعَ للمسلم أن يزور أخاه في الله، وله في ذلك ثواب عظيم ونفع كبير ونور كريم.

ويجوز أن يسافر السالكُ لأجل طلب العلم والتفقه في الدين ورواية الحديث، لا سيما إذا لم يجد في بلده ما يحقق له ذلك، ويستحب ذلك إن كان فيه نفع، ويكون واجباً إن

كان يحقق به فرض العلم الذي يجب على كل مسلم أن يتعلمه، مِن المعلوماتِ مِن الدِّين بالضرورة، من فروض العين والكفاية.

ويجب السفر إذا تَعَيَّنَ طريقاً لِرَدِّ الْمَظالِمِ وطلبِ الْمُسامحَة، فَمَن كانَ ظَلَمَ أحداً وأَخَذَ حقَّه، وهو في بلد آخر، فيجب عليه أن يسافر إليه ليؤدي حقه ويستسمح منه، إذا لم يمكنه ردُّ الحق إلا بالسفر.

ويجوز السفر إذا كان على نية التفكر والاعتبار، برؤية عجائب ما خلق الله، ورؤية اختلاف ألوان الناس ولغاتهم وعاداتهم، ورؤية آثار مَن هَلَك قبلنا، ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام: ١١]، وهذا السفر مستحب ومندوب إذا لم يضيّعْ واجباً ولا تسبب في منكر أو عرض نفسه لفتنة.

ويجوز السفر عند أهل التصوف لمن كان معروفاً في بلده، أو كان صاحب جاه ورياسة، وكان ذلك يؤثر في قلبه عجباً أو غروراً أو كبراً، أو كان يوقعه في معصية أو يلجئُه إلى منكر، أو كان يشغله عن طاعة الله والتقرب إليه، فسافر طلباً لإصلاح النفس، والازديادِ من طاعة الله، والبُعدِ عن الشهرة التي تضر به وتفتنه، وذلك مشروع، وقد يكون مستحباً أو واجباً، بحسب حال السالك، ومدى تأثير ظروفه عليه، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٧].

ويستدل الصوفية على جواز السفر وترك الناس طلباً للخمول، بفعل أُوَيْسٍ القَرَنِيِّ الذي وصفه النبي ﷺ بأنه خير التابعين، كما روى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ **خَيْرَ التَّابِعِينَ** رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ » وأمر الصحابة إذا رأوه أن يستغفر لهم، فقال: « فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ، **فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ** » وقد كان بعض الناس يحتقره ففي الخبر: « أَنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَفَدُوا إِلَى عُمَرَ وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ **يَسْخَرُ بِأُوَيْسٍ** »، ووصفه النبي ﷺ بأنه « لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، **لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ** »، وقال له عمر ﷺ حينما عرفه: « أَيْنَ تُرِيدُ؟

قَالَ: الْكُوفَةَ، قَالَ: أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا؟ قَالَ: **أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ**، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَوَافَقَ عُمَرَ فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ قَالَ: تَرَكْتُهُ رَثَّ الْبَيْتِ قَلِيلَ الْمَتَاعِ »، وفي الخبر: « **فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ، فَانْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ**، قَالَ أُسَيْرٌ [وهو الراوي]: وَكَسَوْتُهُ بُرْدَةً، فَكَانَ كُلَّمَا رَآهُ إِنْسَانٌ قَالَ: مِنْ أَيْنَ لِأُوَيْسٍ هَذِهِ الْبُرْدَةُ؟ »[١] .

ويسن السفر لزيارة مسجد النبي ﷺ وقبره، والمسجد الحرام والمسجد الأقصى، قال رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ ومسجد الأقصى »[٢].

وإذا قَدِرَ على الحج فالزيارة لبيت الله الحرام للحج فرض مرةً.

كما يسن السفر أو يجب لمقاصد شرعية أخرى: كالسفر للدعوة والتعليم والجهاد الواجب في سبيل الله، أو هروباً من ظلم لا يستطيع دفعه، أو هجرة مِن بلد لا يستطيع فيه إقامة شعائر الدين.

آداب السفر

وَلَمْ تَكُنْ أَسْفارُهُمْ تَنَزُّها ... بَلْ كان فِيها نَحْوَهُ[٣] التَّوَجُّها
ولم تكنْ أيضاً بِلا اسْتِئْذانِ ... لِلشَّيْخِ والآباءِ والإِخْوانِ
ولم يَكُنْ ذَلِكَ لِلْفُتُوحِ ... أَوْ لِامْرِئٍ مُبْتَذِلٍ مَمْدُوحِ

١. وفي كل سفر لا يسافرون للتنزه والهوى ولا للمعصية ولا عبثاً، وإنما سفرهم كلُّه لله، متوجهين إلى الله في كل أعمالهم وأسفارهم، طالبين رضا الله، فنيتهم لله وعملهم يوافق حكم الله.

(١) الأجزاء المذكورة كلها من ثلاثة أحاديث في صحيح مسلم ، برقم ٢٥٤٢.
(٢) أخرجه البخاري ١١٣٢ عن أبي سعيد الخدري ﷺ وأبي هريرة ﷺ، ونحوه مسلم ٨٢٧ عن أبي سعيد ﷺ.
(٣) أي نحو الله.

٠٢ يستأذنون آباءهم وشيوخهم وإخوانهم قبل السفر، لحق الآباء، ولبركة إذن الشيوخ ونصيحتهم، ولطلب السماح من الإخوان.

٠٣ ولا يكون نيتهم في السفر طلب الدنيا والتوسع فيها، طمعاً ورغبة بها، إلا إذا اضطروا لذلك اضطراراً، فيجوز السفر لطلب الرزق.

٠٤ ولا يسافرون ليتذللوا لصاحب جاه أو مال أو فاسق، ينافقون له ويتذللون إليه، وقد أَذَلَّ نفسَه للباطل.

فَحَيْثُ حَلُّوا بَلْدَةً فَبِالحِرَا   أَنْ يَقْصِدُوا الشَّيخَ وَبَعْدُ الفُقَرا
وَإِنَّ لِلْقَوْمِ هُنا آدَابَا   إِذْ جَعَلُوا كَلامَهُمْ جَوَابَا
فَإِنْ تَعاطَى الشَّيخُ مِنْهُمْ قَوْلا   قَالُوا، وَإِلّا فَالسُّكُوتُ أَوْلَى

٠٥ إذا نزلوا بلداً بحثوا عن شيوخها والسالكين، وزاروهم، لأن مقصدهم في السفر وجه الله، وذلك يعينهم على تحقيق مقصدهم، وينفعهم في سيرهم إلى الله ويزيدهم، فيجدون في كل بلد نفعاً وعلماً وأحوالاً قد لا يجدونها في بلادهم وعند شيوخهم.

٠٦ وإذا اجتمعوا بالشيوخ والسالكين، لم يتكلموا إلا أن يجيبوا عن سؤال، أدباً وتواضعاً، وحرصاً على الانتفاع من الآخرين، وإذا طَلَبَ الشيخُ منهم الحديثَ تَحَدَّثُوا بقَدْر ما طُلِب منهم.

وَوَاجِبٌ على أُولِي الإِقَامَةِ   تَفَقُّدُ الوَارِدِ بِالكَرَامَةِ
وَهوَ يَزُورُ القَوْمَ في الحَرَامِ   وَإِنَّما ذَاكَ لِلاحْتِرامِ
وَيَبْدَءُوا الوَارِدَ بِالسَّلامِ   وَبِالطَّعامِ ثم بِالإِكْرامِ
وَكَلَّمُوهُ بَعْدَها تَكْلِيماً   تَأَسِّياً بِفِعْلِ إِبْراهِيما

وكَرِهُوا سُؤالَ هذا الوارِدْ   إلّا عَن الشيخِ أو التَّلامِذْ
وكَرِهُوا تَضْيِيعَهُ أَوْرادَهْ   كَيْفَ، وَقَدْ جاءَ إلى الزِّيادَةْ
ومَنْ يُسافِرْ في هَوَى النُّفوسِ   فَإِنَّما يُؤْمَرُ بِالجُلُوسِ

٧. وأدب المقيمين مع المسافر القادم إذا حَلَّ بلدهم؛ أن يتفقدوا حاجته، ويستقبلوه بالإكرام وحسن الخلق.

٨. ويحرص المقيمون على زيارته في البيت الذي أنزلوه فيه، ولا ينتظرونه أن يزورهم، احتراماً له ولئلا يتعبوه فوق تعب السفر.

وإذا كانت زيارته إلى بيت الله الحرام أو مسجد الرسول ﷺ فهو يزور الشيوخ المجاورين في المسجدين، لئلا يَخرجوا من المسجد إلى غيره.

٩. فإذا زاروه بدأوا بالسلام والترحيب، ثم أكرموه بالضيافة والماء والطعام، وسائر ألوان الإكرام وأسباب الراحة، من فراش وغيره.

١٠. ويؤنسونه بالحديث، حتى لا يخجل ولا يُحْجِم عن ضيافتهم، اقتداءً بسيدنا إبراهيم ﷺ في السلام والكلام والضيافة بالذبيحة المشوية.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود: ٦٩].

١١. ولا يثقلون على المسافر القادم بالسؤال، ولا يكثرون عليه، ولا يسألونه عما يخصه، وعما لا فائدة فيه من فضول السؤال والكلام، إنما يسألونه عن شيوخه وإخوانه وعن أحوال المسلمين والبلاد والعلم والعلماء والدعوة، ونحو ذلك، ويتركون له الحديث بما يراه هو مناسباً.

١٢. ويحرص المسافر على أوراده في أول اليوم وآخره، ويحافظ على أوراده من القيام والقرآن والذكر، وغير ذلك من أعمال البر، فلا يجعل السفر حجة للتخفف منها، فهو قد سافر

ليزداد خيراً، فليحافظ على ما كان من خير وعملٍ صالح وهو في بلده، « أحبُّ الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل »(١).

ـ ومن كان يريد السفر بغير نية صالحة، فيأمره الشيخُ وينْصَحُه إخوانُه بالجلوس وعدم السفر، لئلا يُضَيّعَ عُمرَه فيما لا ينفعه، أو في شهوة وهوى.

وللمسلم آداب أخرى في السفر شرعها لنا الإسلام(٢)، فيلتزم بها كل مسلم، والصوفي أولى الناس بالتزامها.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٠٩٩ ومسلم رقم ٧٨٣، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر آداب السفر وأدلتها، في كتاب التزكية على منهاج النبوة، فصل٢ باب٤، الأخلاق والآداب، ص ٥٥٥ وما بعدها، وأهمها: صلاة ركعتين عند الخروج إلى السفر، وبعد العودة، والدعاء عند ركوب مركوبة السفر، وعند العودة، وألا يسافر المسلم وحده إن استطاع، وإن كان المسافرون جماعة فعليهم أن يُؤَمِّروا أحدهم، وأن لا تسافر المرأة وحدها من غير زوجها أو أقاربها المحارِم، وأن يتعوذ المسلم بالله كلما نزل موضعاً، وإذا نزل المسافرون موضعاً تقاربوا ولم يتفرقوا، وإذا دخل بلداً يدعو ويطلب الخير، والتعجيل في الرجوع إلى أهله وبلده، إذا حقق قصده من السفر.

المبحث الثامن
حُكْم سؤالِ المالِ وأسبابُه وآدابُه

حُكْمُ السُّؤالِ عِنْدَهُمْ مَشْرُوعُ   طَوْراً، وَطَوْراً عِندَهمْ مَمْنُوعُ

السؤال: هو طلب المال (الشِّحادة).

وهو مكروه شرعاً، فمن لم يكن محتاجاً فلا يجوز له أن يَسأَلَ ويَطْلُبَ مِن الناس المالَ، ليستكثر ويزداد(١).

أما إذا كان الإنسان محتاجاً واضطر إلى السؤال والطلب اضطراراً فيصير السؤال جائزاً(٢).

وقد يصير واجباً إذا خشي على نفسه الهلاك إن لم يسأل الناس حاجته فيُعْطُوه(٣).

(١) ويدل على هذا حديث النبي ﷺ: « من سأل الناس أموالهم تَكَثُّراً، فإنما يَسأل جَمْراً، فليستقلَّ أو لِيَستكثِر » أخرجه مسلم رقم ١٠٤١، عن أبي هريرة ﷺ، وحديث: « لا تزال المسألة بالرجل حتى يلقى الله وليس في وجهه مِزْعَة لحم » أخرجه البخاري رقم ١٤٠٥ ومسلم نحوه رقم ١٠٤٠، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وحديث « وكره لكم ثلاثاً ... وكثرة السؤال ... » أخرجه البخاري رقم ٢٢٧٧ ومسلم رقم ٥٩٣، عن الْمُغيرة بن شُعبة ﷺ.

(٢) ويدل على هذا حديث قَبِيْصَةَ بن مُخارِقٍ الهلالي ﷺ قال: تَحَمَّلت حِمالةً [دية]، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: « أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها »، ثم قال: « يا قَبِيصةُ، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تَحمَّل حِمالةً، فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يُمسِك، ورجل أصابته جائحة [ما يُهلِك المال] اجتاحت ماله، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال سداداً[ما يَسُدُّ حاجتَه] مِن عيش، ورجل أصابته فاقةٌ [فقر]، حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا [أصحاب العقل والمكانة] من قومه، لقد أصابت فلاناً فاقةٌ، فَحَلَّتْ له المسألةُ حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال سداداً من عيش، فما سواهنَّ من المسألة يا قبيصةُ سُحْتاً [حراماً] يأكلها صاحبها سحتاً » أخرجه مسلم رقم ١٠٤٤.

(٣) لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾.

ومن كان له بعضُ حاجةٍ لكنه يستطيع التحمل والصبر، فالأَوْلى له أن لا يسأل الناس ولا يطلب منهم، ويكتفي بالطلب من الله بالدعاء(١).

وإن جاءه شيء من المال ولم يطلبه جاز له أن يأخذه، فإن كان محتاجاً استعمله، وإن كان غير محتاج، استعمله أو أعطاه لغيره ممن هو أفقرُ منه وأحوج(٢).

وقد وردت نصوص السنة ببيان هذه الأحكام.

وقد ذكر الناظم هذه الأحكام، مبيناً معها الحال القلبي للسائل حينما يكون السؤال جائزاً، ونبَّه إلى مسألة اختص بها الصوفية، فقال:

وَمَا على السَّائلِ مِنْ تَأْوِيلِ ... لِأَجْلِ قَهْرِ النَّفْسِ وَالتَّذْلِيلِ
فَمَنْ أُولِي الأَذْواقِ والأَحْوالِ ... مَنْ كَانَ رَاضَ(٣) النَّفْسَ بِالسُّؤَالِ
قَالُوا: وَلا خَيْرَ إِذَنْ في العَبْدِ ... مَا لَمْ يَكُنْ قَدْ ذَاقَ طَعْمَ الرَّدِّ

---

(١) قال ﷺ: « من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس، لم تسد فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله يوشك الله له برزق عاجل أو آجل » حديث حسن أخرجه الترمذي رقم ٢٣٢٦، عن ابن مسعود ﷺ، ونحوه حديث صحيح عن أبي داود رقم ١٦٤٥ والحاكم رقم ١٤٨٢ بلفظ: « إِمَّا بِمَوْتٍ عَاجِلٍ أَوْ غِنًى عَاجِلٍ ». وعلى هذا تحمل النصوص التي حثت على غنى النفس والقناعة: كقوله ﷺ: « قد أفلح من أسلم، ورُزِقَ كفافاً، وقنَّعه اللهُ بما آتاه » أخرجه مسلم رقم ١٠٥٤ والترمذي رقم ٢٣٤٨، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وقوله ﷺ: « ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس » أخرجه البخاري رقم ٦٠٨١ ومسلم رقم ١٠٥١، عن أبي هريرة ﷺ، وقوله ﷺ: « إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلْق، فلينظر إلى من هو أسفل منه » أخرجه البخاري رقم ٦١٢٥ ومسلم رقم ٢٩٦٣، عن أبي هريرة ﷺ، وعند مسلم رقم ٢٩٦٣ أيضاً عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: « انظروا إلى مَن أسفلَ مِنكم، ولا تَنظُروا إلى مَن هو فوقكم، فهو أَجْدَرُ أن لا تَزْدَروا نِعمة اللهِ عليكم ».

(٢) يدل على ذلك ما رواه عبد الله بن عمر ﷺ عن أبيه عمر ﷺ قال: « كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء، فأقول: أعطه من هو أفقر إليه مني، فقال: خذه، فإذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه فتموله، فإن شئت كُلْه، وإن شئت فتصدق به، وما لا فلا تُتْبِعْه نفسَك » أخرجه البخاري رقم ٦٧٤٤ ومسلم رقم ١٠٤٥، وفي رواية مالك رقم ١٨١٤ مُرسَلاً أن عمر حين رَدَّه « قال: يا رسول الله، أليس أخبرتنا أن خيراً لأحدنا أن لا يأخذ من أحد شيئاً، فقال له ﷺ: إنما ذلك عن المسألة، فأما ما كان من غير مسألة فإنما هو رزق يَرْزُقُكَه الله ... ».

(٣) راض: رَوَّضَها وذَلَّلَها، من الرياضات والمجاهدات.

جرى عُرْفٌ عند بعض الصوفية في بعض البلاد في بعض الأزمان، أن يأمر الشيخُ تلميذَه السالكَ بطلب المال (الشحادة)، وذلك أن هذا الفعل يُذِل النفس ويذيبها ويحرق كبرياءها، ومقصود السلوك إخضاع النفس وإذلالها ومحق كبريائها، لتكون مستسلمة لأمر الله، لا يَهُمُّها نَظَرُ الخلْق، إنما يهمها صَلاح حالها مع الله، فإذا ذابت كبرياء النفس فقد تَمَّ السلوك وصَلُحَت النفسُ، فلا يكون في النفس معارضة بعد ذلك لأي أمر من أحكام الله ﷻ.

فإذا كان سؤالُ المالِ والتَّعَرُّضُ للناس لهذا المقصد فهو مقصد شرعي صحيح شريف نافع، لا سيما أنه لا يأخذ المال لنفسه، وإنما يأخذه للمحتاجين، وإن لم يُشعِرَ الناس بأنه يطلبه لغيره.

فالسؤال يكون مكروهاً إذا طلب لنفسه من غيره حاجة، وهنا هو لا يطلب لنفسه، فكيف إذا اجتمع مع ذلك مقصد تربوي عظيم، وهو قهر النفس وإذلالها ونفي كبريائها وشموخها، فليس لأحد أن يعترض على ذلك، أو يصفه بعدم المشروعية، فإنه يختصر السلوك كثيراً ويسرع بالسالك إلى التحقق بالعبودية والتواضع.

وسؤال السالك ليس صَنعةً يداوم عليها، بل يأمره به الشيخ مرات أو أياماً قليلة، حتى إذا تَخَلَّص مِن كِبرياء النفس؛ تركه، ولم يعد إليه.

وبعضُ الأكابر في التصوف الذين بلغوا مبلغاً عظيماً في الزهد والأحوال والأذواق؛ قد بلغوا ذلك وحصلوه من هذا الباب، فجلسوا يسألون الناسَ المالَ وقد حَطُّوا من أنفسهم ورؤيتِها وتعاظُمِها، فسألوا في الأسواق وعلى أبواب الناس والمساجدِ، وبعضهم كان من العلماء والخطباء، وبعضهم كان وزيراً أو ذا جاه، وبعضهم كان غنياً، فلما أذاقوا أنفسهم مرارة الذل والسؤال، انمحقت نفوسهم، وأعطاهم الله عطايا واسعة.

والناس منهم من يعطيه، ومنهم من يرده، ومنهم من يزدريه، ومنهم من يشتمه، وهو لا يلتفت إلى ذلك، وهو مسامح للناس، لأن له مقصداً شريفاً، وهو محو النفس، ولا يحمل في نفسه على الناس بل يعفو عنهم ويسامحهم، لأنهم لو علموا صدقه ومقصده وأنه لا يأخذ من المال لنفسه؛ لما أنكروا عليه ولما شتموه.

وكلما كان رَدُّ الناس له أكثر، وإساءتهم إليه أكبر، كلما استفاد في تَعَرُّضِه للناس بالسؤال، وأسرعت نفسه وكبرياؤها بالذوبان، وقد ذابت كبرياء بعض السالكين فصَفَتْ نفوسهم وخضعت من مرة واحدة، فلم يحتج أن يكرر السؤال والتعرض للناس.

وهذا الأمر وسيلة من وسائل السلوك، استعملها بعض المشايخ، والشيخ ينظر في حال السالك، فإن وجد ذلك مناسباً استعمله، وإلا فإنه يستعمل مع كل سالك ما يُناسِبُه، ومع كل زمان ما يلائمه.

وهذا لو فعله المشايخ في زماننا لَتَرَكَهُم المريدون وهجروا الطريق، كما إنه يصير محل اعتراض وإنكار وتهويش على التصوف، كما إنه يعطي صورة سيئة للإسلام أمام العالَم، فالعالم اليوم مفتوح، وكل صغير وكبير فيه ينتشر أمام الناس في الكرة الأرضية، والناس لا يعلمون مقصد هذا الأمر وإنما يحكمون على ظاهره، لذلك **فليس من الحكمة استعمال هذه الوسيلة في زماننا**، والله أعلم.

آداب الصوفي في سؤال المال

وَمَنَعُوا السُّؤَالَ لِلتَّكاثُرِ ... بَلْ حَكَمُوا عليه بِالتَّهاجُرِ
وَالقَوْمُ لَمَّا يَسْأَلُوا إلْحَافَا ... وَلا تكاثُرا وَلا جُزَافَا
بَلْ ذَاكَ كانَ مِنهمُ اضْطِرارا ... فَيَسْأَلُونَ القُوتَ وَالإفْطارا
وَأَدَبُ الصُّوفِيّ عِنْدَ المَسْأَلَةْ ... أَنْ يَدْخُلَ السُّوقَ إِلَيْهِ(١) يَسْأَلَهْ
لِسَانُهُ يُشِيرُ نَحْوَ الخلْقِ ... وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْحَقِّ

ولا يجوز أن يكون قصدُ السالك من سؤال المال أن يستكثر من المال، فمن فعل ذلك بهذا القصد فهو عاصٍ، وهو مذموم شرعاً، وقد نهى عنه النبي ﷺ، ومَنْ عُلِم منه أنه ينوي

---

(١) إليه: أي إلى الله، متوجها بقلبه إليه.

ذلك، فالصوفية يأمرون بهَجْرِه ومقاطعَتِه، ولا يَعُدُّونه منهم، فهذا ليس من فِعْل السالكين الصادقين، **ومن أدب الصوفي إذا سأل المالَ:**

١. أنه لا يُلِحُّ على الناس ولا يزعجهم ولا يثير غضبهم، كما وصف الله المحتاجين الصادقين السائلين: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

٢. ويقنع بما آتوه، ولا يطلب المزيد ممن أعطاه.

٣. ولا يطلب جزافاً بلا مبالاة، من غير مقصد صحيح، ومن غير حاجة موجودة تقتضي السؤال، فلا يطلب من غير ضرورة أو حاجة، له أو لغيره، ولا يجعل طلبه بلا حَدٍّ، فيتخذَ السؤالَ حِرْفَةً ويَدومَ عليه، فذلك ليس من شأن الصوفية.

٤. وإن كان محتاجاً ويطلب لنفسه، فلا يطلب إلا حينما يكون مضطراً، ولا يأخذ إلا قدر حاجته المُلِحَّة، فيأخذ قَدْرَ طعامِ يومِه، أو ثمن دَوائه مثلاً، ثم يكف عن السؤال.

٥. من الأدب القلبي للصوفي وهو يسأل أن يستشعر أنه يطلب من الله لا من الناس، فيده تمتد للناس ولسانه يخاطب الناس، لكن قلبه متوجه إلى الله بالسؤال أن يعطيه ويرزقه، وقلبه يرى أن قلوب الناس بيد الله، فهو يحركهم، وهو إن شاء حَنَّنَهم عليه فأَعْطَوْه، وإن شاء صَرَفَهم، ولا يعترض على الله فيما قَدَّرَ له مِن الرزق، ولا يَذُمُّ الناسَ فيما خَرَجَ منهم أو لم يَخرج.

وَكَرِهُوا سُؤَالَهُ لِنَفْسِهْ ... ثُمَّ أَبَاحُوهُ لِأَهْلِ جِنْسِهْ
وَلَمْ يَعُدُّوهُ مِنَ السُّؤَالِ ... لَكِنْ مِنَ العَوْنِ على الأَعْمَالِ
إِذْ كانَ خَيْرُ الخَلْقِ في أَتْرَابِه[1] ... يَسْأَلُ أَحْياناً إلى أَصْحابِهِ
لَمْ يَتَّصِفْ بِصِحَّةِ السُّؤَالِ ... مَنْ آثَرَ الأَخْذَ على الإِبْذَالِ

(١) أترابه: أقرانه، وهم الأنبياء والرسل.

٠٦ ويكره أن يطلب المال لنفسه، إذا لم تكن له حاجة، أو كانت حاجته مما يستطيع الصبر عليه، وإنما يسأل الصوفي لغيره من المحتاجين، فإذا أخذ المال بذله إلى المحتاجين، ولم يأخذ منه شيئاً.

والسؤال بهذا الوصف لا يُعَدُّ من السؤال المنهي عنه، وإنما هو في الحقيقة عون للآخرين ورعاية للمحتاجين، وهو ما كان يفعله النبي ﷺ وإخوانه الأنبياء إذ كانوا يطلبون من الأغنياء لأصحابهم المحتاجين(١).

٠٧ ولا يكون السالك الصوفي على الطريق الصواب؛ إذا كان يحب أن يأخذ المال، ولا يحب أن يبذله، فالأصل في الصوفي أن يكون كريماً معطاءً محسناً، فمن كان بخيلاً مانعاً فليس بصوفي(٢)، فإذا جمع مالاً فإنه يبحث عن المحتاجين والمستحقين فيعطيهم، ولا يؤثر نفسه.

وإن استطاع أن يستغني عن السؤال بعمل أو كسب، فإنه لا يلجأ إلى السؤال إلا أن يكون لمقصد صحيح وبحكم صحيح، ليكون غنياً معطياً خيراً من أن يكون فقيراً آخذاً، قال ﷺ: « اليد العليا خير من اليد السفلى، واليدُ العليا المنفقةُ، والسفلى السائلةُ »(٣).

---

(١) فقد روي أن النبي ﷺ جاءه قومٌ عراةٌ مُجْتابي النِّمار [مجتابي النمار: أي مخرقي الثياب، ثيابهم ممزقة مهترئة، والنمار: جمع نَمِرَة، وهي ثوب] والعَباء، فانزعج النبي ﷺ لذلك، فخطب بالناس، فأمرهم أن يتصدقوا، وقال: « تصدق رجل مِن ديناره، مِن درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره، حتى قال: لو بشق تمرة »، فلما تصدق الناس بكومين من طعام وثياب؛ فَرِح ﷺ، أخرجه مسلم رقم ١٠١٧ عن المنذر بن جرير عن أبيه ﷺ. وجاء النبي ﷺ إلى النساء يوم عيدٍ بعد الصلاة، فأمرهن بالصدقة، فقال: « تَصَدَّقْن»، فتصدقت النساء بحليها وذهبها، أخرجه مسلم رقم ٨٨٥، عن جابر بن عبد الله ﷺ. وأخرج البخاري رقم ١٣٩٧ ومسلم رقم ١٠٠٠ عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قالت: « كنت في المسجد فرآني النبي ﷺ فقال: تَصَدَّقْنَ ولو من حُلِيِّكُنَّ ».

(٢) روى البخاري ومسلم عن حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ الْخُزَاعِيِّ « قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ »، وقد فسر الجواظ: بأنه الجموع المنوع. ونهى النبي ﷺ عن « مَنْعٍ وهات » أخرجه البخاري رقم ٤٦٣٤ ومسلم رقم ٢٨٥٣، عن حارثة بن وهب الخُزاعي ﷺ، ومعناه: الذي يطالب الناس بحقوقه ولا يعطيهم حقوقهم، فيبخل عليهم.

(٣) أخرجه البخاري رقم ١٣٦٢ ومسلم رقم ١٠٣٣، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فالتصوف لا يعني الفقر، وإنما يعني القيام بحق الله، فمن كان غنياً قام بحق الله فبذل المال في الواجب والمندوب، وشَكَرَ الله، ولم يُعَظِّم الدنيا والمال، بل يزهد فيهما، ومن كان فقيراً صبر ورضي وقَنع ولم يطمع، ولم يأخذ مالاً مِنْ حَرام(١).

وَالشُّغْلُ دُونَ الكَسْبِ بِالعِبادَةِ ... مَحْضُ التَّوَكُّلِ، وَرَأْيُ السَّادَةِ(٢)
ثُمَّ السُّؤَالُ آخِرُ المَكاسِبْ ... وَهْوَ بِشَرْطِ الاضْطِرارِ وَاجِبْ

٨. وإذا كان المسلم والسالك مستغنياً عن العمل والكسب والسؤال؛ فالأَوْلى له أن ينشغل بالعبادة والتَّقَرُّبِ إلى الله(٣)، إذ لا حاجة له إلى العمل(٤)، ولن يكون عالَة على أحد، ما دام يملك من المال ما يكفيه، أو يجد مَن يُغْنِيه ويُنفِق عليه، بلا مِنَّة ولا سؤال(٥).

ومن آثر العمل والتكسب، وهو مستغن عن ذلك؛ على العبادة، فهو مخدوع، فإنْ شَغَلَه الكسبُ عن الواجبات فهو آثم وخاسر ويستحق العقاب، وإنْ شغلَه عن المندوبات فهو

---

(١) قال ﷺ : « ليس من عمل يقرب إلى الجنة؛ إلا قد أمرتكم به، ولا عمل يقرب إلى النار؛ إلا قد نهيتكم عنه، لا يستبطئن أحد منكم رزقه، إن جبريل عليه السلام ألقى في رَوْعي أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، فاتقوا الله أيها الناس، وأجملوا في الطلب، فإن اسْتَبْطَأَ أحدٌ منكم رزقَه؛ فلا يطلبه بمعصية الله، فإن الله لا يُنالُ فضلُه بمعصية » حديث صحيح، أخرجه الحاكم رقم ٢١٣٦ عن عبد الله بن مسعود ﷺ. (رَوْعي): نفسي، (أجْمِلوا): أي اطلبوه طلباً جميلاً، لا بالحرام، ولا بالهمّ والاستعجال، وفي رواية لأبي يعلى في مسنده رقم ٦٥٨٣ عن أبي هريرة ﷺ توضح معنى الحديث: « فأجملوا في الطلب، خذوا ما حل، ودعوا ما حرم ».

(٢) معنى البيت: أي والشغل بالعبادة، دون الكسب، أي بتركه، وذلك عند عدم الحاجة إليه؛ من التوكل، وذلك أن كثيراً من الناس مستغن عن الكسب والعمل وطلب الرزق، فلا يعمل لحاجة ولا ليتصدق على غيره ولا لاضطرار الأُمَّة إلى إنتاجه أو ماله، بل خوفاً من الرزق، فلا يثق بالله ولا يتوكل عليه، ويظن أنه بعمله الزائد وطلبه للمال الزائد سيحمي نفسه من الفقر والخطر.

(٣) ومثله طلب العلم والتعليم والدعوة إلى الله، إن كان من أهل ذلك.

(٤) إلا أن يكون العمل فرض عين أو كفاية في حقه، أو يُضْطَر للعمل لأجل أن يُحَصِّلَ مالاً لينفقه في واجب أو في سبيل الله.

(٥) نجد في زماننا زوجات يغنيها زوجها، ومع ذلك فهي تُصِرُّ على أن تعمل عملاً؛ لم يُفْرَضْ عليها شرعاً ولا ضرورةً، بل ربما هو عملٌ فيه فتنة أو نَصْر لأهل الباطل، بدلاً من أن تتفرغ للعبادة وإصلاح البيت وتربية الأبناء.

واهِمٌ ومُضَيِّعٌ لخيرٍ كثير ونعيمٍ في الآخرة كبير، وهو علامة على عدم التوكل على الله، وعلامة على طاعة الشيطان ووساوسه التي تُخَوِّفُ مِن الفقر(١).

والحاجة إلى العمل، ليست مختصة بحاجة الإنسان بمفرده، بل تتعدى إلى حاجة أهله وإلى حاجة الأمة، فإذا كان مستغنياً بنفسه، لكن أهله محتاجون، وجب عليه التكسب ليقوم بحقهم والنفقة عليهم، وإذا كان مستغنياً بنفسه وأهله، والأمة محتاجة إلى الإنفاق لأمر عام، ولم يوجد من يقوم بالنفقة المطلوبة للأمة، وجب على المسلم أن يعمل ويطلب الغنى ليستطيع النفقة في حوائج الأمة(٢)، فالزهد لا يعني أن يكون المؤمن سلبياً تجاه أمته.

والتوكل لا يعني ترك العمل والكسب، ولا يتعارض معه، فالمسلم يعمل ويكتسب ويتوكل على الله، ويرى الرزق مِن الله لا مِن نفسه ولا مِن عمله، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذا كان الشَّرْعُ يُفْتِيهِ بجواز ترك العمل وبجواز السؤال، فإنه أيضاً يجب أن يكون متوكلاً على الله، فلا يقلق على رزقه، ولا ينظر إلى الخلْق ولا يعتمد على الناس.

لأن المؤمن يعلم أن الله متكفل به، وقادر على رزقه، وقد وعده بذلك ما دام يَعمَلُ بمُرادِه، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال ﷺ : « لو أنكم تَوَكَّلونَ على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتعود بطاناً »(٣).

(١) قال تعالى ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

(٢) ولأجل ذلك كان الصحابة رضي الله عنهم؛ إذا أمرهم النبي ﷺ بالإنفاق، فإن بعضهم ممن لا يستطيع الإنفاق؛ يحتطب أو يعمل، وهو غير محتاج لنفسه وأهله، ليكتسب مالاً فيتصدق به، عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال: « كان رسول الله ﷺ يأمر بالصدقة، فيحتال أحدنا حتى يجيء بالْمُدِّ، وإن لأحدهم اليوم مئة ألف، كأنه يُعَرِّضُ بنفسه » أخرجه البخاري ٤٣٩٢، وفي رواية أحمد ٢٢٤٠٠ ابن ماجه ٤١٥٥ « فينطلق أحدنا فيُحامِل [يتحامل] ».

(٣) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٠٥، والترمذي رقم ٢٣٤٤، وابن ماجة رقم ٤١٦٤، وابن حبان رقم ٧٣٠، والحاكم رقم ٧٨٩٤، عن عمر بن الخطاب ﷺ، وبعضهم لفظه: «وتروح بطاناً».

وعند الصوفية مسألة اختصوا بها وأنكرها عليهم بعض العلماء، فقد أجازوا للسالك أن يتفرغ، وأن يترك العمل والتكسب، وأن يَسألَ الناس، وهو في مرحلة الطلب والسلوك لإصلاح النفس[١].

وقالوا: إن إصلاح النفس من عيوبها وكبائرها الظاهرة والقلبية فرض عين، فيُقدَّم على طلب الدنيا، ويكون من واجب الناس أن يعطوا هذا الضعيف الفقير[٢] من صدقاتهم أو أوقافهم حتى يَبْلُغَ صَلاحَ نفسِه.

فإذا حَصَّلَ الحدَّ الأدنى من الصلاح؛ وجب عليه أن يقوم بنفسه وأن يَعْمَلَ ويَتَكَسَّبَ، ولم يجز له التفرغ والسؤال[٣].

ويكون السالك منشغلاً في هذه الفترة ـ ويفترض أن تكون قصيرة ـ بالعلم والعبادة وملازمة الشيخ، حتى إذا تحقق بصحة الاعتقادِ، وتَعَلُّمِ الضَّروريِّ من الفقه، وإقامةِ الفرائض، وتركِ المحرمات والكبائر، والتطهرِ مِن فواحش القلب، والتخلصِ من سوءِ الأخلاق؛ أمره الشيخ بالاكتساب والعمل، مع الالتزام بالفرائض والاجتهاد في العبادة والنوافل قدر ما يستطيع.

أما إذا رآه الشيخ كسولاً ولا يجتهد في طلب العلم الضروري، ولا في أعمالِ التقربِ التي تُطَهِّرُه وتُزَكِّيه وتُصْلِحُه؛ فإن الشيخ يأمره بالتَّكَسُّبِ، ولا ينفق عليه من صدقات الناس وأوقافهم.

---

(١) وإذا صدق التلميذ وكان شيخه مؤهلاً بالعلم والتربية؛ فإن ذلك لا يحتاج إلى زمن طويل، بل ربما يكفي فيه أيام، إذا لازم رباط الشيخ وأطاعه واجتهد وأخلص، قال العلاوي رحمه الله:

يُوافِقْني في أيامْ — لا نَطْلُبْ منه أعوامْ
فإنْ حَقَّقَ المَرَامْ — يكُونُ عَبْداً للهْ

(٢) وقد يكون هذا المقبل على السلوك مذنباً أو مجرماً تاب إلى الله، فحاجته إلى التربية والتعلم وإصلاح النفس أكبر، فإعطاؤه أولى، فربما لو تركناه لعاد إلى ذنوبه وإيذائه وتَعدِّيه وظلمه وإجرامه وإفساده.

(٣) إلا إذا كان ممن يرى الشيخ فيه أهلية لأن يُعِدَّه لمقامٍ أعلى، ليصير مُربياً ومُصلحاً ومُعلّماً وداعية وقُدْوة، فيجوز أن يبقى متفرغاً لأنه يُعَدُّ لفرضٍ من فرائض الكفاية على الأمة، وهو إيجاد المربين والمصلحين.

وقد شبه الصوفية هذا السالك بالطالب الجامعي، الذي يكون قد بلغ سن الشباب والفتوة والقدرة على العمل، ومع ذلك يصبر عليه الناس، وينفقون عليه لتحصيل شهادة علمية تكون وسيلة له إلى طلب الدنيا والتكسب، ولم يطالبوا هذا الطالب أن يبحث عن عمل، وهو قادر على العمل، بل تجد بعضَهم يُعطِيه من مال الزكاة لِيُتِمَّ تعليمَه، ولم يقولوا لطالب علم الطِّبِّ في السنة الثالثة مثلاً: لقد علمت أشياء نافعة للناس، فاخرج إليهم عاملاً بطبك ومعالجاً لهم بما معك من علم، فإنك تقدر على النفع، ولو قالوا له ذلك؛ لكان ضرره على الناس أكبر من نفعه، وقد يصبر الآباء على الإنفاق على أبنائهم في الدراسات العليا، وهم قادرون على العمل، ولا يجبرونهم على ترك الدراسة لأجل العمل، بل ينفقون عليهم، رغبة في أن ينالوا قدرات أكبر وعلماً أوسع، يكون نافعاً لهم وللناس.

فكذلك الصوفيُّ السالكُ الْمُرِيدُ الصادق، على الناس أن يصبروا عليه، وينفقوا عليه، لأنه يؤدي ضرورةً أشدَّ من ضرورة الشهادة العلمية، فهو يعمل لما يُصلح به آخرته وعلاقته مع الله.

وإذا صبرنا عليه أكثرَ صار صالحاً في نفسه مُصْلِحاً لغيره ومؤهلاً لتربية الآخرين، فيكون قد حقق فرض عين وفرض كفاية، فالأمة تحتاج أمثال هؤلاء الصالحين الْمُرَبِّين، كحاجتِها إلى العلماء، وحاجتِها إلى رجال الأمنِ والجيش والجهاد، الذين تُنفِقُ عليهم الأُمَّة والشعبُ والدولةُ.

٩. وإذا كان السؤال وطلب المال عن احتياج، فهو مشروع شرعاً، لكن لا يلجأ إليه المسلم والسالك إلا إذا اضطر إلى ذلك، فإن وجد سبيلاً آخر كالكسب والعمل وإحياء الأرض الميتة والأخذ من المباحات والاحتطاب[(١)]، فلا يجوز أن يلجأ إلى السؤال إذا وجد سبيلاً غيره، فإن لم يجد وخشي على نفسه الهلاك صار السؤال وطلب المال واجباً عليه، لِيَحفظَ نفسَه وجسده مِن الفَوات.

---

(١) قال ﷺ: « لأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَداً فَيُعْطِيَهُ، أَوْ يَمْنَعَه » أخرجه البخاري رقم ١٩٦٨ ومسلم رقم ١٠٤٢، عن أبي هريرة ﷺ، وزاد مسلم: « فيبيعها ».

المبحث التاسع
تَربيةُ الشيخ للمُريدِ
وتَدْرِيجُه في مراحل السلوك إلى أن يَصِير شيخاً

هذا المبحث أهم مباحث هذه المنظومة، وقد ذكر فيه النّاظِمُ رحمه الله مراحل السلوك التي يمر بها السالك من أول قَدَمٍ له عند الشيخ، إلى أن يصير شيخاً، مبيناً كيف يُرشِد الشيخُ تلميذَه، وكيف يُعطيه من الوصايا والنصائح والأوامر والأوراد ما يناسب حاله ومقامه، ومتى يُدخِلُه الخلوة، وماذا تكون ثَمَرَةُ كلّ ذلك.

وهذه المراحل لا تُقَدَّر بزمن، وإنما هي عمل واجتهاد وصفات وتحقق، فربما يقطعها بعض السالكين في أيام بصدقهم وقوة إقبالهم واجتهادهم، وربما يُمضي فيها بعض السالكين ثلاثين سنة، وربما يموت سالك ويبلغ السبعين ولم يجاوز المرحلة الأولى، لذلك قيل: ليس العِبرة بمن سَبَق(١)، وإنما العبرة بمن صَدَق.

---

(١) أي لا تأتي الفائدة لمن سبق زماناً وانتساباً، وإنما عملاً وحالاً.

المرحلة الأولى: مرحلة الطالب

فإنْ أَتَى القَوْمَ أَخُو فُتُونِ[١] وَقالَ: يا قَوْمِ أَتَقْبَلُونِ؟
تَقَبَّلُوهُ صادِقاً أَوْ كاذِبا إِذْ كانَ مَحْتُوماً عَلَيهِمْ وَاجِبَا
وَحَذَّرُوهُ مِنْ رُكُوبِ الإِثْمِ وَأَمَرُوهُ بِاقْتِباسِ العِلْمِ
وَأَمَرُوهُ بِلُزُومِ الطَّاعَةِ وَالماءِ وَالقِبْلَةِ وَالجَمَاعَةِ[٢]
وَقَرَّرُوا فِيهِ شُرُوطَ التَّوْبَةِ وَأَمَرُوهُ بِلُزُومِ الصُّحْبَةِ
ثُمَّ أَمَدُّوهُ بِعِلْمِ الظَّاهِرْ حَتّى اسْتَقامَتْ عِنْدَهُ السَّرائِرْ[٣]

فإذا جاء إلى الصوفية وإلى الشيخ أَحَدٌ كان بعيداً عن الله، أو غارقاً في المعاصي والشهوات، وطلب منهم أن يقبلوه فيهم، وأن يقبله الشيخ سالكاً عنده، قَبِلَه الشيخُ ورَحَّبَ به الطلاب، وأكرموه، وأشعروه بالمحبة والرغبة فيه بينهم، وعاملوه كأنه مألوف معروف بينهم منذ زمن، سواء كان صادقاً يريد أن يُصْلح نفسَه، أو كان كاذباً أتى لِغَرَضٍ أو طمعٍ أو تسليةٍ أو نيةٍ فاسدة، فمن الواجب عليهم أن يتقبلوه بينهم، ويَسْعَوا في إصلاحِه وإصلاح نيته وقَصْدِه، كما كان المنافقون يجلسون مجلسَ النبي ﷺ ولا يطردهم، عسى أن يُصْلِحَهم ويَعِظَهم، ويُصلح وجهتهم إلى الله.

ويُوَجِّهُهُ الشيخُ وإخوانُه بِعَدَدٍ مِن التوجيهات التي يُخَاطَبُ بِها عامَّةُ المسلمين:

١. أن يجتنب المعاصي والآثام، ويحذره منها ويبين له عاقبتها الوخيمة.

٢. أن يتعلم من علوم الدين والشريعة ما يلزمه، في العقيدة والفقه والتزكية.

---

(١) القوم: الصوفية، وهو مصطلح، أخو فتون: مفتون وضائع قبل ذلك.

(٢) اقتباس العلم: طلبه، الماء: كناية عن الوضوء، والقبلة: كناية عن الصلاة، والجماعة: صلاة الجماعة.

(٣) قوله: أمدوه بعلم الظاهر، أي بعد أن أمروه باقتباس العلم؛ هيأُوا له ذلك فعَلَّموه، السرائر: البواطن والقلب وما فيه مما يخفيه الإنسان.

٣. أن يلتزم بالفرائض[1]، ويعمل بطاعة الله.

٤. أن يداوم على الوضوء، فكلما انتقض وضوءُه توضأ، ففيه عَوْنٌ على طهارة الباطن، وقد سنَّه النبي ﷺ.

٥. أن يحافظ على الصلوات الفرائض والرواتب، ويكثر من التنفل فيها.

٦. أن يحرص على صلاة الجماعة في المسجد.

٧. أن يتوب إلى الله توبة صادقة، ويحقق شروط التوبة؛ فيترك الذنوب والمعاصي كلها، ويندم على ما فات منه، ويعزم على عدم العودة إليها، ويُكثر من الاستغفار، وإذا كان اعتدى على أحد أو أكل حقه، فيجب عليه أن يرد الحقوق إلى أصحابها، أو يُمَكِّنَهم من الاقتصاص منه، أو يطلب مسامحتهم.

٨. أن يلازم الشيخ وإخوانه من السالكين، ويحرص على مجالس الشيخ وصحبته وملازمة دروسه.

ويُعَلِّمُه الشيخُ العلومَ الشرعية التي يحتاجها، فيعلِّمه ما يُصحِّح اعتقاده، ويعلمه الوضوء والصلاة، وقراءة القرآن، وغيره ذلك مما يحتاجه، أو يَدُلُّه الشيخُ على مَن يُعلِّمه ذلك، وقد يُخصِّص الشيخُ واحداً من إخوانه يكون فقيهاً وعالماً، ليقوم بهذه المهمة كلما جاء طالب جديد.

فيلتزم الطالب بهذه الأعمال، حتى يصيرَ مستقيماً على الشريعة وأحكامها، ويكونَ قلبُه راغباً بذلك، فيخضع لله، ويستسلم لأحكامه.

وإذا تحقق الطالب بذلك فقد حَصَّلَ رُتبةَ المُلْتزِم من عامة المسلمين.

ومما يُذَكَّرُ به الطالبُ المبتدئ ويُؤَكَّدُ عليه:

١. أن يَحْذَر من الشرك والكفر وما يناقض الإيمان، إذا كان واقعاً بشيء من ذلك، كمسبة الربِّ سبحانه، أو السخرية من الدين، أو مناصرة الكافرين ومحبتهم.

---

(١) فيصلي ويزكي ويصوم ويحج إن كان مستطيعاً، ويقوم بفرائض العين، ويبحث عن فرائض الكفاية التي عليه ليقوم بها.

٢. أن يحذر من البدعة.

٣. أن يَترك الصحبة الفاسدة إن كان له صحبة سيئة.

٤. أن يَحْذَر من طاعة الشيطان وهوى النفس، ويهتم بما يعين على التزكية، من اعتدال في طعام ونوم، وحفظ اللسان من الكلام الباطل واللغو.

٥. أن يحرِص على ترك الأخلاق السيئة والعادات القبيحة، ويحرص على التخلق بالأخلاق الصالحة والآداب الكريمة.

٦. أن يتعرف على حقيقة الدنيا، ليُخرج من قلبه التعلق بها، فيأخذ منها حاجته وفق أمر الله، ولا يجعلها هدفاً ومقصداً، ويستعمل ما زاد عن حاجته في طاعةٍ تنفعه في آخرته، ويتعلم ما يعرّفه على ربه وآخرته، ليتعلق قلبه بهما.

٧. أن يتأكد من أن عملَه الدنيوي مباح، وأن أمواله تعمل في حلال، وعليه أن يدرس ما يتعلق بأعماله من أحكام فقهية، أو يسأل أهل العلم عنها.

٨. أن يطالع في كتب التزكية المحررة وفق العلم الشرعي، والتي تنهج منهجاً سليماً؛ لتكون هذه الكتب مُساعداً ومُذَكِّراً ودليلاً.

قاعدة التخلي قبل التحلي:

يُشدِّد الشيخُ على السالكِ في ترك المعاصي أكثر مِن أمره بالطاعات، على قاعدة: التخلي قبل التحلي، أي من حيث الأهمية والرُّتبة، لا من حيث الوجود، فيجب على السالك أن يبدأ بهما معاً.

والقاعدة مأخوذة من قول النبي ﷺ: « فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأْتوا منه ما استطعتم »[1]، ومن قوله ﷺ: « اتق المحارم تكن أعبد الناس »[2].

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٨٥٨ ومسلم رقم ١٣٣٧، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) حديث حسن، أخرجه أحمد رقم ٨٠٨١ والترمذي رقم ٢٣٠٥، عن أبي هريرة ﷺ.

ومن أخطر العوائق التي يعتني السالكُ المبتدئ بمعالجتها ويأمره الشيخ باجتنابها:

١. **يحذر مِن فتنة النساء، ويغض بصره**، ويحرص على العفة **والزواج** المبكر إن كان مستطيعاً.

٢. **يترك أصحاب السوء**، فلا يخالطهم حتى لا يتأثر بهم، ويجتنب مجالس الباطل والفساد واللهو واللغو الذي لا ينفع.

٣. **يقلل من خلطته بعامة الناس**، ما دام ذلك يؤثر على قلبه وإقامة عباداته.

٤. **يحذر من تضييع أوقاته** بالتلفاز والصحف والانترنت والأفلام والمسلسلات البرامج الملهية والزيارات غير الضرورية.

٥. **يقلل من كلامه** ما لم يكن خيراً أو ذِكْراً حتى لا يشغله لسانه عن الطاعة والذكر.

٦. **يحذر من أكل الحرام، ويقلل من طعامه** حتى لا يثقله جسده عن العبادة.

٧. **يحذر من خواطره أن تكون من الشيطان**، فلا يستجيب لخاطر إلا إذا علمه موافقاً لأمر الله.

٨. يأخذ حاجاته من دنياه، **ويحذر من التعلق بها والغفلة بشهواتها وأموالها وجاهها** عن آخرته ومقصد حياته.

٩. **لا يلتفت إلى الناقدين** والمعترضين ما دام يعلم أنه على الحق.

١٠. **يحذر من الكسل والفُتور** ويعالجه.

ومما يعين السالكَ المبتدئَ على التوبة والتخلص من المعاصي والشهوات:

١. أن يعلم المذنب سعة رحمة الله، قال عز وجل: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣٢].

٢. مراقبة الخاطر السيء ورفضه، قال ﷺ : « وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء »[١].

٣. المبادرة إلى الاستغفار، عند ورود الخاطر الذي يدعو إلى المعصية، ومباشرةَ عند المعصية إذا وقعت منه، قال ﷺ : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه »[٢].

٤. مجاهدة النفس في ترك المعصية، والله يعين، قال ﷺ : « ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يُصبره الله »[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٥. على المسلم أن يقطع هذه أسباب المعصية ويجفف منابع الشهوة، قال ﷺ : « والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »[٤].

٦. فِعل الطاعات والأعمال الصالحة يساعد على ترك المعاصي، ﴿ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤].

٧. اتخاذ الصحبة الصالحة، والحرص على البيئة الصالحة كبيئة المسجد والعلم وأهله، فالصحبة تمنع من الوقوع في الذنوب، وهي علاج للخروج من الذنوب.

٨. إن خروج الشهوة من القلب والتخلص التام من المعصية لا يتم ـ غالباً ـ إلا بأحد أمرين: غَلَبة الحب لله والشوق إليه، أو غلبة الخوف من الله والهيبة منه. فذَكِّر نفسك بالمعاني التي تزيد الحب لله والخوف منه.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٤٤.
(٢) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٣٣٣٤ وابن ماجه رقم ٤٢٤٤، وابن حبان رقم ٩٣٠، والحاكم في المستدرك رقم ٦.
(٣) أخرجه البخاري رقم ١٤٠٠ ومسلم رقم ١٠٥٣.
(٤) أخرجه البخاري رقم ١٠.

المرحلة الثانية: مرحلة السالك

حَتَّى إِذا انْقادَ إِلى الإِفَادَةِ ... وَكادَ أَنْ يَعْلُوَ لِلإِرادَةِ
إِذْ لِلْمُرِيدِ عِندهُمْ حُدُودُ ... لأَجْلِها قِيلَ لَهُ مُرِيدُ
فَعِنْدَها رُدَّ إِلى الأَوْرادِ ... كَالصَّمْتِ وَالصَّوْمِ مَعَ السُّهادِ(١)
وَعامَلُوهُ بِالمُعامَلاتِ ... إِذْ عَلِمُوا مِنْ نَفْسِه العِلّاتِ(٢)
وَلَمْ يُحِيلُوهُ على الحَقِيقَةِ ... إِذْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَوْفِيَ الطَّرِيقَةِ
لَكِنْ أَحالُوهُ على الأَعْمالِ ... لأَجْلِ ما فِيها مِنَ النَّوالِ
إِذِ الطَّرِيقُ العِلْمُ ثُمَّ العَمَلُ ... ثُمَّ هِباتٌ بَعْدَها تُؤَمَّلُ(٣)

فإذا استقام الطالب، وصار مُرِيداً لمزيد من الخير والتزكية، راغباً في مقام الإحسان والصديقية، حريصاً على كل ما يُفِيدُه، مُرِيداً للتحقق بما يريده الله منه، مُرِيداً لوجه الله، مُحباً لما يقربه إلى الله، لا وِجْهة له في الدنيا ولا هدفَ له إلا إرضاءَ اللهِ سبحانه؛ فعندئذ يسمى الطالبُ **مريداً**، ويستحق هذه التسمية، ويكون صالحاً للسيرِ إلى الله، والسلوكِ في طريق التصوف، لطلب المقامات العالية.

فإذا آنَسَ الشيخُ مِن الطالب ذلك، فشعر أن نيته صادقة، ووجد فيه استعداداً لمزيد من العمل والإقبال، فيعطيه من الأعمال والأوراد والنصائح ما يزيده ويُفِيده ويرقيه.

فيأمره بأعمال السالكين.

فيأمره بأذكار الصباح والمساء، وأذكار المناسبات، والإكثار من الذكر والدوام عليه،

---

(١) السهاد: السهر، وهو هنا كناية عن قيام الليل.

(٢) العلات: الأمراض، والمقصود هنا علات النفس المعنوية وأمراض القلب ونقص الدين وسوء الخلُق.

(٣) الهبات: العطايا والمواهب من الله، تؤمل: تنتظر ونتوقع من فضل الله وأملاً بالخير منه.

ويأمره بالإكثار من الصيام، ويأمره بقيام الليل[(١)].

ولا يزال الشيخ وإخوانه يعاملونه بتلطفٍ ورعايةٍ وحسنِ خلق، ترغيباً له في السلوك والثبات عليه، لأن ذلك واجبُهم، ولأنَّ هذا السالك لا زال ضعيف الحال، فقد يستثقل السلوك ويتركه، فيعاملونه بما يليق بحاله، من قوة أو ضعف، أو ذكاء أو بلادة، أو اجتهاد أو كسل، وغير ذلك، ولا يفتحون معه موضوعات من علوم المعرفة فوق قدرته على الفهم، لئلا يكون ذلك مُنَفِّراً له أو مثيراً لشكوك وشبهات تطرأ عليه.

ويراعي الشيخ في الأوراد التي يعطيها للسالك في هذه المرحلة حاله وحاجته.

فإذا كان لا يزال يقع في الذنوب، أو كانت أثقال الذنوب لا زالت مؤثرة عليه، أمره أن يكثر من الاستغفار.

وإذا وجد أن اتباعه وحبه للنبي ﷺ فيه ضعف، أمره بالإكثار من الصلاة على النبي ﷺ.

وإذا وجد اعتماده على الأسباب كثيراً، أمره بالإكثار من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذا وجد فيه كبراً ونظراً إلى نفسه، أمره أن يكثر من قول: الحمد لله.

وإذا رآه قليل التعظيم لله، أمره أن يكثر من قول: الله أكبر.

---

(١) جميع العبادات لها أثرها في إصلاح النفس الإنسانية وزيادة التقوى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ولكل عبادة أثرها الخاص، فالصلاة فيها ذكر وخضوع، والزكاة فيها إحسان وزهد، والصوم فيه مجاهدة للشهوات، والحج فيه ذكر وشكر واستسلام، والقرآن فيه علم وموعظة، والذكر فيه حضور وتعظيم، والتفكر فيه مراجعة للنفس ومحاسبة، والدعاء فيه تذلل وافتقار، والمسلم والسالك يحتاج إلى كل ذلك؛ ليكون صالحاً، كما يحتاج إلى طاعة الله في جانب المعاملات والأخلاق، وفيما يُصلح أمر الأمة، والقيام بكل حكم شرعي له أثره الطيب ومشاركته في إصلاح النفس.

والشيخ يتعاهد السالكين فيُذَكِّرهم مرة بعد مرة بفضائل الأعمال والعبادات والأذكار، ويذكرهم بواجباتهم الشرعية العبادية والمعاملاتية، وبما يتنفلون به ويتقربون إلى الله.

وإذا رآه خائفاً وقلقاً من أمر دنيوي؛ أمره أن يكثر من قول: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾[غافر: ٤٤].

وإذا رآه يمدح نفسه، أمره أن يكثر من قول: ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [هود: ٨٨]، وهكذا.

فإذا اجتهد في الأوراد والأعمال فسيجد لها ثمرات وعطايا من الله ومزيداً من الإقبال، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد: ١٧]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحديد: ٢٨]، ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧]، وكما قال أبو أمامة ﷺ بعدما أمره النبي ﷺ بالصيام، فصام زَمَناً، ثم جاء فقال: « أمرتنا بالصيام فأرجو أن يكون قد بارك الله لنا فيه »(١)، وكذلك من تكلف الإخلاص أكرمه الله بكمال الإخلاص، فصار سجية عنده(٢).

فالطريق علم ثم عمل ثم هِبات وعطايا من الله.

ومن تلك الهِبات التي قد يُعْطِيها الله للسالك: التوفيق في الحياة، والتثبيت على العمل الصالح، وحب الطاعة، والانشراح والطمأنينة، والرؤى الصالحة، والإلهام، والفراسة، وكشف البصر والسمع والشم، والكرامة، والولاية الصغرى والكبرى.

وبعضُ ذلك يُعطيه اللهُ للسالكِ في هذه المرحلة، وبعضُه يأتي في مراحل لاحقة.

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٢١٩٤ عن أبي أمامة الباهلي ﷺ. وقد مر الحديث بطوله.

(٢) والنصوص التي ذكرناها هنا تدل بعمومها على ذلك، وقد روي حديث قدسي لا يصح: « الإخلاص سر من سري، استودعته قلب من أحب، لا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده »، والنصف الأخير من النص مردود بقوله تعالى: ﴿ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

أهم الأعمال والأوراد
التي يطلبها الشيخ من السالك في هذه المرحلة
البرنامج العملي اليومي لتزكية النفس
مستنبطاً من الكتاب والسنة

العـمل	الوقت
المحافظة على الوضوء	دائماً
صلاة الفجر في جماعة مع الخشوع	بعد أذان الفجر
الجلوس في المسجد بعد صلاة الجماعة إلى ما بعد طلوع الشمس ثم صلاة ركعتين	بعد صلاة الفجر إلى ما بعد طلوع الشمس بقليل
قراءة من القرآن مع التدبر	بعد صلاة الفجر إلى ما قبل طلوع الشمس بقليل
التسبيح: سبحان الله وبحمده مئة مرة	لمدة خمس دقائق قبل طلوع الشمس
أذكار الصباح المأثورة	لمدة خمس دقائق قبل طلوع الشمس
الاستغفار مئة، والصلاة على النبي ﷺ مئة، والتهليل مئة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير	من طلوع الشمس إلى ثلث ساعة
صلاة الضحى	بعد منتصف الوقت بين الشروق والظهر، وفي مذاهب: بُعيد طلوع الشمس، إلى ما قبل الظهر بقليل
الإكثار من الذكر والمداومة عليه	خلال النهار والليل ما لم يكن مشغولاً
أداء الجمعة والصلوات المفروضة في أول وقتها جماعة في المسجد	المداومة على ذلك دائماً

الحرص على السنن الرواتب	قبل الفرائض وبعدها
التسبيحات ٣٣ والتحميدات ٣٣ والتكبيرات ٣٣ مع التهليل مرة	عقب الصلوات المفروضة
الحرص على أذكار وأدعية المناسبات	كل واحدة عند مناسبتها
الحرص على الأخلاق والاداب الطيبة والمعاملات الشرعية	دائماً
الصيام مع الاعتدال في الطعام	يوم الإثنين والخميس وثلاثة أيام من كل شهر
الصدقة والأقربون المحتاجون أولى بها	لمحتاج فقير أو لدعوة إلى الله أو لتعليم الخير أو للجهاد في سبيل الله
طلب العلم الشرعي	حيثما تيسر له صحبة العلماء وملازمتهم
زيارة أخ في الله أو زيارة مريض	حيثما أمكن
التناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الحكمة	عند لزومه والقدرة عليه
أن يقوم بأعماله الدنيوية ليؤدي حق النفقة التي أوجب الله عليه لنفسه ولأهله مع الإتقان والمراقبة لله	بقدر حاجته وبما لا يضيع آخرته
حضور مجالس الصالحين في المواعظ والذكر	يوماً في الأسبوع على الأقل
ترك الشرك والسيئات والمعاصي وخاصة معاصي اللسان والمال والنظر	دائماً
الاستغفار	عند كل ذنب وبعده مباشرة
أداء الحج والعمرة والزكاة وصيام رمضان	الفريضة من ذلك مع الحرص على النافلة إن تيسرت

زيارة مقبرة	حيثما تيسر ولو مرة في الأسبوع في الليل أو النهار
زيارة مريض أو تفقد المرضى في المستشفى والاعتبار بأحوالهم وضعفهم	كلما مرض أخ لك وكنت مستطيعاً زيارته
تخصيص وقت للذكر مع الخلوة	نحو نصف ساعة في أي وقت، مع المداومة عليه يومياً، كأن يكون بعد صلاة العصر إلى المغرب أو في الليل
التسبيح بحمد الله مئة على الأقل.	قبل الغروب بعشر دقائق أو بنصف ساعة
أذكار المساء المأثورة	قبل أذان المغرب بعشر دقائق
قراءة نصف جزء من القرآن الكريم	بعد صلاة المغرب
الاستغفار مئة، والصلاة على النبي ﷺ مئة، والتهليل مئة	إلى صلاة العشاء
ترك السهر والسمر إلا لضرورة وفي شيء نافع والبعد عن اللهو والبرامج الملهية والشهوانية	بعد العشاء
النوم مبكراً أو قيام الليل	بعد صلاة العشاء
تذكر الموت والدار الآخرة وحاسب نفسك ماذا أعددت للقاء الله	في أول النهار وقبل النوم ـ مثلاً.
قيام الليل بالصلاة والقرآن والتفكر والتسبيح والذكر والاستغفار، مع الخشوع والتدبر	حيثما تيسر من الليل
الدعاء لنفسك ولإخوانك وللمسلمين جميعاً	آخر الليل وفي السجود وبعد صلاة الفريضة وعند النوازل وبعد عصر الجمعة
الاستغفار والتوبة مع التذلل والافتقار والندم	قبل أذان االفجر الثاني

أذكار وأدعية في المناسبات المختلفة

ورد عن النبي ﷺ أذكار وأدعية ندبنا أن نقولها عند ما يناسبها من أحوال: كدخول المسجد والبيت والخلاء وعند النوم واللباس وغير ذلك، وهذه مجموعة مهمة منها:

دعاء دخول المسجد: قال رسول الله ﷺ: « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: **اللهم افتح لي أبواب رحمتك**، وإذا خرج فليقل: **اللهم إني أسألك من فضلك** »(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما « عن النبي ﷺ أنه كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: **أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** »(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « وإذا خرج [أي من المسجد] **فليسلم على النبي** ﷺ وليقل: **اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم** »(٣).

القراءات والأذكار والأدعية عند النوم: يقرأ سورة السجدة وسورة الملك(٤)، وآية الكرسي(٥)، وآخر آيتين من سورة البقرة(٦).

وكان النبي ﷺ «إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، ويفعل ذلك ثلاث مرات»(٧).

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٧١٣ عن أبي حميد أو عن أبي أسيد.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٤٦٦.

(٣) حديث صحيح، أخرجه ابن ماجه رقم ٧٧٣، ونحوه ابن حبان رقم ٢٠٥٠.

(٤) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ١٤٧٠٠ والترمذي رقم ٢٨٩٢ والنسائي رقم ١٠٥٤٢ والحاكم رقم ٣٥٤٥ وصححه، عن جابر ﷺ: «كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ ألم تنزيل؛ السجدة، وتبارك الذي بيده الملك».

(٥) أخرجه البخاري رقم ٢١٨٧ من حديث طويل عن أبي هريرة ﷺ.

(٦) أخرجه البخاري رقم ٤٧٥٣ ومسلم رقم ٨٠٧ عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ.

(٧) أخرجه البخاري رقم ٤٧٢٩ عن عائشة رضي الله عنها.

ويقول: «باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»(١).

الذكر عند الاستيقاظ من النوم: «الحَمْدُ لله الذِي أَحْيَانا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وإِلَيْهِ النَشُور»(٢).

دعاء لبس الثوب: «الحَمْدُ لله الذِي كَساني هذا ورَزَقَنِيه، مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنّي ولا قُوة»(٣).

الذكر عند الخروج من المنزل: «بسم الله، توكَّلْتُ على الله، لا حَوْلَ ولا قُوةَ إلا بالله»(٤)، «اللهُمَ إني أَعُوذُ بِكَ أن أَضلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أزلَّ أو أُزلَّ، أَوْ أَظلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»(٥).

الذكر عند الدخول إلى المنزل: «اللهم إني أسألك خير الْمَوْلَجِ وخير الْمَخْرَجِ، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا»، ثم ليسلم على أهله(٦).

الدعاء قبل الطعام: قال رسول الله ﷺ: «من أطعمه الله الطعام فليقل: (اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه)، ومن سقاه الله لبناً فليقل: (اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه)»(٧).

الدعاء عند الفراغ من الطعام: قال رسول الله ﷺ: «من أكل طعاماً فقال: (الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام، ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة)؛ غفر له ما تقدم من ذنبه»(٨).

دعاء دخول الخلاء أو الكنيف: «اللهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخبُثِ والخبائِثِ»(٩).

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٩٦١ ونحوه مسلم رقم ٢٧١٤ عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٩٥٩ عن حذيفة ﷺ ومسلم رقم ٢٧١١ عن البراء ﷺ.

(٣) حديث حسن، أخرجه أبو داود رقم ٤٠٢٣ و الحاكم رقم ١٨٧٠ وصححه.

(٤) حديث صحيح، أخرجه الترمذي ٣٤٢٦ وأبو داود ٥٠٩٥ والنسائي ٩٩١٧ وابن حبان ٨٢٢، عن أنس بن مالك.

(٥) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٥٠٩٤، وروى نحوه الترمذي رقم ٣٤٢٧ والنسائي رقم ٩٩١٤، وأحمد رقم ٢٦٧٤٧، والحاكم رقم ١٩٠٧، عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٦) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم،٥٠٩٦ عن أبي مالك الأشعري ﷺ.

(٧) حديث صحيح، أخرجه أحمد ١٩٧٨، والترمذي ٣٤٥٥، وأبو داود ٣٧٣٠، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٨) حديث صحيح، عن معاذ بن أنس ﷺ، أخرجه أبو داود ٤٠٢٣، والترمذي ٣٤٥٤، والحاكم ١٨٧٠.

(٩) أخرجه البخاري رقم ٥٩٦٣ ومسلم رقم ٣٧٥، عن أنس بن مالك ﷺ. ومعنى الخبُث: ذكور الشياطين، والخبائث إناثها، وقُرِئت الخبْث بالسكون: بمعنى النجاسات والقاذورات.

دعاء الخروج من الخلاء: «غُفْرَانَكَ»(١).

الدعاء قبل إتيان الزوجة: «بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا»(٢).

كفارة المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»(٣).

دعاء الركوب: «بسم الله، الحمد لله، ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣-١٤]، الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، سبحانك اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»(٤).

دعاء زيارة القبور: «السلام عليكم أهل الديار، من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء بكم لاحقون، ويرحم الله الْمُستقدمين منا والمستأخرين، أسأل الله لنا ولكم العافية»(٥).

وأدعية المناسبات كثيرة، يحسن بالمسلم أن يحفظها ويحافظ عليها، منها دعاء صلاة الاستخارة، ودعاء صلاة الحاجة، والدعاء للميت في الصلاة عليه، وغير ذلك.

ومن أدعية المناسبات ما نُدبنا أن ندعو به في الصباح والمساء، وهذه نماذج من أدعية وأذكار المأثورات في الصباح والمساء:

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٥٢٦١ والترمذي رقم ٧ وأبو داود رقم ٣٠ والنسائي رقم ٩٩٠٧ وابن حبان رقم ١٤٤٤ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٤١ ومسلم رقم ١٤٣٤، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أن من قال ذلك فإن قضي بينهما ولد لم يضره الشيطان.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٤٣٣ عن أبي هريرة ﷺ وأن من قال ذلك غفر له ما كان في مجلسه ذلك، وأخرجه نحوه أبو داود ٤٨٥٧ عن عبد الله بن عمرو، وأخرج نحوه النسائي ١٠٢٥٧ والحاكم ١٩٧٠ عن جبير بن مطعم ﷺ وصححه.

(٤) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٣٤٤٦ وأبو داود رقم ٢٦٠٢، عن علي ﷺ.

(٥) أخرجه مسلم رقم ٩٧٥ عن بريدة ﷺ، ورقم ٩٧٤ عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ المذكور من مجموع الروايتين.

أذكارٌ وأدعيةٌ مأثورةٌ
في الصباح والمساء

عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى عليّ حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً** أدركته شفاعتي يوم القيامة»(١).

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين **يصبح** وحين **يمسي سبحان الله وبحمده مئة مرة** لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثلما قال أو زاد عليه»(٢).

وقد ورد الحث على قراءة **آية الكرسي** صباحاً ومساءً(٣) وأن من قرأها **غدوة** أجير من الجن حتى يمسي، وإذا قرأها حين **يمسي** أُجِيْرَ منهم حتى يصبح(٤).

عن عبد الله بن خبيب ﷺ قال: خرجنا في ليلة مطر وظلمة شديدة نطلب النبي ﷺ ليصلي لنا فأدركناه فقال: «قل: فلم أقل شيئاً ثم قال: قل فلم أقل شيئاً، ثم قال: قل فقلت يا رسول الله وما أقول؟ قال: «**قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات** تكفيك من كل شيء»(٥).

عن عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يقول في **صباح** كل يوم **ومساء** كل ليلة: **بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات** فيضره شيء»(٦).

---

(١) حديث حسن، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٢٠: أخرجه الطبراني بإسنادين أحدهما جيد.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٦٩٢ والترمذي رقم ٣٤٦٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) حديث حسن، أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم ٨٠١٧ عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) حديث حسن، أخرجه الطبراني في المعجم الكبير رقم ٥٤١ والحاكم رقم ٢٠٦٤، عن أبيّ بن كعب ﷺ.

(٥) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٢٧١٦ وأبو داود رقم ٥٠٨٢ والنسائي رقم ٧٨٦٠، ونحوه الترمذي رقم ٣٥٧٥.

(٦) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٤٤٦ وأبو داود رقم ٥٠٨٨ والترمذي رقم ٣٣٨٨ والنسائي رقم ١٠١٧٨ والحاكم رقم ١٨٩٥.

عن عبد الله بن غنام البياضي الصحابي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: من قال حين يصبح: «**اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر**» فقد أدى شكر يومه، ومن قال مثل ذلك حين **يمسي** فقد أدى شكر ليلته(١).

عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه رضي الله عنهما أن النبي ﷺ يقول إذا **أصبح** وإذا **أمسى**: «**أصبحنا على فطرة الإسلام وعلى كلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**»(٢).

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا **أمسى** قال: «**أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له**» قال فيهن: «**له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ربي أسالك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل والهرم وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر**»، وإذا **أصبح** قال ذلك أيضاً: «**أصبحنا وأصبح الملك لله**»(٣).

عن عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه قال لأبيه: يا أبت إني أسمعك تدعو كل غداة «**اللهم عافني في بدني، اللهم عافني في سمعي، اللهم عافني في بصري، لا إله إلا أنت**» تعيدها **ثلاثاً** حين **تصبح** وثلاثاً حين **تمسي**، وتقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت**» تعيدها حين **تصبح ثلاثاً وثلاثاً** حين **تمسي**، قال: نعم يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهن، فأحب أن أَسْتَنَّ بسنته»(٤).

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من قال حين **يمسي**: (**أعوذ بكلمات الله التامات**

---

(١) حديث حسن، أخرجه أبو داود رقم ٥٠٧٣ عن ابن غنام ﷺ، والنسائي رقم ٩٨٣٥ دون الجملة الأخيرة، ومثله ابن حبان رقم ٨٦١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ١٥٤٠٠ ونحوه النسائي رقم ١٠١٧٥.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٧٢٣.

(٤) حديث صحيح، أخرجه أحمد ٤٢/٥، ونحوه أبو داود ٥٠٩٠ والنسائي ١٠٤٠٧ والبخاري في الأدب المفرد ٧٠١.

من شر ما خلق) **ثلاث** مرات، لم تضره حية»(١).

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلاَءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ **يُصْبِحُ** وَحِينَ **يُمْسِي**: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»(٢).

عن شداد بن أوس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: **(اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)** قال: ومن قالها **من النهار** موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها **من الليل** وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»(٣).

---

(١) حديث صحيح، أخرجه ابن حبان رقم ١٠٢٢، ونحوه أحمد ٤٤٨/٣، وروى مسلم نحوه رقم ٢٧٠٩ من غير أن يقول: حين يمسي، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم ٥٢٣ وفي الكبير ١٩/ ١٢٤، وفيه أن يقولها صباحاً.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٤٧٨٥، ونحوه أبو داود رقم ٥٠٧٤ وابن حبان رقم ٩٦١ والحاكم رقم ١٩٠٢.
روعاتي: أي ما يخيفني. أغتال من تحتي: أي أن أهلك بالخسف ونحوه.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٩٤٧.

اتخاذ أوراد من الذكر

أفضل ما يجعله المسلم لنفسه وِرْداً، هو ما جعله الشرع له وِرْداً، أي ما أمره به بعدد معين وفي وقت معين، كفرائض الصلاة التي حُدِّدَتْ بوقت مُعين وحَدٍّ مُعين، وسننها الرواتب، وكالأذكار التي حُدِّدت بعد الصلاة أو في الصباح والمساء، ونحو ذلك.

فإذا أراد المسلم أن يكون أكثر ذكراً، فيمكنه أن يكثر من الذكر بلا عدد ولا تحديد وقت، وذلك جائز ومشروع، لكنه يُستحسن ويُسَنُّ أن يُلزِم المسلمُ نفسَه بأوراد يحرص عليها ويداوم عليها ويكررها في كل يوم وفي وقت معين، من الأذكار المشروعة المسنونة التي أَمَرَنا بها الشرع ولم يحدد لنا عدداً فيها ولا وقتاً لها.

التحديدُ سنَّةٌ والْمُحَدَّدُ ليس بسنة:

وتحديدنا هذا لأنفسنا لا نَعتبر معه هذا العدد وهذا الوقت سنة، وإنما هو سنة بشكل عام من جهة أن النبي ﷺ أخبرنا أن «أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل»[١]، والحديث لا يتكلم عن الأعمال والعبادات التي فرضها الله أو سنها النبي ﷺ في وقت معين بعدد معين، فذلك مطلوب بذاته، ولا مجال لأن يزيد أو يقل، وإنما يتكلم الحديث عن العبادات المشروعة التي لم تُحَدَّدْ بوِرْدٍ مُعين، فيحب الله أن نداوم عليها، ولا تكون المداومة إلا بالثبات عليها بحد معين في وقت معين.

ومن الأدلة على مشروعية تحديد المسلم لنفسه وِرْداً مُعَيَّناً: قول رسول الله ﷺ : «من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنما قرأه من الليل»[٢]، فقوله: «حزبه»، يدل على أن كل واحد يجعل لنفسه حظاً معيناً من قراءة القرآن، فيكون وِرْدَه وحِزبَه الذي يُداوم عليه، بل ويقضيه إن فاته.

(١) أخرجه البخاري ٥٥٢٣ ومسلم نحوه رقم ٧٨٣، عن عائشة رضي الله عنها، وفي حديث مسلم قال: «وكانت عائشة إذا عملت العمل لزمته».

(٢) أخرجه مسلم رقم ٧٤٧ والترمذي رقم ٥٨١ عن عمر بن الخطاب ﷺ.

وورد في صحيح مسلم أيضاً حديثٌ مثلُ ذلك عن حزب الإنسان من قيام الليل.

وروى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أنه حينما كَبِرَ وصَعُبَ عليه المحافظةُ على وِرْدٍ غيرِ واجب، مِن صيام داودَ وغيره، قال: ليتني قبلت رخصةَ رسول الله ﷺ، فعامل ورده كالواجب رغم أنه في نوافل.

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: « وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه »، فعاملوا الأعمال الصالحة الْمُطْلَقَة عن التحديد التي شَرَعوا فيها معاملة الواجب، فداوموا عليها رضي الله عنهم.

وهذه الأدلة تدل على أن اتخاذ ورد وتحديد عدد معين أو وقت معين ليس من البدعة، وإنما تكون البدعة إذا اعتقد المسلم أن العدد المحدَّدَ الذي عيَّنه لنفسه والوقت المحدد الذي عينه لنفسه سنةٌ معينةٌ من النبي ﷺ فعندئذ يعتبر مبتدعاً، لأنه أضاف إلى الدين ما لم يعينه الدين(١).

وحينما يحدد ذلك لنفسه ويلزم نفسه به لا يجوز أن يجعلَه أهمَّ من الواجبات والسنن المحدَّدة مِن النبي ﷺ، وحينما يُداومُ عليه يداومُ عليه من باب طاعة النبي ﷺ في الحديث الذي يأمر بالمداومة، لا على سبيل إيجاب ما لم يجب في شرع الله، وينبغي أن يجعل ما يحدده لنفسه لا يتنافى مع السنن والواجبات، ولا يغيرها، ولا يَحِلُّ مَحَلَّها، ومِن غَير أن نعتقد أن ما حددناه لأنفسنا سنةً لازمةً أو واجباً.

وإذا ألزم الإنسان نفسه بشيء من هذا النوع على هذا الوجه؛ فإنه يكون أحرص عليه وأثبت وأدوم فيجد محبة الله لفعله ويجد البركة والثواب والعون، فإن النفس إذا تُرِكَتْ على هواها تهربتْ من الطاعات، أما إذا ألزمها الإنسان بها؛ لم يَعُدْ يجدُ للخواطر النفسية المثَبِّطة وللشيطان وساوسَ تدعوه إلى ترك هذه الطاعات.

---

(١) لذلك قال العلماء: إذا كان من يفعل ذلك ممن يقتدى بهم، وظهر فعله للناس؛ فلا بد أن يبين للناس أن هذا على سبيل الوِرد، وليس محدداً في السنة، يبين ذلك أو يترك الورد أمام الناس أحياناً حتى لا يعتقدوا أنه سنة.

ومما يقترح من هذه الأوراد اليومية - على سبيل المثال:

قراءة الفاتحة ثلاثاً أو أكثر من ذلك(١).

والاستغفار مئة مرة، والصلاة على النبي ﷺ مئة، والتهليل مئة، والتسبيح مئة، في كل صباح ومساء، ويمكن أن يزيد عليها: مئة مرة من الحمد والتكبير والحوقلة والحسبلة.

أو يجعل لنفسه ألف استغفار، أو ألف صلاة على النبي ﷺ، أو ألف تهليلة، كل يوم، أو يفعل ذلك كله كل يوم، ويمكن أن يجعل لنفسه أكثر من ذلك من التهليل لأنه أفضل الذكر، وكل إنسان يحدد لنفسه ما يستطيع، مما لا يرهقه، ومما لا يُضيِّعُ واجباته وسننه الأخرى، مُراعياً قدرته وأوقاته وأشغاله، قال ﷺ: «خذوا من الأعمال ما تطيقون»(٢).

وقد حث النبي ﷺ على الإكثار من الذكر فقال: « أيعجز أحدكم أن يَكْسِبَ كلَّ يومٍ ألفَ حسنة؟ فقال له رجل من جلسائه: كيف يكتب له ألف حسنة؟ قال : يسبح ألف تسبيحة، فيكتب له ألفُ حسنةٍ، ويُمحَى عنه ألفُ خطيئة »(٣).

وقد روي أن أبا هريرة ﷺ كان يسبّح في اليوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة(٤).

---

(١) فبيان النبي ﷺ أن الفاتحة أعظمُ سورة، ندبٌ إلى الإكثار منها، روى البخاري ٤٢٠٤ عن أبي سعيد بن المعلى ﷺ قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]» ثم قال لي: «لأعلمنك سورة هي **أعظم السور في القرآن** قبل أن تخرج من المسجد»، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»، وروى مسلم ٨٠٦ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه، فقال: «هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلَّم وقال: أبشر بنورين أوتيتَهما لم يؤتَهما نبي قبلك؛ **فاتحةُ الكتاب** وخواتيمُ سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته».

(٢) أخرجه البخاري ٥٥٢٣ ومسلم ٧٨٢ عن عائشة رضي الله عنها وروي نحوه عن أبي هريرة ﷺ في الصحيحين.

(٣) حديث صحيح، أخرجه أبو يعلى في مسنده رقم ٨٢٩، عن سعد بن أبي وَقّاص ﷺ.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم ٢٦٧٣٣. وروى البيهقي شعب الإيمان رقم ٧١٠ أن قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ في مَوْكِبِهِ كان يُسَبِّحُ اللهَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ تَسْبِيحَةٍ، وروى رقم ٧٠٨ أن امْرَأَةً كانت في أَسْفَلِ مَكَّةَ تُسَبِّحُ فِي كُلِّ يَوْمٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ تَسْبِيحَةٍ، فَمَاتَتْ فَلَمَّا بُلِغَ بِهَا الْقَبْرُ أُخِذَتْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِي الرِّجَالِ.

نموذج دورة تدريبية في الذكر

من الأوراد التي يعطيها الشيخ للتلميذ في هذه المرحلة، ما يعد دورة تدريبية على الذكر والحضور فيه، مما ينصح به بعض المُرَبِّين أن يعمله من كان غافلاً عن الذكر، لِيَتَعَوَّدَ من خلالها على دوام الذكر وكثرته التي أمرنا الله بها، ولِيُعَوِّدَ نفسه على الحضور والمراقبة والتركيز الذهني عند الذكر، وليستفيد من بركة معاني الأذكار المختلفة وآثارها.

- حتى يتعود الإنسان على كثرة الذكر، فلا بد أن يبدأ بداية قوية في ذلك، فأول ذلك أن يعرف أهمية الذكر ليرغب بالإكثار منه، فيبدأ بدورة يجتهد من خلالها أن ينهي عدداً كبيراً من الأذكار خلال فترة قليلة، قدر استطاعته، مخلصاً في ذلك لله، طالباً قربه ومرضاته وجنته.

- **أهم الأذكار التي وردت في الكتاب والسنة هي:**

الاستغفار، والصلاة على النبي ﷺ، والتهليل: لا إله إلا الله، والتسبيح: سبحان الله، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، والحمد لله، والتكبير: الله أكبر، والحسبلة: حسبي الله ونعم الوكيل، والحوقلة: لا حول ولا قوة إلا بالله.

- يجعل الطالب هدفه أن يذكر كل ذكر من هذه الأذكار عدداً كبيراً، كعشرة آلاف مثلاً أو سبعة آلاف أو خمسة آلاف أو أي عدد كبير، وليس العدد مقصوداً لذاته، فإنه ليس محدداً في السنة، وإنما هو تقدير اجتهاديٌّ، لأجل التدرُّب، والمقصود منه الكثرة[1]، فلو اختار الإنسان أي عدد كبير فلا إشكال.

- يبدأ الطالب بالاستغفار مثلاً، فيستغل كل وقت من فراغه، وكل وقت يمكن أن يذكر فيه، فيستغفر ويعد عشرة آلاف مثلاً، سواء استغرقت معه يوماً أو أسبوعاً أو غير ذلك بحسب فراغه واستطاعته، حتى إذا أنهاها بدأ بالصلاة على النبي ﷺ عشرة آلاف، وهكذا

---

(١) ونحن مأمورون بالإكثار من الذكر دائماً، قال تعالى: ﴿ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤١]، وما هذه الدورة إلا بداية للتعود على هذا الذكر الكثير.

حتى ينهي هذه الأذكار العشرة، فلا يكاد ينهيها حتى يكون قد تعود على الذكر، وظهرت عليه بعض ثمرات الذكر وآثاره من الطمأنينة والإقبال على الله، وكلما كانت المدة أقصر، كان أثر الذكر أقوى وأظهر، وكان التعود على الذكر أكبر.

- من المهم جداً أن يحرص الطالب خلال هذه الدورة على الحضور في الذكر.

- بعد أن ينهي المرء هذه الألوف من الذكر، يحرص بعد ذلك أن يكون ذاكراً على الدوام.

- من المفيد جداً أن يُكرِّر السالكُ وكلُّ مسلم مثلَ هذه الدورة كلَّ سنة مرة أو أكثر.

المرحلة الثالثة: مرحلة السير القلبي

حَتَّى إذا أَحْكَمَ عِلْمَ الظَّاهِرْ ... وَأَبْصَروا القَبُولَ فِيهِ ظاهِرْ
أَلْقَوْا إِلَيْهِ مِنْ صِفاتِ النَّفْسِ ... ما كانَ فِيها قَبْلَ ذَا مِنْ لَبْسِ(١)
وَهْيَ إِذا أَنْكَرْتَها فَلْتَعْرِفْ ... إِحْدَى وَتِسْعِينَ، وقِيل: نَيِّفْ
يُجَرِّعُوها أَكْؤُسَ المَنونِ ... وَهْيَ تُنادِي: كَيْفَ تَقْتُلُونِي(٢)

إذا قوي حال السالك، واجتهد في الطاعات، وثبت عليها، ودام على الذكر والأوراد، حتى ظهر عليه الإقبال والاستقامة وحسن الحال؛ عندئذ يعتني الشيخ بإصلاح قلبه وعلاج أمراض نفسه.

فيتكلم حول صفات النفس المذمومة والممدوحة، وحول أمراض النفوس، ويتكلم حول الخواطر والرغبات والإرادات والنيات، ويتكلم عن القلب وأعماله وصفاته وسلامته، فيفتح على التلميذ آفاقاً ومَعالِمَ لم يكن يلتفت إليها ولا يدري بها.

وينبهه الشيخ إلى دقائق أعمال القلوب وألاعيب النفوس وحيل الشيطان، فيصير السالك يجاهد نفسه في إصلاح قلبه، فوق مجاهدة النفس في إصلاح ظاهره.

وإصلاح الباطن أصعب من إصلاح الظاهر، لخفائه ودقته.

وصفات النفس والقلب الباطنية تزيد على تسعين صفة، ولا يزال السالك يستكشف نفسه، ويجاهد في إصلاحها، حتى كأنه يميتها من شدة ما يُعانِيه، فقد يَظُنُّ نفسَه انتصرَ على نفسه فيجد فيها ما لم يكن في حسبانه.

---

(١) (لَبْس): ولعله قصد هنا: ما كان متصفاً به ومُتَلَبِّساً فيه من تلك الصفات، وروي شطر البيت: ما كان فيهِ قبلَها مِنْ لَبْسٍ، فيكون معناه: الشك، أي ما كان من صفات للنفس لا علم له بها، ويشك بوجودها.

(٢) (جرعوها): سَقَوها جَبراً، (المنون): الموت، وهنا الموت المعنوي، وهو زوال حركات النفس وأهوائها الباطلة.

وأعمال القلب ترجع إلى خمسةَ عَشَرَ عملاً يتحقق بها السالك حتى تصير وصفاً عنده، ويتخلص مما يقابلها ويتطهر[١]:

١. الإيمان وضده الكفر والشرك والنفاق.
٢. واليقظة والإنابة وضدها الغفلة والإعراض.
٣. والتوبة وضدها الرضا بالذنب والمعصية والإصرار عليه.
٤. والزهد وضده الرغبة في الدنيا وشهواتِها وزينتها.
٥. وحب الله ﷻ ورسوله ﷺ والمؤمنين وضده الكره والبغض.
٦. والخوف وضده: الأمن من مكر الله وغضبه.
٧. والرجاء وضده اليأس من رحمة الله.
٨. والشكر وضده الجحود.
٩. والصبر وضده الكسل والجزع.
١٠. والتسليم لله والرضا وضده الاعتراض والسخط.
١١. والاستقامة وضدها الاعوجاج والتَّفَلُّت.
١٢. والتوكل وضده الاعتماد على الأسباب.
١٣. والإخلاص وضده الرياء.
١٤. والعبودية لله والذلة والافتقار والتواضع.
١٥. والمراقبة.

وفيما يأتي أهم الصفات والأعمال التي يجب أن يتحلى بها القلب، ثم التي يجب أن يتخلى عنها[٢]:

---

(١) انظر إلى تفصيل ذلك وشرحه في كتاب: التزكية على منهاج النبوة، الجزء الخامس: تزكية القلب.

(٢) انظر كتاب فصول في الإمرة والأمير، سعيد حوى، بتصرف، وهو نقلها بتصرف عن كتاب بدائع السلك في طبائع الملك، لابن الأزرق.

أهم تكاليف القلوب

ما طَلَبَ اللهُ التَّحَلِّيَ به: الإيمان، العقل، العلم، التقوى، التوبة، التواضع، التوكل، الخوف، الخشية، الزهد، العفة، الشكر، الصبر، الحلم، كظم الغيظ، العفو، الرفق، اللين، السخاء والكرم، الحزم، الحكمة، المداراة، الشجاعة، الوفاء بالوعد والعهد، التفكر، المراقبة، المحاسبة، الاتباع، التثبت في الأمور، الفقر إلى الله، الغيرة، التبتل، الخشوع، الرضا عن الله وأحكامه، التفويض، الحياء، الإنابة، التورّع، الاستقامة، حسن الخلق، القناعة، الاعتصام بالله، الاتعاظ، المسارعة إلى الخيرات، الإحسان، محاربة الشيطان، اليقين، صلة الرحم، بر الوالدين، قصر الأمل، حسن الظن بالله، الحزن على ما فات من الطاعة، الفرح بفضل الله وبرحمته، محبة الطاعة والإيمان، كراهة الكفر والفسوق والعصيان، الحب لله ولرسوله ﷺ، الحب في الله، البغض في الله، التيقظ، الشوق إلى لقاء الله تعالى، أن يحب للمؤمنين كما يحب لنفسه، وأن يكره لهم ما يكره لنفسه، مجاهدة النفس، ذكر الموت وما بعده، السرور بطاعة الله، الاغتمام بمعصية الله، تفريغ القلب عن كل ما سوى الله، الصدق، الإخلاص، النية الصالحة، الرأفة، الرحمة، الشفقة، المعرفة بما أمر به وما نهي عنه، العدل، الأخذ بالعفو من الأخلاق، الإعراض عن الجاهل، الدفع بالتي هي أحسن، الاستجابة لله، الصفح، خفض الجناح للمؤمنين، الإعراض عن اللغو، ابتغاء الآخرة، التزكية، اتباع الأحسن، الإشفاق، تعظيم الله تعالى، الرهبة، الرغبة، الرجوع إلى الله ورسوله ﷺ عند التنازع، الإخبات، التسليم لأمر الله تعالى، الإيثار.

ما طلب الله التخلي منه: الكفر، الشرك، النفاق، الرياء، اتباع الهوى، حب الدنيا، حب الشهوات، البخل، التبذير، الجبن، الكبر، العجب، الغضب، الحقد، الحسد، حب الجاه المضرّ، حب المال، حب المدح، كراهة الذم، كراهة النصيحة، الطمع، الغرور، الغفلة، كفر النعمة، اتباع الظنون، اتباع خطوات الشيطان، الحمية لغير الله، مفارقة الجماعة، الفرح

بالدنيا، الركون إليها، الهلع، الجزع، حب الظلم، الإعراض عن الذكر، طاعة من اتبع هواه، التكلف، اللهو، التنطع، الإصرار على المعصية، الأمن من مكر الله، اليأس من روح الله، القنوط من رحمة الله، الذبح لغير الله، التكذيب بالقدر، الابتداع، اتباع المتشابه، الغلظة، الفظاظة، نسيان الذنب، اتخاذ الكافر ولياً، سوء الخلق، قطع الرحم، عقوق الوالدين، الصد عن سبيل الله، احتقار المسلم، القسوة، اتباع غير سبيل المؤمنين، التحايل على أحكام الله، خوف الفقر، الجفاء، الشماتة بالمسلم، حب القيام لقدومه، السخط، الطيش، إرضاء الناس بسخط الله، الرضا بالمحقرات، الغفلة عن العيب، تفضيل الغني، الاهتمام بالدنيا، حب العلو، التطير، حب الأشرار، التنافس، الأنس بغير الله، طول الأمل، العبادة على حرف، المداهنة، الجور، الإسراف، الإقتار، الرضا بالدنيا من الآخرة، التفرق في الأهواء شيعاً، البغي، الطغيان، الغدر، نقض العهد، الإجرام، العدوان، الاستهزاء بآيات الله، العجلة، مدح النفس، الشح، السهو عن الصلاة، منع المرافق، اشتراء الثمن بآيات الله، تلبيس الحق بالباطل، الإلقاء باليد إلى التهلكة، حب الحمد بما لم يفعل، الترفع عن حكم الله، التعاون على الإثم والعدوان، إضمار غش الرعية، المكر، قلة الرحمة لعباد الله، الخروج عن الطاعة، التسلط على عباد الله، صحبة الجاهل، إعانة المبطل، الرضا بحكم الطاغوت، الوهن للأعداء، مشاقة الله ورسوله ﷺ، عدم قبول العذر، كراهة الموت، ترك العدل بين الزوجات، الاتكال على غير الله، التسويف بالتوبة.

ـ وقد أرجع بعض علماء الصوفية أمراض النفس وسيئات الأخلاق إلى ثلاثة أصول: الرضا عن النفس، وخَوف الخلْق، وهمُّ الرزق، فيَتَوَلَّدُ مِنَ الأول: الشهوة والغفلة والمعصية، ومِن الثاني: الغضب والحسد والحقد، ومِن الثالث: الحرص والطمع والبخل، وكل منها يتولد منه عدد من الأمراض(١).

---

(١) انظر: اللوائح الفاسية، زروق.

ـ **ويستعان لإصلاح القلوب** بأعمال الطاعات وما فيها من تَذَكُّرٍ وفِكْرٍ، فلا تنفك أمور القلب عن الجوارح والأعمال، فالأعمال الصالحة ظُروفٌ ومَحالٌّ للحالات القلبية، وسبب في إصلاحها، إذا كانت خالصة لله، وإذا أُدِّيَتْ على الوجه الذي طلبه الله:

١. **بقراءة القرآن الكريم،** فلا يذكرك كما يذكرك القرآن، حيث يذكرك بجميع الحقائق التي تُنْعِشُ القلبَ، وتُصلح وِجْهَتَه، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

٢. **بالذكر،** فذكر الله وذكر أسمائه، يحيي في القلب معرفة الله، مما يحرك أحوال القلوب، ويحقق بالأدب القلبي مع الله.

٣. **بتذكر الآخرة،** فذلك من أعظم ما يعطي الإخلاص قال تعالى في حق بعض أنبيائه: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص: ٤٦]، وقال ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات؛ الموت»(١).

وهذا التذكر يسميه الصوفية: **رابطة الموت**، وهو أن يجعل السالك ضمن أوراده اليومية، قبل النوم مثلاً، أو بين أذان الفجر وإقامته، دقائقَ يتفكر في الموت وما بعده، وكيف يكون حاله في ذلك، وماذا يتوقع له من خير أو شر، أو جنة أو نار، مع حرصه على ذكر الموت والآخرة عند كل عمل وفي كل وقت.

٤. **بمحاسبة النفس،** ومراجعة الإنسان أحواله وأعماله وأقواله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨]، وهذا ما يسميه الصوفية: **وِرْد المحاسبة.**

٥. **بزيارة المقابر وأهلها، فقد** جعل الله تعالى الموت والمقابر تذكرة للناس بالموت والرحيل، قال تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر: ١-٢]، وقال ﷺ :

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٧٩١٢ والترمذي رقم ٢٣٠٧ وابن حبان رقم ٢٩٩٢ والحاكم رقم ٧٩٠٩ عن أبي هريرة ﷺ. ومعنى هاذم اللذات: أي يَقطعُها ويُغيِّبها.

«نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»(١)، «فإنها تذكركم بالآخرة»(٢)، وقد كان النبي ﷺ يزور القبور والمقابر، ويحدث أهلها كأنهم يسمعون(٣)، ويعظ أصحابه، وكان يزور البقيع وشهداء أُحد أحياناً في آخر الليل، وذلك أبلغ في العِظَة، وحث النبي ﷺ على اتباع الجنائز.

٦. **بزيارة المرضى،** قال ﷺ: «عودوا المريض، واتبعوا الجنائز، تذكركم الآخرة»(٤).

٧-١٠. بتذكر الملكين، والشيخ، ثم بتذكر النبي ﷺ ، ثم بمراقبة الله.

فأما الملكان، الرقيب العتيد: فقد ذكَّرنا الله بهما أنهما يكتبان ما نعمل ونلفظ: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال عز وجل: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، فالله أخبرنا بذلك لنتذكر وجودهما وكتابتهما، فيكون ذلك عوناً على الاجتهاد في الطاعات، وحاجزاً عن المعاصي والغفلات.

وأما تذكر الشيخ، وهو ما يسمى عند الصوفية: **برابطة الشيخ،** أو **الفناء في الشيخ،** فهو مأخوذ من قوله ﷺ : « واستحْيِ مِن الله استحياءَك رجلاً مِن أَهْلِك » أو « من رجلين صالحين من عشيرتك »(٥)، ومقصوده زيادة الأدب للسالك الغافل، فهو ضعيف التذكر لله، لأنه غيب عنه، فيتخيل الشيخ معه في كل موقف، ويتصرف كما يتصرف بين يدي الشيخ بغاية الأدب، وهو قياس عقلي، فالسالك يقول لنفسه: إذا كنتُ بين يدي الشيخ فإني أتأدب بهذا، ولا أفعل هذا، فكيف وأنا بين يدي الله عز وجل.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٩٧٧ عن بريدة ﷺ.

(٢) زيادة صحيحة، أخرجها أحمد رقم ١٢٣٥ عن علي ﷺ، والحاكم في المستدرك رقم ١٣٨٦ و ١٣٨٧ و ١٣٨٨ عن أنس بن مالك ﷺ وابن مسعود وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم، بألفاظ مقاربة.

(٣) كما يدل عليه صيغة سلامه لهم، وكما روي في حديثه ووداعه لشهداء أُحد والبقيع قبل موته وغير ذلك.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٥١٨ وابن حبان رقم ٢٩٥٥ عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٥) جزء من حديث حسن أخرجه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » رقم ٨٢٥، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ.

ثم إذا قوي الخيال عند السالك يتذكر النبي ﷺ بدل الشيخ، ويسمون ذلك: **الفناء في النبي ﷺ**، وذلك أن أحدَنا لو كان بين يَدَي النبي ﷺ لكان أكثر أدباً منه بين يدي الشيوخ، فإذا صار قادراً على تخيل ذلك، فإنه يلازمه، فذلك من أعظم ما يضفي عليه الأدب والالتزام، ويقول السالك لنفسه: إذا كان هذا أدبي مع النبي ﷺ، وهو مخلوقٌ، فكيف يجب أن يكون أدبي مع رَبِّ النبي ﷺ، وهو خالقٌ سبحانه.

فإذا قوي الذكر عند السالك، وقوي الخيال، وصار قادراً على الحضور مع الله والخشية منه، ينتبه إلى أنه بين يدي الله دائماً، فيكون **مراقباً** لنفسه بين يدي الله، متأدِّباً بالأدب اللائق معه سبحانه، فقد سئل النبي ﷺ عن الإحسان، فقال ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »(١).

ـ وفي هذه المرحلة يجتهد السالك أن يستغرق في الذكر فيكون حاضراً مع الله ومعظماً له، ويبذل جهداً كبيراً لتركيز الذهن عند قراءة القرآن ليتفهم ويتدبر، ويجتهد في التخشع في الصلاة، فيستشعر التَّوَجُّهَ إلى الله وخِطابَه، ويَتفهم ما يَقرأ وما يُسَبّح ويُكَبّر، ويَستحضر معاني حركاتِ الصلاةِ، مِن وقوف بين يدي الله وركوع وسجود، وهو مخلص لله في كل ذلك، حتى يقارب التحقق بما ورد في هذه النصوص:

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢].

وقال عز وجل: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ »(٢).

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠ ومسلم رقم ٩، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٣٤، عن عقبة بن عامر ﷺ.

وقال ﷺ : « فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ »(١).

وقال ﷺ : « مَا قالَ عبدٌ: لا إله إلا الله، مُخلصاً مِن قلبه، إلا فُتِحَت له أبوابُ السماء، حتى تُفْضِيَ إلى العرشِ، ما اجتنَبَ الكبائر »(٢).

ـ وفي هذه المرحلة قد يمر السالك بحالة انعزالية، إذ يرغب بالذكر والخلوة مع الله في الطاعة، فلا يحب لقاء الناس، لأنه يرى ذلك شاغلاً له عن ربه وعبادته، ويكره كل شيء يُشغله عن الطاعة، ويكره اللهو واللغو، كما يكره المعاصي والمكروهات قد تحقق بقوله تعالى: ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٨](٣).

والشيخ يأمر السالك في هذه الحالة بالاعتدال والموازنة والتوسط، وعدم تضييع واجبٍ أو إهمال سُنَّةٍ لأجل سنة أخرى، مع مراعاة الأصلح للسالك ولقلبه في هذا الأمر.

(١) جزء من حديث طويل، أخرجه مسلم رقم ٨٣٢ عن أَبِي أُمَامَةَ عن عَمْرِو بْن عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ، وفي أول الحديث ذِكْرُ وُضوءِ رسولِ الله ﷺ.

(٢) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٣٥٩٠ والنسائي رقم ١٠٦٦٩ في السنن الكبرى، عن أبي هريرة ﷺ، وذكره بعض العلماء بلفظ: يفضي.

(٣) ينتقد بعضُ الناسِ الطائعَ السالكَ حينما يصل إلى هذا الحال، بينما لا ينتقدون الشاب الذي يتعلق بالشهوات، إذ تستحوذ عليه شهوته، فلا يرغب بلقاء الناس ولا بزيارة الأرحام، رغبة منه في قضاءِ وَطَرِه، والانْفرادِ إلى شهواته، ومتابعةِ أسبابها في تلفاز أو حاسوب أو هاتف، فإذا أراد منه أهله أن يخرج معهم تَعلّل وتعذّر وتحجّج، أو تمارض، أو تكاسل وتثاقل، أو ادعى أنه يريد النوم أو الدراسة أو لقاء صديق، أو غير ذلك من المعاذير، ليفر إلى شهوته.

المرحلة الرابعة: مرحلة الخلوة

أصلُ الخلوةِ الشرعيُّ وأدلة استحبابها[١]:

١. اعتكاف النبي ﷺ في المسجد في رمضان.

٢. خلوة النبي ﷺ في غار حراء قبل الإسلام وأوله[٢].

٣. مُواعَدة موسى ﷺ التي جعل الله له بها اصطفاءً وعطاءً، ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

٤. ولقد كانت حياة الصحابة في غير أوقات الجهاد والعمل؛ خلوات على قراءة القرآن والذكر والصلاة.

٥. الحاجةُ إلى الترقي قاضيةُ بحُسن الخلوة، فإن السالك ينشغل بدنياه وشهواته وخواطرها في كل يوم مرات، وهذا يعيقه كثيراً، لاسيما في زمان كثرت فتنه وشواغله، فإذا قَطَعَها وانفرد لله؛ ترقى في السير سريعاً حتى يجاوز أفلاكاً ومسافات هائلة في سير النفس.

فإذا حَصَّل ذلك رجع إلى دنياه بحال جديد، فلم تعد الدنيا وشواغلُها وأهلُها تؤثر على حضوره مع الله، ولا تَقطَع قلبَه عن الله، ولا تُنقِص مِن تعظيمه لله ولأمره.

قال الشيخ زروق: « مقصود الخلوة ثلاثة: إفراد الوجه، ونفي العوارض، وتمكين الحقيقة من كليته »[٣].

---

(١) انظر: تربيتنا الروحية، سعيد حوى، فصل في الخلوة، واللوائح الفاسية، أحمد زروق.

(٢) وقد نبه علماء التصوف أن مقام النبوة عطاء من الله، لا يحتاج إلى خلوات، فالخلوة في حقهم لها أسرارها وحِكَمُها التي تمتاز على غيرهم، بخلاف غيرهم فإن الخلوات عَوْنٌ على تحصيل العطايا والمواهب والمقامات، انظر: اللوائح الفاسية، ص ٢٤٩.

(٣) اللوائح الفاسية، ص ٢٣٧، والمعنى: أنه لا ينشغل بغير طاعة الله، ويترك كل ما يقطعه عنه، ويكون حضوره مع الله تامّاً، وأقوى من حضوره مع غيره.

٦. ثم إن الخلوة هي عبادات مستحبة، يقوم بها المسلم دون أن يؤثر ذلك على واجباته، فإذا فعل ذلك لعلاج أمراض قلبه، فكيف يكون ذلك منكراً؟

٧. في واقع التجربة فإن السالك يتغير كثيراً في الخلوة ويتحسن، فيحقق صفاءً، ويَصلُح حالُه، ويقوى استعداده في سبيل الله، ويقطع مسافات شاسعة في السير إلى الله، لا تخفى على مَنْ جَرَّبَ ذلك، ولا على مَن رأى مَن جَرَّبَ ذلك.

وقد دلت النصوص على أن اجتهاد الإنسان لمدة ما، يكون له أثره الطيب في صلاح حاله، وتجاوزه لحالة من الضعف والبعد، قال ﷺ: «من صلى في مسجد جماعة أربعين ليلة لا تفوته الركعة الأولى من صلاة العشاء كتب الله بها عتقاً من النار»(١).

فَعندما مَالَتْ إلى الزَّوالِ أُدْخِلَ في خَلْوَةِ الاعْتِزَالِ
وَقِيل: قُلْ عَلى الدَّوَامْ: أَللهُ وَاحْذَرْ كَطَرْفِ العَيْنِ أَنْ تَنْساهُ

حينما تبدأ أهواء النفس بالزوال والميل إلى الغروب، فتَخْمَدُ خواطرُ النفس ومشتهياتها، فلا تطلب النفس شيئاً ولا تعمل شيئاً ولا تحرك إلا بحقٍّ لِحَقٍّ في حَقٍّ عن حقٍّ(٢).

فذلك **موت النفس** في اصطلاح الصوفية، وهو التحقق بقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [الحجرات: ٧-٨].

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

(٢) (**بحق**): أي بالله، فهو يرى الله فاعلاً في كل شيء، (**لحق**): لله تعالى، فهي نَفْس مُخْلَصَة لا تَشوبها شائبةُ رياءٍ، ولا تحركها أهواء وشهوات، (**في حق**): فيما أمر الله، فلا ينطلق إلا من حكم شرعي، (**عن حق**): عن نية صحيحة، وباعث صحيح، وقصد سليم، يُثمِر ثمرة صحيحة شرعية، ويؤدي إلى هدف صحيح أخروي، ولا يعمل عملاً ظاهره الصحة وهو يقصد أمراً باطلاً أو هوى.

الخلوة

عندئذ يُدخِل الشيخُ التلميذَ السالكَ في الخلوة، فيأمرهُ بدخول موضعٍ للعبادة، من مسجد أو رِباطٍ أو غيره، فيعتزل الناس، ويشتغل بالعبادة والذكر، فلا يرى أحداً من الناس، ولا يفكر بدنياه ولا بأعمال تشغل قلبه، فيفرغ قلبه ووقته عن الشواغل الدنيوية، ليجتهد أقصى ما يستطيع من الاجتهاد في التقرب إلى الله.

فيأمره الشيخ بأعمال الطاعة، ويرتب له أوراداً من الشرع، فيؤدي الفرائض في وقتها، ويُحسِنُ القيام بها، ويقوم بالسنن والراوتب.

ثم يستغرق جميع يومه في النوافل، فيجتهد في قيام الليل وقراءة القرآن والدعاء والتفكر والذكر، ويرافق ذلك الصيام وقلة الطعام.

ويأمره الشيخ بالخلوة أياماً بِحَسْب حالِ السالك وتَحَمُّلِه، أو بحسب أشغاله وفراغه، أو بحسب الهدف من الخلوة.

فقد يأمره بها ثلاثة أيام، وقد تكون أسبوعاً، وقد تكون عشرة أيام، أو ثلاثين يوماً، أو أربعين، وقد يُدخِلُه بلا مُدَّةٍ، ثم يُخرجه حينما يرى ذلك مناسباً.

وغالباً ما يَجعلُ الشيخُ عملَ السالكِ في الخلوة هو الذكر، بعد القيام بالفرائض والسنن.

وذلك أن السالك يكون قليل التدبر والخشوع، وقد لا يُعطِي الصلاةَ والقرآنَ حقَّهُما من الخشوع والتدبر، وقد ينتبه لكثرة المعاني التي تَمُرُّ عليه دون أن ينتبه إلى الله سبحانه، فيَأْمُره الشيخ بِذِكْرٍ واحد، ليبقى مع الله، ولا ينشغل عنه بشيء، ولِيُنَمِّي تعظيم الله، فإذا قوي الحضور مع الله، فذلك يَرجعُ على التلميذِ والسالك بالحضور في كل شيء ومع كل شيء، عندئذ تحسن تلاوتُه للقرآن وتدبره، وتحسن صلاتُه وخشوعه، وتَحْصُلُ مُراقبتُه لله في كل ظَرْف وحال ووقت.

وقد يعطيه الشيخ عدداً من الأذكار المسنونة(١).

أو يأمره بذكر بعض الأسماء الحسنى، مما يناسبُ حالَه، ويعالجُ أمراضَ قلبه.

وقد غلب على المتأخرين(٢) من الشيوخ أن يجعلوا الخلوة لذكر الاسم المُفْرَد، الله، فيأتي السالك في الخلوة بالفرائض والسنن والأوراد الصباحية والمسائية، ثم لا يذكر شيئاً إلا الاسمَ المفردَ: الله.

مشروعية ذكر اسم الله المفرد:

وهو ذكر مشروع، بقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٥]، وقال عز وجل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، والنص بيِّنٌ لا يحتاج إلى بيان من السنة.

وقد ورد في السنة ما يؤيد ذلك، وهو قوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله »(٣).

وذِكْر الاسمِ هو خلاصةُ مقصودِ أفضلِ الذكرِ: لا إله إلا الله.

ولا يقال: إن الكلمة الواحدة لا معنى لها حتى تكون جملة، فإن الجملة يجوز أن يكون فيها حذف، والذاكر يستحضر في نفسه خبراً أو مبتدأ أو فعلاً، فكأنه يقول: الله مذكوري، الله حاضري، الله ربي، أو كأنه يقول: أذكر الله، أعظِّمُ الله، أسبح الله، أو يستحضر معاني

---

(١) كقول: لا إله إلا الله، أو سبحان الله، أو الحمد لله، أو الله أكبر، أو لا حول ولا قوة إلا بالله، أو الصلاة على النبي ﷺ، أو الاستغفار، وغيرها، وقد يعطيه آية يرددها، ليرسخ معناه، وقد يأمره بذكر اسم من الأسماء مع التهليل أو مع اسم الله، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فيكون الذكر بمعنى الدعاء، فهو يستمد من الله من تلك الصفة التي يذكرها، فإذا ذكر اسم الكريم استمد من كرمه، وإذا ذكر اسم الحليم استمد من حلمه، وإذا ذكر اسم الهادي استمد من هدايته، وهكذا.

(٢) أي فيما بعد القرن الخامس الهجري تقريباً.

(٣) أخرجه مسلم رقم ١٤٨، عن أنس ﷺ، وفي رواية له أخرى: « لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله ».

أسماء الله، فكان ذِكْرُ الاسمِ المفرد جملةً بما يستحضره السالك في نفسه حين الذكر، وليس مجرد كلمة لا معنى له.

ويؤكد الشيخ على السالك في خلوته أن لا يغيب حضوره عن الله، وأن لا ينساه ولو لحظة، وأن يَفِرَّ إليه مِنْ كُلِّ خاطرٍ سواه.

وَوَكَّلَ الشَّيْخُ بِهِ خَدِيْما(١) يُلْقِي إِلَيه القَوْلَ وَالتَّعْلِيما
وَقِيلَ: إِنْ تَكْتِمْ مِنَ الأَحْوالِ شَيْئاً، سَلَكْتَ سُبُلَ الضَّلالِ
فَلَيْسَ عندَ القَومِ بِاللَّبِيبِ(٢) مَنْ لَمْ يَصِفْ شَكْواهُ لِلطَّبِيبِ

فإذا أدخل الشيخُ السالكَ إلى الخلوة، أشرف عليه بنفسه، يرشده ويُذَكِّرُه ويُقَوِّيه، ويراقب حاله وتَحَمُّلَه، ويستمع إلى مناماته وما يحصل معه من أحوال، ويرشده من خلال ذلك، كما يرشده كيف يتعامل مع ذلك.

وعلى السالك أن يبين لشيخه ما يحصل له من أحوال، ويذكر له ما يشعر به وما يُقْلِقُه أو يزعجه، أو ما يجده من ضعف همة، فالشيخ خبير وصاحب علم وتجربة ونور، والشيخ كالطبيب، ولا بد للمريض أن يراجع الطبيب، ولا ينتفع المريض من الطبيب ولا يتحسن إن أخفى عنه بعض الأَعْراض، وبعضَ السلوكيات التي تسبب المرض أو تُبْقِيه.

فمن يريد النفع والترقي؛ لا بد أن يذاكر الشيخ في أحواله وما يجري عليه، ولا سيما في فترة الخلوة.

وقد يوكل الشيخُ بهذه الأمور واحداً من المريدين المُقَدَّمِين، ممن له خبرة وعلم، فيتابع السالك في خلوته، ويلقي إليه التعليمات، ويستمع إلى أحواله، فيحل له إشكالاته، وإن لم يستطع رَجَعَ إلى الشيخ.

---

(١) خديماً: أي خادماً يخدمه ويشرف عليه، ويطلقون الخديم على الصوفي اصطلاحاً، كإطلاق مصطلح الفقير عليه.
(٢) اللبيب: الذكي النَّبِيْه، وعكس البليد.

كما كان الصحابة رضي الله عنهم يراجعون أكابرهم، فإن لم يجدوا جواباً رجعوا إلى رسول الله ﷺ .

فهذا حنظلة ﷺ يراجع أبا بكر ﷺ في أمر فلا يجد جوابه، ويقول له: سبحان الله، ما تقول؟ فيأتيان إلى رسول الله ﷺ ، فيقول حنظلة: نافق حنظلة، نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار فكأنا رأي عين، فإذا خرجنا عافَسْنا[1] الزوجات والضيعات ونسينا كثيراً، فيقول له النبي ﷺ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»[2].

وهذا أُسَيْد بن حُضَيْر ﷺ يراجع النبي ﷺ فيقول: رأيتُ ظُلَّةً، فيُخبره ﷺ أنها الملائكة[3].

و « جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يَتَعاظَمُ أحدُنا أنْ يَتَكَلَّمَ به، قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذاك صَرِيحُ الإيمانِ »[4].

---

(١) عافسنا: أي خالطنا.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٧٥٠، عن حنظلة الأسيدي ﷺ. **تنبيه**: قد روي حديث يكثر ذكره في كتب التصوف لكنه روي بأسانيد ضعيف، وهو حديث « الْحَارِث بن مَالِك الأَنْصَارِيِّ ﷺ، أَنَّهُ مَرَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِناً حَقّاً، فَقَالَ: انْظُرْ مَا تَقُولُ ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟ فَقَالَ: قَدْ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَأَسْهَرْتُ لِذَلِكَ لَيْلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزاً، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، فَقَالَ: يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ، ثَلاثاً » أخرجه الطبراني في الكبير رقم ٣٢٨٩، ونحوه البيهقي في شعب الإيمان رقم ١٠١٠٨ وفي آخره: « مُؤْمِنٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ »، ونحوه البزار في مسنده رقم ٦٩٤٨ عَن أَنَسٍ ﷺ والقصة عن حارثة، وفي آخره: « أصبت فَالْزَمْ، مؤمن نور الله قلبه ».

(٣) أخرجه البخاري رقم ٤٧٣٠ ومسلم رقم ٧٩٦، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وفيه أن أُسَيْد بن حُضَيْر ﷺ كان يقرأ من الليل سورة البقرة، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: « فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مِثْلُ الظُّلَّةِ، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: وتدري ما ذاك؟ قال: لا، قال: تلك الملائكة، دَنَتْ لصوتك، ولو قرأتَ لأَصْبَحَتْ يَنظرُ الناس إليها، لا تتوارى منهم ».

(٤) أخرجه مسلم رقم ١٣٢، عن أبي هريرة ﷺ، وأخرج مسلم رقم ١٣٣ عن عبد الله بن مسعود ﷺ «قال: سئل النبي ﷺ عن الوسوسة، قال: تلك محض الإيمان»، والحديث يدل على أن هناك معاني صحيحةً يجدها المسلم ويتذوقها، قد يخاف الإنسانُ التعبيرَ عنها، أو لا يجد عبارة مناسبة تحيط بمعانيها وأذواقها، وهي مِن الإيمانِ وواضحه وصريحه.

فَلَمْ يَزَلْ مُسْتَعْمِلاً لِلذِّكْرِ فَيَصْمُتُ اللّسانُ وَهْوَ يَجْرِي
وَقَدْرَ ما تَجَوْهَرَ اللّسانُ بِالاِسْمِ يَسْتَثْبِتُهُ الجَنَانُ(١)
ثُمَّ جَرَى مَعْناهُ في الفُؤَادِ جَرْيَ الغِذَا في جُمْلَةِ الأَجْسادِ

ويجتهد السالك في خلوته في الذكر والعبادات، غاية الاجتهاد، فلا يزال على هذا الحال، حتى يشعر أنه لو سَكَتَ؛ فالفِكْرُ يَذْكُر، والقلبُ يُرَدِّدُ ما كان يَذْكُرُه من الأذكار.

وبِقَدْر ما يَجتهدُ في الذِّكْرِ ويُطِيل فتراتِه، مع تَكَلُّفِ الحضور؛ بِقَدْرِ ما يَستقرُّ الذكرُ في قلبه، وتَستقرُّ معاني الذكر في قلبه، ويستقرُّ في قلبه الحضور مع الله وتعظيم الله، فيصير نورُ الذكرِ سارياً في جسده وسبباً في صلاحه، ومعاني الذكر تُغذي عقلَ السالك وقلبَه، وتَرْسَخُ فيه، فلا تخرج طُولَ حياتِه، بإذن الله، ويكون لها أثرها في علاج جميع أمراض القلب، ثم يكون لها أثره في صلاح اللسان وأعمال الجوارح.

وإذا لم يتمكن السالك من دخول خلوة؛ فإنه يُعَوِّضُه عن ذلك شيئاً ما؛ كثرة الذكر والعبادة في كل يوم، فيغتنم كل ساعة من ليل أو نهار للعبادة والذكر، فلا يزال يترقى ويتنور حتى ينالَ ما يَنالُه أصحابُ الخلوة، ولو بعد حين.

(١) تجوهر: صار جواهر، والمعنى هنا: زال عنه ما يغطي خيره، بكثرة الذكر واستمراه، الجَنان: القلب.

المرحلة الخامسة: ثمراتُ السلوكِ والخلوةِ: الفتحُ

المقصد الأهم للتزكية والخلوةِ وتربيةِ الشيخ: أن يَصْلُحَ حالُ الإنسانِ وقلبُه وعملُه، سواء رأى مناماً أم لا، أو أُعطِي إلهاماً أو كَشْفاً أم لم يُعْطَ، وسواء حصل له كرامة أم لا.

لكنْ مِن فضلِ الله أنه يُكرِم السالكَ بثمراتٍ في قلبه، لكن عدم وجود ذلك لا يعني لزوماً نقصاً في الرتبة الإيمانية، فليست العلاقة بين الإيمان والكرامة مضطردة.

وإنما المهم من ذلك المعاني القلبيةُ والفكرية، وأثرُها في السلوك والعمل.

وإن وُجِدتْ تلك العطايا وكان يرافقها الشعور القوي بالقرب من الله، فذلك ما **يسمى بالفتح** في اصطلاح الصوفية، وإن تحقق معنى القرب من غير تلك العطايا؛ فيسمونه عندئذ **فتحاً معنوياً.**

فما الذي قد يعطاه السالك عادة نتيجة سلوكه وخلوته:

فَعِنْدَها حَاذَى مَرَايَا القَلْبِ ... لَوْحُ الغُيُوبِ وَهْوَ غَيْرُ مُخْبِ[١]
فَأَدْرَكَ المَعْلُومَ وَالمَجْهُولا ... حَيْثُ اقْتَنَى لِدَرْكِها قَبُولَا
حَتّى إذا جاءَ لِطُورِ القَلْبِ ... خُوْطِبَ إِذْ ذَاكَ بِكُلِّ خَطْبِ[٢]
فَقِيلَ: لَوْ عَرَفْتَنِي بِكَوْنِي ... قِيْلَ: إِذَنْ فَاْخْلَعْ نِعالَ[٣] الكَوْنِ

إذا صفا قلب الذاكر صار مُنَوَّراً وصار كالمرآة، فقد زالت الحُجُب عنه، وذَهَبَ الرّانَ الذي عليه، قال ﷺ في وصف قلب المؤمن الذي ينكر الخواطر الفاسدة التي تعرض على

---

(١) مرايا: جمع مِرْآة، وهي في نُسَخٍ: مرآة، وفي نُسَخ: أَمِيْرَ، والأولى لا يستقيم معها نظم الشعر، والثانية بعيدة عن المقصود، لذلك أثبت لفظة: مرايا، على الرغم من أنها ليست في نسخة من نسخ الكتاب، غير مخب: غير مُخَبِّإٍ ما فيه.

(٢) طور: جبل، وشبهه بالطُّور، لأنه موضع المخاطبة لموسى عليه السلام، بكل خَطْب: بكل أمر عظيم.

(٣) شبه الكون بالنعال، من باب التفسير الإشاري لقوله تعالى لموسى عليه السلام عند تكليمه: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه: ١٢].

القلب: « وأيُّ قلبٍ أنكرَها نُكتَ فيه نُكْتَةٌ بيضاء» ثم بين ما يؤول إليه هذا القلبُ وحالُ صاحبِه فقال: « عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ »(١).

والمرآة تعكس لك ما تُوَجِّهُها إليه، فتستطيع أن ترى من خلالها، وتكون الرؤية بحسب قوة نظرك، وبحسب صفاء مرآتك، واجتماع هذين يسميه الصوفية: **اسْتِعْداد السالك**.

وإحساسات القلب وفتوحاته تَبَعٌ للروح لا للجسد، والروح مِن عالم الغيب، ولها صِلاتها بعالم الغيب، ولأجل ذلك ترى في المنام ـ في غياب الحس ـ أشياء من عالم الغيب، وقد بَدَأَ الوحيُ للنبي ﷺ بالرؤى الصالحة الصادقة، وأخبر النبي ﷺ أن « الرُّؤْيَا الْحَسَنَةَ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ »(٢).

وقد رأى بعض الصحابة أشياء من الغيب يَقَظَةً، فرأوا الملائكة، وسمعوا تسبيح الطعام، وسمعوا صوتاً في جهنم، وشموا رائحة الجنة، وذلك كلُّه مِن صفاءِ القلب، وشفافية الروح.

وكلما كان السالك أصفى قلباً، كلما كانت رُؤاه أصدقَ وأرقى، فقد قال النبي ﷺ : « وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً »(٣).

فالغيب كتّاب موجود، لكن قلوبنا لا تراه عادة، فإذا صارت لنا عيون قلبية، فقد نشهد من ذلك الكتّاب شيئاً، فهو غير مَخْفِيّ ولا مُغطّى ولا مُخبّأ، إلا ما كان من الغيب المطلق، الذي استأثر الله به، فذلك لا يطلع عليه أحد من الخلق.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٤٤ عن حذيفة بن اليمان ﷺ، وتمام الحديث: « تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوداً عُوداً، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادّاً كَالْكُوزِ مُجَخِّياً، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَراً إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ ».

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٩٨٣، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ. وفي رواية أخرجها البخاري رقم ٦٥٨٧، عن أبي هريرة ﷺ وأنس ﷺ، ومسلم رقم ٢٢٦٤، عن عبادة بن الصامت ﷺ قال ﷺ: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءً من النبوة»، وفي رواية لمسلم ٢٢٦٥، عن ابن عمر رضي الله عنهما: «جزء من سبعين جزءً».

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٢٦٣ وأحمد في المسند رقم ٧٦٣٠، عن أبي هريرة ﷺ .

واطلاع السالك على شيء من ذلك، يكون برؤيا صالحة، أو فراسة، أو كشف أو مشاهدة، أو فهم، أو نحو ذلك، وكلها كرامات لمن يعطاها، والتعامل معها مضبوط بضوابط الكرامات.

ومما يعطاه السالك، مما بينته النصوص القرآنية والنبوية الصحيحة:

ومن جملة ما يُعطاه السالك، أن يُعطَى فُهوماً وعلوماً، حيث يصير قلبه له إدراك زائد عن إدراك عامة الناس، فقد جعل الله له نوراً يُبْصِرُ به، قال تعالى: ﴿ يَهۡدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠]، وقال عز وجل: ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴾ [الكهف: ٦٥]، وقال جل جلاله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢][(١)]، وقال الله في الحديث القدسي: « فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به »[(٢)]، فيصير له مَلَكَةٌ يُدرِكُ بها كمن أُعطِي حاسَّةً زائدة.

وليس هذا العلم مخالفاً لشرع الله، ولا يزيد عليه، وإنما هو فهم فيه، كما قال علي ﷺ: « إلا فهماً يعطيه اللهُ رجلاً في القرآن »[(٣)].

وقد بين النبي ﷺ أن الله قد يَخُصُّ بعضَ عباده بمعرفة عن الله لم يُطْلِعْ عليها أحداً من الناس، فقد علمنا رسول الله ﷺ أن نقول: « أَسأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لك، سَمَّيْتَ به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل

---

(١) وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، على قول بعض المفسرين، ويروى بهذا المعنى حديث لا يصح؛ « مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ؛ وَرَّثَه اللهُ عِلْمَ ما لم يَعْلَمْ ».

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦١٣٧ عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٢٨٨٢، وتمامه: « عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ ﷺ قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيٍّ ﷺ: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلاَّ مَا فِي كِتَابِ اللهِ؟ قَالَ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا أَعْلَمُهُ، إِلاَّ فَهْماً يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلاً فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، قُلْتُ: وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: الْعَقْلُ وَفَكَاكُ الأَسِيرِ، وَأَنْ لاَ يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ ». (فلق الحبة): شقها في الأرض حتى تنبت ثم تثمر، (برأ): خلق، (النسمة): النفس.

القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجَلاء حُزْني وذهاب همِّي »[١]، فقوله: « علمته أحداً من خلقك »، يشعر باختصاص البعض بشيء من العلم عن الله.

ويجد السالك هذه المُدْرَكات في نفسه من غير أن يشعر كيف صارت، وكيف تأتي، كما يستعمل عقله ويجد فيه فهماً، ويستعمل بصره ويجد فيه رؤية، من غير أن يفكر بوجود عقل أو بصر، وقد ينتبه إلى ذلك لاحقاً.

ـ وإذا كان الله يُعَرِّفُ أهل العلم والعمل والصفاء على نفسه، ويطلعهم على أنواره، فليس غريباً أن يطلعهم على ما سواه، فيكشف لهم شيئاً من عالم الغيب في خَلْقِه، مما لم يستأثر به.

والله يُعَرِّفُ أصحاب القلوب الرقيقة عليه، ويقربهم منه ويزيدهم معرفة به، قال ﷺ: « إن لله آنية[٢] من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينها وأرقها »[٣].

ومعرفة العبد بربه هي أعظم المعرفة، فلا تقارن معرفة أخرى بها، فلو جهل العبد عن المخلوقات شيئاً فلا يُعَدُّ جَهلاً ما دام قد عرف ربه، ولا قيمةَ لمعرفةِ شيءٍ إذا جهلَ الإنسانُ ربَّه، فمعرفة الله أساس فهم كل شيء وأساس التعامل مع كل شيء لذلك قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

وإذا كان هاتفٌ من موادَّ مصنعة وجامدة يُسمعك أصوات الناس في آخر الدنيا ويريك صورتهم، فهل تستغرب أن الروح الإنسانية النقية الكريمة على الله يُطلِعُها الله على مثل ذلك.

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٣٧١٢، ابن حبان رقم ٩٧٢، والحاكم رقم ١٨٧٧، عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

(٢) وهذا لفظ مجازي، يجب تأويله، بأن هذه القلوب تحل فيها معرفة الله، وليس ذاته، جَلَّ ربُّنا أن يَحِلَّ في شيء، أو يحصره مكان أو مخلوق، وبعض الصوفية يروون حديثاً قدسياً بمعنى هذا الحديث، لكنه لا يصح نسبته إلى رسول الله ﷺ، وهو: «ما وَسِعَني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلبُ عبدي المؤمن».

(٣) حديث صحيح، أخرجه الطبراني في مسند الشاميين رقم ٨٤٠، عن أبي عِنَبَةَ الخولاني ﷺ.

وإذا بلغ السالك هذه المرحلة وأعطاه الله ثمراتها، فإنه يكرمه بالفهم عنه، فيكون قلبه محلاً لهداية الله وتوفيقه وتعليمه، ولا يكون ذلك كخطاب البشر للبشر، وإنما يكون بهداية يلقيها الله تعالى في قلب عبده، يُعبِّرُ عنها الصوفيةُ مجازاً بالخطاب، ويستدلون لها بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١]، وبقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]، وهذا وحي غير وحي الأنبياء، وبقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١]، فالتكليم وحياً يشمل تفهيم الأنبياء والأولياء، مع فارق الرتبةِ والعطاءِ، والتكليمُ من وراء حجاب وعن طريق مَلَكٍ رسولٍ؛ يَختصّان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام(١).

ومما يدل على هذا الأمرِ وصفُ النبيِّ ﷺ لعمر ﷺ بأنه مُحدَّث، وقد وردت نصوص تَذكُر الهاتفَ الذي هو خطاب رباني أو ملائكي يقع في القلب معناه(٢)، وهو أرقى من الإلهام.

ومن أعطي من هذه العلوم والعطايا والمشاهدات المناسبةِ لِلَطافَته وصَفائِه واستعدادِه ورُتبتِه؛ فإنه لا يقف عندها، ولا ينشغل بها عن ربه وعن عبادته، بل يبقى متوجهاً لمقصوده ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦]، ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

فلا يجعل السالكُ من الْمكاشفات والْمُخاطَبات حاجباً ولا شاغلاً عن طلب الواحد الأحد سبحانه، فمن عرف عظمة الله لم يَشْغَلْه عن الله شيءٌ، ولا ينشغل الصادق بالعطية عن المعطي عز وجل، ولا ينشغل الصادق بالبسط عن الباسط، كما لا يقطعه القبض عن القابض.

---

(١) انظر: تفسير الطبري ج ٢١ ص ٥٥٨، وتفسير القرطبي ج ١٦ ص ٥٣، وتفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢١٧، وتفسير البيضاوي ج ٥ ص ١٣٦، وتفسير النسفي ج ٣ ص ٢٨٧.

(٢) وقد سبق، وذكرنا حديث عمر، وحديث الرجل الذي سمع هاتفاً يخاطِب السحابةَ: اسْقِ أرضَ فلان.

وهاهنا عبر الناظم بتعبيرين مجازيين صارا كالمصطلح عند أهل التصوف، الأول: طُوْر القلب، والثاني: خلع نعال الكون.

فالأول: القلب هو محل التجليات والخطابات والمكاشفات، لكنه نَسَبَه إلى طُوْر القلب، مشاكلة ومجازاً، لأن الطُّوْر كان موضع المخاطبة لموسى عليه الصلاة والسلام، كما ذكر القرآن الكريم، مع العلم أنه لا تكون مُكالمة لأحد ولا مُخاطَبة كمخاطبة الله لموسى وللأنبياء، ومَن اعتقد المساواة بينهما فهو ضالٌّ، كما نبه إلى ذلك الشيخ أحمد زروق وغيره.

والثاني: شَبَّه الغِياب عن الخلْق والكونِ كلِّه وهو مستغرق مع الخالق، بخلع النعلين الذي أَمَرَ اللهُ به موسى عليه الصلاة والسلام عند تكليمه، إذ قال له: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾ [طه: ١٢]، فالخلْق لا يستحقون الالتفات إليهم وأنت في ذكر الله وتعظيمه، كما أنك لو كنت بين يدي ملك من ملوك الدنيا؛ فلا تلتف إلى شهواتك ولا إلى مَن هو جالس في المجلس، فكُلُّ انتباهِك إلى الْمَلِك، فالله أولى بذلك.

ـ وقد يَخْتَبِرُ اللهُ السالكَ في هذه المرحلة بمشاهدات وصور وإلهامات ومعارف، هل يتوقف معها، ويُعجَب بها، ويتولع بها، فيُوكَلَ إليها، ويقف عندها، أو يتراجع عن مقامه، أم لا يَزِيْغُ بَصرُه ولا يَطغى، ولا يميل إلى سوى الله، ولا يعتمد على غيره، ولا يطلب إلا إياه.

المرحلة السادسة: مرحلة الفناء والبقاء والجمع

ثُمَّ فَنَى عَنْ رُؤْيَةِ العَوالِمْ ... ولَمْ يَرَ فِي الكَوْنِ غَيْرَ العَالِمْ
ثُمَّ انْتَهى لِفَلَكِ الحَقِيقَةْ ... فَقِيلَ: هذا غايَةُ الطَّرِيقَةْ
ثُمَّ امْتَحى في غَيْبَةِ الشُّهُودِ ... فَأَطْلَقَ القَوْلَ: أَنا مَقْصُودِي(١)
حَتّى إِذا رُدَّ عَلَيْهِ مِنْهُ ... أَثْبَتَ فَرْقاً، حَيْثُ لَمْ يَكُنْهُ
فَرُدَّ نَحْوَ عالَمِ التَّخْيِيلِ ... وَعَبَّرُوا عَنْ ذاكَ بِالنُّزُولِ(٢)
وَرَدَّهُ بِالحَقِّ نَحْوَ الخَلْقِ ... كَيْ ما يُؤَدِّي وَاجِباتِ الرِّقِّ(٣)

حتى إذا طالَ ذِكْرُ السالكِ لله ودام، وطال حضوره واستغراقُه، ورافق ذلك تعظيم وهيبة، وأنسٌ ومحبة، فلا يَتَذَكَّرُ أحداً سوى الله، ولا يَشُدُّ قلبَه شيءٌ سوى ذكر الله، ولا يخطر في قلبه أحد إلا الله، ولا يَشْتَهِي شيئاً سوى قرب الله ومعرفته، فقلبه متعلق بربه، مجذوب إليه، راغب به، مشتاق إليه، زاهد فيما سواه، مُعْرِض عن غيره، فيذوق السالك

---

(١) استعمل الناظم: لفظ معبودي، وقد غيرته إلى لفظ: مقصودي، بعداً عن الشبهة، وحتى لا يظن القارئ السوءَ بالناظم، فالناظم بين في البيت الذي بعده أن هذا مردود على من قاله، وإنما أراد الناظم أن يبين أن هذه المرحلة يقع فيها شطح من بعض السالكين، فذكر الناظم ذلك لينبه إلى بطلان ذلك، حيث بين في الأبيات بعدها أنه يُرَدُّ عليه قولُه ذلك، وقال بعض شراح المنظومة: إنه ربما يقع السالك في ذلك عن غَلَبَة، وعدمِ وعي لما يقول، فيكون معذوراً، كالذي قال: « اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح »، أو على سبيل رؤية الفاعل، فكأنه يقول: فعلي فعل معبودي وخالقي، فهو يرى أفعاله بالله، كما أن الخضر عليه السلام نَسَبَ الفعل إلى نفسه تنزيهاً لربه، حين قال: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾، ونَسَبَه إلى نفسه وإلى ربه حينما كان ظاهره السوء وباطنه الخير، فقال: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ ﴾، ونسبه إلى ربه حين كان خيراً محضاً، فقال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.

(٢) عالم التخييل والخيال: اصطلاح عند القوم يطلقونه على الكون كله، أي على ما سوى الله.

(٣) الرِّق: أي العبودية لله.

إذ ذاك حقيقة **الفناء في الله**، كما يسميها الصوفية، فيفنى بالله عن كل ما سواه، فكأنه مِنْ شِدَّة استغراقه مع الله، لا يعلم أحداً سواه، ولا يتذكر مخلوقاً، ولا يحس بشيء.

ويرافق ذلك معرفةُ السالك بالله وأسمائه وصفاته، مع التخلق بالآداب اللائقة معها، وتلك هي الحقيقة التي يسعى إليها السالك، فتلك نهاية الطريق والسلوك إلى الله، إذ بدأ مرحلة المعرفة فتلازمه بعد ذلك، ويكون سيره إلى الله عندئذ بالقيام بحقوق الربوبية والألوهية دائماً، وبالتأدب مع الله تمام الأدب.

وسمى الناظم هذه الحقائق فَلَكاً، إشارة إلى أنه مَدارٌ يَستقرُّ فيه السالك، فصار مقاماً له، وصار له فيه ثبات ودوام، ومنه يصير انطلاقه وترقيه، كما أن القمر الصناعي يصل إلى فلك فيستقر فيه ويدور فيه بلا كلفة ولا وقود، لكنه بذل وقوداً هائلاً حتى وصله، فكذلك السالك بذل جهداً ومجاهدة وصبراً وعملاً وإقبالاً حتى بلغ هذا المقام وهذا الفلك، فيستقر فيه من غير مجاهدة، بل بلغ الهداية والطمأنينة ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

واستقراره في فلك لا يعني التوقف عنده، بل إن السالك الصادق يبذل جهداً جديداً ومضاعفاً ليرتقي إلى فَلَكٍ أرقى.

ـ **وخلال هذه المراحل يمر السالك بدرجات** ويترقى في الأحوال والمنازل والمعارف:

١. فإذا بدأت معرفته بالله وتعلقه به، صار ينتبه إلى **أفعال الله**، وأن كل فعل في الكون، وكل فعل يفعله الخلق، فهو بالله ومن الله، فلولا الله ما كان من الناس شيء ولا فعل ولا حركة ولا وجود، فيستشعر دائماً معاني هذه النصوص: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [هود: ٨٨]، « اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك

لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر »، « اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا »، « لا حول ولا قوة إلا بالله »، ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١]، « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ... ».

٢. فإذا ازداد السالك معرفة وذكراً وتَنَبُّهاً، صار يرد أفعال الله إلى صفاته، ويلتفت إلى **الأسماء والصفات**، وكأنه يعيش معها في كل ساعة، فَيَرُدُّ أفعالَ الرحمةِ إلى اسم الرحمن الرحيم، ويرد أفعال الهداية إلى اسم الهادي، ويرد أفعال الرزق إلى اسم الله الرزاق، وهكذا حتى يصير خبيراً بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وينظر إلى أفعال نفسِه والخلْقِ والكونِ من خلالها.

٣. فإذا ازداد ذِكْراً ومعرفة، كان الْتِفاتُه إلى مَنْ لَه تلكَ الأفعالُ والأسماء والصفات، فيستغرق مع الله، ولا يغيب عنه.

وبعد أن كان قبل سُلوكه يَنشغِل عن الله بكلِّ شيءٍ، صارَ الآنَ كُلُّ شيءٍ يُذَكِّرُه بالله، ويزيده معرفة بالله.

وهذا الدرجات هي التي يسميها الصوفية: **الفناء في الأفعال ثم الفناء في الصفات ثم الفناء في الذات.**

وهذه المقامات لا يكون مرور السالك بها مجرد أمر فكري علمي، بل يرافقها ذوق وحال وتحقق.

ـ وفي هذه المرحلة وبعد الاستغراق في الذكر وفي رؤية أفعال الله وصفاته، يستشعر السالك أن الوجود الحقيقي الذاتي هو وجود الله وحده، ويستشعر أن وجودَ غيرِه وجودٌ إضافي، مضاف إلى الله وإلى فعل الله، فالله هو خالق كل شيء، وهو مُمِدُّ كلِّ شيء، فيستشعر السالك عندئذ أن الكون كلَّه كالعدم، إذ لا قيام له بنفسه، ولا قيام له إلا بالله،

فيكون عندئذ كأنه يرى الله، « أن تعبد الله كأنك تراه »(١)، وهي رؤية علمية حيناً وذوقية حيناً آخر، يستغرق بها السالك حتى يغيب عن شهود غير الله في شهود الله(٢).

ـ وفي هذه الحالة قد يقع لَبْسٌ ووهم من شدة الاستغراق عند بعض السالكين، فينفي وجود الخلق، وينفي وجود نفسه، ويدعي أن كل شيء هو الله، وأن كل ما سواه عدم، وذلك باطل وشَطْح وتجاوز، وهو كلامٌ كفرٌ، وإن لم يقصد صاحبه ذلك، فوجودك الإضافي وجود له أحكامه، وكونك لا تقوم بذاتك لا يعني أن تنفي وجودك وأحكامه، ووجودك ليس كوجود الله، والمحسوس والمكان والكون كلها غير الله، وإن كانت لا قيام لها إلا بالله.

وهذا الخطأ الخطير يحصل لبعض السالكين نتيجة نقص في العلم الشرعي، أو توهيمات وتلبيسات شيطانية، لذلك يتنبه الشيخ إلى احتمال حصول هذا الشَّطْح، فيراقب السالك، ويَرُدُّه إلى الحقّ، ويُذَكِّرُه بالحق، ويرد على شبهته إن حصلت، بأنك أيها الإنسان لم تكن، فكيف تكون أنت هو الخالق المعبود، فذلك مستحيل، لأن الله ليس بمُحْدَث، وأنت مُحْدَث.

ـ وإذا كان السالك يمر في ساعات الذكر والاستغراق بحالة الفناء(٣)، فإنه لا بد له أن يصحو على نفسه ودنياه، ليأكل ويشرب ويتعبد ويعمل، فحالة الفناء الذوقية لا تستمر طويلاً، فيصحو السالك على نفسه، وقد بقي معه أثر الفناء، وهو حضورُه الدائمُ مع الله فلا ينساه، فإذا رجع إلى أعماله ودنياه وهو حاضر مع الله، فتلك التي يسميها الصوفية: **حالة البقاء**، إذ يبقى القلب مع الله على الرغم من اشتغاله بدنياه وملابسته للأعمال ومخالطته للناس، ويسمون رجوعه إلى أعماله ودنياه: **نزولاً**، لكنه يرجع إلى الدنيا لا كما خرج منها،

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠ ومسلم رقم ٩، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) وهي شهادة علمية وليست شهادة بصرية، كما تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، فأنت تشهد على ذلك شهادة المعنى والعلم، لا شهادة البصر والحس.

(٣) ويُسمّيها بعض الصوفية حالة السُّكْر، حينما تكون حالة ذوقية يغيب فيها الذاكر تمام الغياب عما سوى الله، فإذا انتبه إلى الخلق بعدها سَمَّوْها حالةَ الصَّحْو.

كان مع دنياه بشهواته ونفسه ورغبته، وهو اليوم معها بأمر الله وحكمه، مع التحقق بزهده فيها، قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠]، قالوا: نزل إلى أرض الحظوظ بسماء الحقوق، بالتمكين والأدب والإذن والحضور، لا بالغفلة والنفس والشهوة.

وعندئذ يكون السالك الذاكر متحققاً بقول الله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [النور: ٣٧]، وبقوله: ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤١]، وبقوله: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وبتفسير ابن مسعود ﷺ لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال: « أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر »[١].

ـ ويرافق هذه المرحلة في أواخرها حرص من السالك على التخلق بأسماء الله على مقتضى العبودية، بأن يأخذ من كل اسم معناه، ويتخلق به بحسب ما أمر به شرعاً، فيكون رحيماً كريماً عليماً هادياً، وهكذا، ويتخلق بأسماء الجلال بحسب ما أجازه الشرع، فيكون متكبراً على الظالمين والمتكبرين، ويكون جباراً على المجرمين، ويكون منتقماً من المفسدين، ويكون عزيزاً على الكافرين[٢].

فإذا جمع السالك بين التأدب مع كل اسم من أسماء الله بما يناسبه من أدب، وتخلق بمعاني الأسماء الحسنى على حسب ما يليق بالعبد، فذلك الذي أحصى الأسماء الحسنى، في مصطلح الصوفية، إذا قام بذلك في حق جميع الأسماء الحسنى[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم ٣٤٥٥٣ وله تتمة، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٢٦/٦ وقال: رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

(٢) وقد اعتنى بعض علماء التصوف بهذا الجانب، منهم الشيخ الغزالي والشيخ أحمد زروق.

(٣) قال ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة » أخرجه البخاري رقم ٢٥٨٥ ومسلم رقم ٢٦٧٧ عن أبي هريرة ﷺ.

وقد يأنس السالك إلى الخلوة والبعد عن الناس، ويحب حالة الفناء والاستغراق، فيخرجه الشيخ منها، ويأمره بأن يقوم بواجباته الشرعية، من عمل وتكسب، ومن أكل ونكاح، ومن عبادة وطاعة، ومن تعليم وتربية ودعوة، وهو في كل ذلك عبدٌ لله طائعٌ ذاكرٌ.

فَكَلَّمَ النّاسَ بِكُلِّ رَمْزِ وَأَلْغَزَ التَّعْبِيرَ أَيَّ لُغْزِ
وَعِنْدَمَا أَسْلَكَهُ المَسالِكْ أَقامَهُ شَيْخاً لِكُلِّ سَالِكْ

فبعد ما مر السالك بكل هذه المراحل، تحت إشراف شيخه، صار أهلاً للمشيخة، فقد أخذ علوم السلوك، وتحقق بها، ومرَّ بها بنفسه، فصار مُجَرِّباً خبيراً، وصارت لديه قدرة على التفهيم والتعبير عن معاني السلوك وأذواقه، يستعمل بما آتاه الله مِن حكمة(١) عباراتٍ صريحةً أحياناً، ويرمز بالمثال والكناية والألغاز والإشارات أحياناً، ذلك أن بعض الأذواق قد يَشُقُّ التعبير عنها، أو يكون التعبير عنها مُوْهِماً، فيفر من الإيهام إلى الإبهام، لئلا يَفهَم إلا مَن كان مُشْرِفاً على الحال الذي يتحدث عنه.

فإذا رأى الشيخ ذلك من السالك، وقد أنهى مراحل السلوك، وصار قادراً على التربية والإرشاد، وقادراً على التأثير والتغيير بإذن الله، أَذِنَه الشيخُ بالمشيخة والتسليك، فجعله شيخاً، وأمره بِتَقَبُّلِ التلاميذ والسالكين، والإشراف على المريدين، ليرشدهم، ويربيهم، ويصلحهم، ويقربهم إلى الله، بعد عَونِ الله وتأييده.

فَهَذِهِ أَحْوالُ ذِي الأَحْوالِ تُدْرَكُ بِالأَفْعالِ لا الأَقْوالِ
فَهكَذا كانَ طَرِيقُ القَومِ وَلَمْ يَزَلْ يَخْصِمُ كُلَّ خَصْمِ(٢)

---

(١) فله نصيب من قول الله تعالى في داود عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾، [ص: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

(٢) يخصم: ينقص.

وَهْيَ إذا مَا حُقِّقَتْ مَوارِثْ ... عَنْ خَيْرِ مَبْعُوثٍ وَخَيْرِ وَارِثْ
وَهكَذا الشَّيْخُ على التَّحْقِيقِ ... إِذْ كانَ مِثْلَ سَالِكِ الطَّرِيقِ
وَمَنْ يَكُنْ بِهَذِهِ الأَوْصافِ ... شَيْخاً وَتِلْمِيذاً فَعَنْ إِنْصافِ
فَهَذِهِ لَوازِمُ الأَحْكامِ ... جِئْنا بِها تَتْرَى عَلَى نِظَامِ
وَما ذَكَرْنَا فَهْوَ كَالقَلِيلِ ... إِذِ اخْتَصَرْنا خَشْيَةَ التَّطْوِيلِ

فهذا هو السير إلى الله تعالى، وهذه مراحله، وهذه ثمراته، وهو عمل واجتهاد وعبادة وفتح، ولا يأتي بالكلام والتشدق، إنما يأتي بالتطبيق والتحقق.

وعلى هذا سار مشايخ التصوف وطلابهم، لكن طريق التصوف صار ينقص زمناً بعد زمن، حتى ضاعت كثير من معالم طريق الإحسان والصديقية.

وهذه المقامات التي ينالها الصوفية الصادقون هي في الحقيقة ميراث من ميراث النبي ﷺ، فهناك ناس وَرِثُوا العلمَ، وهناك ناس ورثوا العمل، وهناك ناس ورثوا العلم والعمل والحال، وهم الذين يستحقون وصف العلماء، في قوله ﷺ : « والعلماء ورثة الأنبياء ».

وما من شيخ إلا وقد مر بطريق السالك، علما وعملاً وحالاً وذوقاً، حتى صار من أهل اليقين والتمكين والرسوخ والتحقيق، فتأهل لرتبة المشيخة.

فمن سار على الطريق المذكور، فهو الْمُسْتَحِقُّ لأن يسمى سالكاً ومريداً ثم شيخاً بحق.

وما سبق ذكره في هذه المنظومة، فهو أهم مسائل التصوف وأهم أحكامه، وإلا فالتصوف عِلْم واسع، فهو أعلى الدين وأزكاه وأرقاه، ولكن شأنَ المنظومات الاختصارُ، وتقريبُ الْمُهِمّات، والتشويق إلى الزيادة.

الفصل الرابع

في الرد على من رده
وليس يدري شأنه وقصده

كثير من الناس أنكروا التصوف، وإنكارهم راجع إلى عدم معرفتهم بالتصوفِ، وعُلُوِّ مقصدِه، وأحكامه المستنبطة من الكتاب والسنة، ولو علموا أن التصوف هو مقام الإحسان، الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة، وحث عليه؛ لما أنكروا.

هَذا الطريقُ مِنْ أَجَلِّ الطُّرُقِ فَافْهَمْ هُدِيتَ واقْتَدِهْ بِنُطْقِ
إِنَّ العلومَ كلَّها المعلُومَةْ فُنونُها في هذهِ مَتْهُومَةْ
إِذِ العلومُ في مَقامِ البحثِ وإنَّ هذا في مَقامِ الإِرْثِ
ومُنْكِروهُ مَلأٌ عَوَامُ لم يَفْهَموا مَقْصودَهُ فَهامُوا

فهو طريق مأخوذ من الشريعة، يَسلُكُه المسلمُ، ليستفيد علماً، ويجتهد عملاً، ثم يترقى حالاً، فاحرص على أن تفهم هذا الطريق، وتحرى موافقته الشريعة، ولا تبادر إلى الإنكار، وأنت لا تدري ما تنكر.

كل علوم الشريعة عظيمة ومهمة ولازمة، لكنها جميعاً لا فائدة منها إذا لم تُوصلْك إلى صلاح النفس والتحقق بتزكيتها، فالعلوم كلها مقدمات بالنسبة إلى علم التزكية والتصوف، فأنت تتعلم العقيدة والفقه، لتصل من خلالهما إلى التحقق بمراد الله، وما لم تكن نفسك طاهرة، سيكون حالك حال العاصي أو المنافق، فمن تحقق بتطهير النفس وتقريبها إلى الله؛ فهو الذي ورث العلوم وفوائدها والعمل بها وآثارها المطلوبة، وراثة صحيحة عن رسول الله

ﷺ ، وذلك هو الذي يسعى إليه طريق التصوف، وما لم يتحقق العالِم بطهارة النفس؛ فيخشى عليه أن يكون عالماً كإبليس، وهو الشر بعينه، وما لم يُصلح العالِم قلبَه ونيته؛ فيُخشى عليه أن يكون كالمنافقين الذين كانوا فيمن جالس رسول الله ﷺ وجاهد معه وصلى وصام وتصدق، ثم كان في الدرك الأسفل من النار.

والعلماء بحق لا يجهلون طريق التصوف وأهميته، إنما ينكره ناس كالعامة، جاهلون أو متسرعون، خفي عليهم شأن التصوف وعظيم رتبته، وخفي عليهم حقيقةُ طريقِه، وموافقتُه للكتاب والسنة، وجهلوا أنه الطريق إلى التقوى والتزكية والإحسان والصِّدِّيقِيَّة والرَّبانيَّة، فهو طريق تربوي عملي مطلوب شرعاً.

أسباب الإنكار على التصوف

وكُلُّ مَنْ أَنكرَ مِنْهُ شيئا ... فإنّما ذاكَ لِسَبْعِ أَشْيا
لِجَهْلِهِ بِنفْسهِ الشريفةْ ... وكَوْنِها في أَرْضِها خَلِيفَةْ
وجهله بِالعالِمِ المعْقولِ ... وشُغْلِهِ بِظاهِرِ المنْقولِ
وسَهْوِهِ عن عملِ القُلوبِ ... والخوْضِ في المكْرُوهِ والمحْبوبِ(١)
والجَهْلِ بِالحلالِ والحرامِ ... والمَيْلِ عن مَواهِبِ الإلْهامِ

وإنكار من أنكر على التصوف يرجع إلى سبعة أمور:

١. جهله بأن الروح الإنسانية سِرٌّ عظيم، وأن النفسَ الإنسانيةَ نفسٌ عظيمة، لها خصائص عظيمة، وإمْكاناتٌ عظيمة، وقُدراتٌ عظيمة، وأعمال جليلة، وإدراكات واسعة، وعطايا تنتظرها من الله كريمة.

(١) المكروه والمحبوب: أي المكروه شرعاً المحبوب نفساً، مما تحبه النفس بهواها وشهوتها، أو يخوض في كل كلام لا يميز بين مقبول ومردود.

فتجده اليوم لا يَستغرِب أن يضع هاتفاً بجنب هاتف فتنتقل معلومات وصور وأصوات، من الهاتف الجامد الذي لا روح فيه إلى الهاتف الآخر، بينما يستغرب أن يتأثر الإنسان إذا جلس بجنب الصالحين والأولياء، وتَرتقي أحوالُه وتَنْشَطَ هِمَّتُه.

لا يَستغرِب أن يُطلِعك الهاتفُ الجامد إلى آخر الأرض فترى الناس وتحدثهم، ويستغرب أن يطلع الله أولياءه على مثل ذلك، بما آتاهم الله من روح طاهرة صافية شفافة.

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ظلوماً فلا يقوم بحق ربه، جهولاً بحقيقةِ نفسه، والمسؤوليةِ التي حمله الله إياها.

٢. جهله بأنه مستخلف في الأرض[١]، وهذه الخلافة تقتضي مزايا وعطايا، فلا تكن جهولاً بها، فأنت أيها الإنسان سيد وأنت الإمام، وكُلُّ شيءٍ خُلِق لأَجْلك[٢]، فلا تكن خادماً للدنيا وحطامها، بل اجعل منها وسائلَ لتحقيق سيادتك ونجاتك في الآخرة، ولا تكن عبداً لغير الله فتخسر، إذ تعبد من لا يستحق العبادة، وتعبد مَن هو مِثلُك، وكن عبداً لله فهو الذي يَقْدِرُ أن يجازيَك، وكتب لك بطاعته الثوابَ الجزيل والنعيم العظيم.

٣. جهله بالمعاني والبواطن، واشتغاله بالأواني والظواهر فحَسْب[٣]، فيصلح ظاهر دنياه ومظهره ولباسه وبيته وأكله وشربه ومركبه، ولا يدري شيئاً عن روحه ومقصد وجوده،

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال عز وجل: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ٣٩].

(٢) قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣].

(٣) قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٧-٩].

ولا يلتفت إلى الغيب وما وراء المادة، ويدع قلبه فاسداً غير صالح، مُظلماً غير مُنَوَّر، نَجِساً غير طاهر، فوضوياً غير مُرتَّب، مُعْوجاً مريضاً غير سليم، ومنهم يقرأ بعض النصوص الشرعية قراءة ظاهرة ينحرف بها عن مقاصدها وروحها وجمالها، فيدعي الالتزام والطاعة وهو لا يحقق ما يريده الله منه، ومنهم من تجده منشغلاً بالعبادة شكلاً ومظهراً، لا مضموناً، ولا يحقق مقصدها وروحها، ولا ينال نورها.

٤. غفلته عن قلبه، وأن القلب عالَم وروح، وأن للقلب خواطرَ ورغباتٍ ونِياتٍ وإراداتٍ وأعمالاً وصفاتٍ وأحوالاً ومقاماتٍ وسمعاً وبصراً.

٥. يخوض في كل شيء وينشغل بما أمامه، مِن غير أن يُقَدِّرَ لزومَه وضرورته، ومن غير أن يُقَدِّم الأولويات، ويشتغل في شهواته المحبوبة لديه، ويقع في المكروه الذي تهواه نفسه ولو كان يضرُّه.

٦. عدم تفقهه في الدين، فلا يعلم الحلال والحرام، أو لا يتحرى موافقته، أو يخالفه بهواه ودَعْواه، ويجهل أن لله أوامرَ ونواهٍ على قلبه كالأوامر والنواهي على جسده وأعماله، وكثيراً ما يقع الإنسان في معصية لجهله أنها معصية.

٧. انحراف النفس عن طلب المواهب، جهلاً بوجود مواهبَ يُعطيها اللهُ لأهل الاستقامة، أو تقديماً لأهواء النفس وشهواتها الحاضرة، على الْمَكارِه[1] التي تأتي بالمواهبِ اللاحقةِ، مِن طمأنينة وسكينة وتوفيق وإلهامٍ وفراسة وكشف وكَرامةٍ وجنةٍ عرضها السماوات والأرض.

وقد ينكر بعضُ الناسِ ما ليس عنده، وهذا نوع من الكِبْر، إذ يجعل من نفسه وحاله وضعفه وظُلْمَتِه مقياساً، فإذا علم أن أحداً أعطي عطاءً، فإنه ينكره ويكذبه، بلا عِلْمٍ ولا دليل، بَدَلاً من أن يَسْعَى لِتحصيله والبحث عنه.

(١) قال ﷺ: « حُفَّتِ الجنةُ بِالْمكارِهِ، وحُفَّتِ النّارُ بالشهوات » أخرجه مسلم رقم ٢٨٢٢ عن أنس بن مالك ﷺ، وأخرجه البخاري رقم ٦١٢٢ عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: « حُجِبَتِ النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره ».

وأْعْلَمْ بِأَنَّ عُصْبَةَ الجُهَّالِ بَهائِمٌ في صُورَةِ الرِّجالِ
ومَنْ أَباحَ النَّفْسَ ما تَهْواهُ فَإنّما مَعْبودُهُ هَواهُ

والجاهل عدو نفسه، هو في الصورة رجل، لكنه يخلو من معنى الرجولة(١) والإنسانية المؤمنة، ومَن جعل مِن نفسِه عبداً لنفسه أو لهواه أو لمخْلُوقٍ أو لطاغوتٍ يُعبَدُ من دون الله، فقد أذل نفسه، إذ أخضعها لمن لا يستحق أن يكون معبوداً، والمؤمن هو من أخضع نفسه لله وحده، فالله وَحْدَه الإلهُ الأحد، لا إله إلا هو ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ ﴾ [يونس: ٣].

فانضبِط في حياتك بأمر الله، فهو الإله وحده، ولا تجعل قائدَك وآمرك وناهيك نفسَك، فتكون عبداً لها، ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣]، ولن تغني عنك شيئاً، ﴿ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم: ٤٢].

وطريق التصوف هو السبيل لتطهير النفس من عبادة الأهواء، وهو السبيل للتحقق بالإخلاص والعبودية التامة لله سبحانه، فإن الإنسان إذا قدم ما تهواه نفسه ينصرف عن أمر الله، ويحرف أحكام الله، ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦].

تَاللهِ ما يَجْمُلُ بِاللَّبِيبِ جَهْلُ البَعِيدِ مِنْهُ والقَرِيبِ
كَيْفَ يُرَى في جُمْلَةِ السُّبَّاقِ مَنْ حَظُّه مع الحُظوظِ باقِ
متى يَجِدْ جَواهِرَ المَعاني مَنْ قلبُه على الدَّوامِ عاني
لَمْ يتَّصِلْ بِالعالَمِ الرُّوحاني مَنْ عُمْرُهُ على الفُضُولِ حانِي
لَيْسَ يُرَى مِنَ المَعالِي دَانِ مَنْ قلبُهُ في عالَمِ الأَبْدانِ
مَهْما تَرِقُّ مَادَّةُ المَوْضُوعِ يَأْخُذُ نَجْمُ الدَّرْكِ في الطُّلوعِ

---

(١) قال تعالى: ﴿ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ [التوبة: ١٠٨]، ﴿ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ ﴾ [النور: ٣٧].

لا ينبغي للإنسان أن يكون بليد الفكر غشيماً غافلاً، فلا يدري ما هذا الكون، ولا يدري نفسه، ولا يدري وظيفته في الحياة، ولا يدري مَنْ خَلَقَه، وما حَقُّه عليه، ولا يدري ما مآله، ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

كيف تكون ذكياً وسابقاً ومنافساً، وأنت تعيش لحظوظك وشهواتك الفانية، إنما تكون واعياً وذكياً ومنافساً إذا نافست للآخرةِ الباقية، ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦]، ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقّة: ١٢].

لن تنال الخير ما دمت قاصر النظر، حَظُّك الشهوات والسفاسف[١].

لن يعرف ما في النفس من نفائس ولآلئ وجواهر وعطايا وأنوار، مَن كان قلبه مريضاً.

لن يجد معالي الروح ولن يستفيد من خصائصها وفتوحاتها، مَنْ يعيش تاركاً للأولوياتِ، ولِمَقاصِد الحياةِ، طالباً ما يستغنى عنه، منشغلاً فيما يجب الزهد فيه.

لن يكون من أهل القُرْب والمراتب العالية والمقامات السامية، مَن تفكيره وهَمُّه في بدنه وحِسِّه وظاهره، وطعامه وشرابه ولباسه وفَرْجِه.

إذا أردت أن يَتَنَوَّر قلبُك وتَشِفَّ رُوحُك، فقَلِّلْ من عنايتك ببدنك وشهواته وشواغله، وزِدْ اهتمامك بالمعاني والحقائق التي خُلِقْتَ لها.

يَا حَسْرَتِي إِذْ لا مُجِدَّ راكِبْ — يَصْحَبُنا في هذِه المَراكِبْ
يا مَعْشَرَ الإخْوانِ هَلْ مِنْ سائلْ — أُخْبِرُهُ عن هذه المَسائلْ
وَاأَسَفا يا فِتْيَةَ الوُصُولِ — على انْصِرامِ[٢] حَبْلِها المَوْصُولِ

---

(١) قال ﷺ: «إن الله يحب معاليَ الأمور وأشرافَها، ويكرَه سَفْسافَها»، حديث صحيح، أخرجه الطبراني ٢٨٩٤ والبيهقي في سننه الكبرى ١٩١/١٠ والحاكم رقم ١٥١ و١٥٢ وصححه، وبعضهم يرويه بلفظ: يحب معالي الأخلاق.
(٢) انصرام: انقطاع.

لَوْ أَبْصَرَ الشَّخْصُ اللبيبُ العاقِلْ | لَمْ يُعْتَقَلْ عن هذهِ المَعاقِلْ[١]
يا صاحِبَ العَقْلِ الحَصِيفِ الوافِرْ | إيّاكَ أَنْ تَصْدِمَكَ الحَوافِرْ[٢]
لَقَدْ غَدا الكونُ عليك سافِرْ | إِذْ لم تكنْ فيه كما المُسافِرْ[٣]
يا مُوْثَقاً فِي وَثَقِ المَهالِكِ | تَزْهُو أَرَاكَ اليَوْمَ زَهْوَ المالِكِ[٤]
يا مَنْ أُعَاتِبُهُ على الدَّوَامِ | حَتَّى مَ أَجْفَانُ الدَّوَا دَوَامِ[٥]
كَمْ أَنْتَ ذُو وَسَائِدٍ عِراضِ | لَاهٍ عَنِ الجَوْهَرِ بِالأَعْراضِ؟[٦]

يتحسر الناظم أنه لم يعد في زمانه[٧] من يرغب في طريق التصوف ومعاليه، فَقَلَّ مَن يَسعى في صلاح النفس وطهارتها من أمراضها، وقَلَّ من يجتهد لتحصيل المراتب العالية.

ألا يوجد مَن يسأل عن تلك المعالي والمعاني، حتى أجيبَه وأدلَّه عليها؟

إنه لمن المحزن أن ينقطع في الأمة هذا الطريق الفاخر الموصول أهله بالله.

لو أن أحدَنا كان عاقلاً ذكياً، لما تأخر عن هذه الأمور التي يُدرِك العقل حسنها وجمالها وعلوها.

ولو كان أحدُنا صاحبَ عقلٍ كبير يُفكِّر تفكيراً مُحْكَماً، لما رضي بالمراتب الدنيئة والدنيا الفانية.

---

(١) اللبيب: الذكي، يَعتقل: يُحْتَبَس، المعاقل: ما يعقله العقل ويدرك حُسنَه.

(٢) الحصيف: المتقِن المُحْكَم التفكير، تصدمك الحوافر: تدوسك أرجل الخيل، كناية عن القبول بالدُّوْن.

(٣) سافر: أي ظاهر، ليس يحجبه شيء، وهو كناية عن أنه محيط به ساجن له، أو يعني أنه كالمرأة السافرة، فهو فتنة إذا لم تكن مسافراً سائراً مُسرعاً لا تلتفت إلى فتنه وزينته.

(٤) موثقاً: مربوطاً ومقيداً وثق: ما يقيد به.

(٥) دوامِ: أي دوامي، أي باكيات. والمعنى أن الأجفان المحتاجة إلى الدواء باكية، لعدم علاجها.

(٦) وسائد عراض: مخدات سميكة، وهو كناية عن البلادة، لاه: لاعب، من اللهو، الجوهر: الجسم، كناية عن أصل الشيء، الأعراض: الصفات التي لا تقوم بذاتها كالحركات والألوان، كناية عما يتغير ويتبدل ويزول.

(٧) وهو في بداية القرن التاسع، فكيف لو كان في زماننا.

إن لم نتوجه إلى الله ورضوانه ونعيم الآخرة، ستبقى مسجوناً بالكون والحِسِّ والتفكير به، وعندئذ لن تنتقل من حال إلى أعلى، لأنك رضيت بالوقوف عند محطة، والصادق يبقى يتنقل ويترقى حتى يلقى الله على أحسن حال يستطيعه(١).

مَن كان مسجوناً ومحبوساً ومربوطاً ومُقَيَّداً بأهوائه ودنياه، فإنه يتعالى ويتكبر ويظن نفسه على شيء إذ ملك شيئاً من الدنيا، وقد نسي أن الله هو المعطي، وأن كل شيء بيد الله، وأن هذه الدنيا ستنتهي، فماذا أعد لآخرته.

يا من هذا حاله، والصالحون يعاتبونه مرة بعد مرة، إلى متى ستبقى تعاني من أمراض القلب، فتبقى عِلَلُه متمكنةً فيك، وتكون كالغبي الذي يُعذِّب نفسَه ويبكي، فيرضى أن يبقى في المرض وآلامه، ولا يتداوى منها، والعلاجُ والدواءُ والطبيبُ بين يديه وقريبٌ منه.

ما أشدَّ غفلتَك وبَلادَتَك وقلةَ فَهمِك ونباهَتِك إذ تلهو عن المهمات والحقائق، بأشياء زائلة هينة لا قيمة لها ولا وَزْن.

مَتَى تَعَدَّيْتَ عنِ الأَجْسامِ ... أَبْصَرْتَ نُورَ الحَقِّ ذَا ابْتِسامِ
مَهْما ارْتَقَيْتَ عَنْ قَبِيلِ الحِسِّ ... أَدْرَكْتَ في نَفْسِكَ مَعْنى النَّفْسِ
يا مَنْ على القِشْرِ غَدَا يَحُومُ ... حَتَّى عَنِ اللُّبِّ مَتَى تَصُومُ؟
يا مَنْ إذا قِيلَ له: تَعالَ ... لِمَنْهَجِ التَّحْقِيقِ قَالَ: لَا لَا

في هذه الأبيات تأكيد لمعاني سبقت في أول المنظومة.

يا جاهلاً مِنْ دَارِهِ سُكْنَاها ... وَهْوَ يُؤَدِّي أَبَداً كِرَاها
أَتَدْرِ مَنْ أَنْتَ؟ وَكَيْفَ تَدْرِي؟ ... وَأَنْتَ قَدْ عَزَلْتَ وَالِي الفِكْرِ

---

(١) حتى النبي ﷺ يَطلُب ذلك، فيُعلِّمُه الله أن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

يا سابِقاً في مَوْكِبِ الإِبْداعِ ... وَلاحِقاً في جَيْشِ الاخْتِراعِ
اِعْقِلْ فَأَنْتَ نُسْخَةُ الوُجُود ... لله ما أَعْلاكَ مِنْ مَوْجُود
أَلَيْسَ فيك العَرْشُ والكُرْسِيُّ ... وَاللَّوحُ والعُلْوِيُّ والسُّفْلِيُّ
ما الكَوْنُ إِلّا رَجُلٌ كَبِيرُ ... وَأَنْتَ كَوْنٌ مِثْلُهُ صَغِيرُ
فَأَنْتَ لَسْتَ مِنْ قَبِيلِ الأَرْضِ ... حَتّى إِذا أُرْسِيْتَ(١) فِيها تَمْضِ
اِحْتَلْ على النَّفْسِ فَرُبَّ حِيلَةْ ... أَنْفَعُ في النُّصْرَةِ مِنْ قَبِيلَةْ

الذي لم ينتفع من قلبه وروحه، كالذي استأجر داراً ولم ينتفع منها، وهو يدفع أجرتها، وهو كالمبصر الذي يُغمِض عينيه، ويعيش بلا نظر، كم يخسر ويتعب، وكذلك الذي لم يعرف قيمة القلب، فلم يستعمله فيما خُلِقَ له.

كيف تعرف شرف روحك ونفسك وأنت تركت التفكير، والتفكير هو عمل العقل، وهو الذي يجب أن يبدأ منه الإنسان وينطلق منه، ويجعل الحقائق التي يتوصل إليها هي الأساس الذي يبني عليه حياته وسلوكه وتعامله مع الدنيا والمال والشهوات.

فالعقل هو قائد الإنسان، وليس الجسمُ ورغباته وشهواته(٢).

أنت أيها الإنسان وإن كنت حادثاً مخلوقاً، لكنك قديم في علم الله، أبدعك الله، وأكرمك، ومَيَّزَك على جميع المخلوقات.

انتبه واستعمل فكرك: فأنت أيها الإنسان لَكَ شأنٌ عظيم، يمكن أن تُدْرِكَه من خلال المثال:

وهنا ضَرَبَ الناظِمُ رحمه الله مثالاً مُرَكَّباً لما في الإنسان، على طريقة القرآن في ضرب الأمثال للتقريب والتفهيم، فأنت تُشْبِه الوجود، وكأنك نُسخةٌ مُصغرةٌ منه، وكُلُّ ما في الوجود فله مثالُ فيك، ففيك عرش وكرسي وعالم علوي وسفلي.

---

(١) أرسيت: شبه وجود الإنسان في الأرض كوجود الجبال الراسيات، لأنه أهم ما في الأرض، فهي خلقت له.

(٢) قال أبو العباس المرسي: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]: روحاً وعقلاً، ﴿رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥]: نفساً وهوى.

فعرشُك هو روحُك، وهي أعظم ما فيك، ولا قيمة لشيء عندك إلا بها، **والكرسي سِرُّك**[(١)]، وهو الآمر فيك والباعث إلى أعمالك، **واللَّوْح هو قلبك**، الذي هو موضع سِرِّك ونيتك، وفيه حقائق أعمالك، فإنما الأعمال بالنيات، **والعالم العلوي فيك هو الروحانيات** والمعاني والباطن، **والعالم السفلي جسمك** وحاجاته، وقس على ذلك.

وأنت أيها الإنسان وإن خلقت من تراب، فأنت لست كالأرض ومكوناتها المادية وعناصرها الكيميائية، بل أنت نازل من الجنة، وضعت في الأرض لتمضي منها وترجع إلى الجنة التي منها نزلت، فهل عملت لترجع إلى موطن أبيك آدم عليه الصلاة والسلام.

فإذا علمت قدر نفسك وشرف المنزلة التي أرادها الله لك؛ فعليك أن تحتال على نفسك لتصلحها وتؤهلها للمعالي وتنقذها من الهلاك، والأمر لا يحتاج إلى تعب ومجاهدات، بِقَدْر ما يحتاج إلى تخطيط وتفكير وفَنٍّ في التوصل إلى إصلاح النفس وتزكيتها.

كما أنك قد تَكْسِبُ معركة بخدعة وفِكْرَة صغيرة، وذلك قد يَنفعك أكثرَ مِن جيشٍ كبير.

يا مُنْكِرَ المَعْقُولِ والمَعاني ... ما الصُّنْعُ في أَمْثِلَةِ القُرآنِ
بُعْداً أَرَى فِيكَ عَنِ الإِشارَةْ ... هَلْ تُنْكِرَنْ رِوَايَةَ العِبارَةْ
يا جاهِلاً أَقْصَى الكَمالِ، وَقْفَا ... على عُقُولٍ وَهْمُها لا يَخْفَى
أَوَّلُ أَطْوارِكَ مُنْذُ أَوَّلِ ... في الحِسِّ والتَّمْيِيزِ والتَّخَيُّلِ
والعَقْلُ والفِكْرُ مَعاً والذِّكْرُ ... هَيْهاتَ، بَلْ وَراءَ ذاكَ طَوْرُ
ما نَالَهُ الجُمْهورُ والرُّوَّادُ ... وإنَّما يَنالُهُ الأَفْرادُ
مُنْفَعِلاً يُدْعَى وَمُسْتَفَادَا ... وعَقْلَ تَخْصِيصٍ لِمَنْ أَرادَا

---

(١) قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وسرك هو عقلك الباطن الذي يوجه أفعالك وسلوكك.

كيف تُنكِرُ المعقولاتِ والمعانيَ والمدركات الغيبية والروحانيات، وتجعل حياتك بلا عقل ولا تفكير، كالبهيمة ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ [محمد: ١٢]، فتلغي من حياتك أهم ما يميزك ويرفعك أيها الإنسان، وكيف تنكر المثال الذي ذُكِرَ لك، والله تعالى هو الذي يضرب الأمثال، فقد جعل في الوجود نماذجَ تُعِينُ على معرفةِ الحقائق والعلوم(١).

لماذا تنكر الإشارات التي في نصوص الشرع، ولا تريد أن تفهمها، وكأني بك تكاد تنكر العبارة الظاهرة أيضاً، وتشك فيها، وتصرفها عن حقائقها، فإذا كانت النصوص الظاهرة الدالة على الحقائق التي ذكرناها تنكرها، فما الذي يُقْنِعُك بالإشارات؟

والله تعالى جعل لك دلائل على وجود الإشارات، كالمنامات، التي تدل على أن هناك ما لا يدخل تحت قياس العقل، والله يريك في المنام إشارةً يهديك بها أو يُنْذِرُك أو يُبشِّرُك.

لماذا تنكر مراتب الكمال، نتعلق بكلام لا يخفى ما فيه من الوهم والمغالطات، والنبي ﷺ يحثنا على طلب الكمال، إذ يُخبرُنا أن من الناس من ينالون رتبة الكمال البشري، قال ﷺ: « كمل من الرجال كثير »(٢).

وقد تنفي بعض الكمالات مستدلاً برأي بعض العقلاء، وأنت لا تدري أن العقول درجاتٌ، فالإنسان يُخلق وأولُ طَوْرٍ ومرحلة له هي مرحلة الحِسّ، ثم يبلغ سن التمييز في نحو سن السابعة، ثم يقوى عنده التخيل، ثم يستقر عنده العقل مع البلوغ، ثم يقوى التفكير فلا يزال العقل ينمو ويزداد، ثم يجمع العقل التفكيرَ مع المعارف السابقة، فينتج عنهما معارف جديدة، أو يكتفي بالتذكر لما أدركه بعقله سابقاً.

ووراء هذه الأطوار طَوْرٌ لم يُحصِّلْه عامة الناس، وإنما يُحصله أفراد قليلون، **فالعقول ثلاثة:**

---

(١) كما ضرب لك مثلاً للذات والأسماء والصفات، وأنوار معرفتها في قلب المؤمن، في آية النور، ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ [النور: ٣٥].

(٢) أخرجه البخاري رقم ٣٢٣٠ ومسلم رقم ٢٤٣١، عن أبي موسى الأشعري ﷺ.

١. **عقل منفعل**، وهو العقل الغريزي، الذي يدرك الحاجات الجِسمية والعاطفية والفِطْرية، وللحيوان مثله أو بعضه.

٢. **وعقل مستفاد**، وهو العقل الْمُكْتَسَب نتيجة التفكير، وقد يأتي بالتعليم، فيُدْرِك العقلُ صحةَ ما عُلِّم، وقد ذَمَّ اللهُ الكافرين لعدم استعمالهم هذا العقل، في قوله: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج: ٤٦].

٣. **وعقل موهوب**، وهو الذي اخْتَصَّ اللهُ به قليلين، أيدهم بفهم زائد، ونباهة بالغة، وإدراك خاص، وهو الذي جاءت الإشارة إليه بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، وهو عقل لا يتنافى مع العقل المستفاد، ولا يأتي بما يناقض الشريعة[١].

وَحَيْثُ فيه يَنْتَهِي الوَلِيُّ فَمِنْ هُناكَ يَبْتَدِئُ النَّبِيُّ
وفِيه تُجْلَى[٢] جُمَلُ المَعَارِفْ فَمَنْ رَآها قِيلَ فيه عَارِفْ
وهذه مَيادِنُ الأَبْطالِ لَيْسَتْ لِكُلِّ جَبُنٍ بَطّالِ[٣]
هلْ يَصْلُحُ المَيْدانُ لِلْجَبانِ أَوْ يَكْمُلُ الزَّرْعُ بِلا إِبّانِ[٤]
مَا أَنْكَرَ النَّاسَ لِما لَمْ يَعرِفُوا مَا أَهْجَرَ الوُلّافَ[٥] مَا لَمْ يَأْلَفُوا؟

---

(١) وقد بين القرآن أن المنافق فاقد لهذا العقل، إلى درجة أنه يستمع كلام الحق فكأنه لم يسمع ولم يفهم، فيتساءلون ما الذي قيل: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦].

(٢) فِيه: أي في الوَلِيّ، تُجْلَى: تَظْهَر.

(٣) ميادن: أي ميادين، جمع ميدان: مجال الخيل في الكرّ والفرّ، أو في التدريب، جبن: خَوّاف غير شجاع، بطال: قاعد عن العمل والاجتهاد.

(٤) إبان: أي قُربُ إيناع الثمرة، فلا تستوي الثمرات قبل أن تمر بالمراحل التي قبلها.

(٥) الولاف: من يألفون شيئاً ويعتادون عليه.

وأعلى ما يصله الولي في رتبته وصلاحه وعقله، هو أدنى وأقلُّ مما أُعْطِيَه جميع الأنبياء والرسل، فكل نبي عنده من الولاية أكثر من جميع الأولياء، وعنده زيادة على ذلك رتبةُ النبوة، وبعضهم عنده زيادة على ذلك رتبة الرسالة، وأعظمهم جميعاً نبينا ورسولنا الخاتم محمدُ بنُ عبد الله ﷺ (١).

والأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام هم أعظم العارفين، ولهم النصيب الأوفر من مدد الله وعطائه وهدايته، ومن رأى معارف الأنبياء وانتبه إليها وأخذها وعمل بمقتضاها فهو الذي يوصف بالمعرفة ويسمى عارفاً، فقد ورث من ولاية الأنبياء حظاً، أما النبوة والرسالة فلا تورث وإنما هي عطاء من الله، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥].

ومراتب الولاية لها ميدان مفتوح لمن أرادها، لكنها تحتاج إلى مِقْدام شجاع عامل نشيط مجتهد، لا ينالها جبان متردد كسول.

وكما لا ينضج الزرع والثمر حتى يمر بمراحل قبل ذلك، وكما لا يَصْلُح الشَّايُ بمجرد خَلْطِه بالماء إلا بالغَلْي، فكذلك السالك لا بد أن يمر بمراحل ينمو معها شيئاً فشيئاً، فلا تَتَمَنَّ المقاماتِ العاليةَ وأنت قاعد عن الاجتهاد، « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »(٢).

---

(١) قال أبو نصر الطوسي رحمه الله: « وكل ولي من الأولياء ينال ما ينال من الكرامة بحسن اتباعه لنبيه ﷺ، فكيف يجوز أن يَفْضُل التابعُ على المتبوع، والمقتدي على المقتدى به؟ وإنما يعطي الأولياء رشاشةً مما يُعطَى الأنبياءُ عليهم السلام. والذي قال: إن الأنبياء عليهم السلام يُوحَى إليهم بواسطة، والأولياء يَتَلَقّفون من الله بلا واسطة، فيقال لهم: غَلِطْتُم في ذلك، لأن الأنبياء عليهم السلام هذا حالُهم على الدوام، يعني الإلهام والمناجاة والتَّلَقُّف من الله عز وجل بلا واسطة، والأولياء وقْتاً دون وقت. وللأنبياء عليهم السلام الرسالة والنبوّة ووحيٌ بنزول جبريل عليه السلام، وليس للأولياء ذلك ... والولاية والصديقية مُنوَّرة بأنوار النّبوّة، فلا تلحقُ النبوَّةَ أبدًا، فكيف تَفْضُل عليها؟ »، اللمع في التصوف، ص ٣٧٥-٣٧٦.

(٢) حديث حسن، أخرجه أحمد ١٢٤/٤، والترمذي رقم ٢٤٥٩، والحاكم رقم ١٩١، عن شداد بن أوس ﷺ.

وكثير من الناس قد تكون عنده الهمة والنشاط، لكنه لا يتصور مقامات الولاية، وينكرها لأنه لم يعرفها في نفسه ولم يألفها فرآها غريبة، وادعى استحالتها، بدلاً من أن يبحث عن الحق ويعترف به، ولو كان نادراً، فالندرة لا تعني الاستحالة، والقلة لا تعني الشذوذ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

ثم بين الناظم أن ما جاء به الشرع من مراتب الولاية وكراماتها هو أمر يَقْبَلُه العقلُ، وليس فيه شيء مستحيل، فلا يحق إنكاره، ما دام ممكناً، والله أخبر أنه يَخْلُق هذه الكرامات، ويُكرِم بهذه العطايا، لأوليائه وأحبابه.

هل للشريعة ظاهر وباطن، وشريعة وحقيقة؟

أَلَيْسَ قد جُبِلَتِ[1] العُقُولُ   على الذي جاءَ به التَّنْزِيلُ
هَلْ ظاهِرُ الشَّرْعِ معَ الحَقِيقةْ   إلّا كَأَصْلِ الفَرْعِ في الحَدِيْقَةْ
والشَّرْعُ جَارٍ وصَحِيحُ العَقْلِ   كَحَذْوِكَ النَّعْلَ معاً بِالنَّعْلِ
ما مَثَلُ المَعْقُولِ والمَنْقُولِ   إلا كَدُرٍّ زَاخِرٍ[2] مَجْهُولِ
حَتّى إذا أَخْرَجَهُ الغَوّاصُ   لم يَكُ لِلدُّرِّ إِذنْ خَلاصُ
وَإنّما خَلاصُهُ في الكَشْفِ   عن الغِطاءِ حَيثُ لا يَسْتَخْفِ
فَالصَّدَفُ، الظّاهِرُ، ثُمَّ الدُّرُّ،   مَعْقُولُهُ، والجَهْلُ، ذاكَ البَحْرُ
وإنما المعقولُ في شَكْلِ الحُرُوفْ   كَما يكونُ الدُّرُّ في جَوْفِ الصُّدُوفْ
هل ظاهر الشَّرعِ وعِلْمُ الباطِنْ   إلّا كَجِسْمٍ فِيهِ رُوحٌ سَاكِنْ
لَوْ عَمِلَ النّاسُ على الإنْصافِ   لم تَرَ بَيْنَ النّاسِ مِنْ خِلافِ

(١) جُبِلت: خُلِقَت وفُطِرَت.

(٢) الدر: الجوهرة، زاخر: كثير

يبين الناظم في هذه الأبيات أن ما يسمى عند الصوفية بعلم الحقيقة، ليس شيئاً آخر غير الشريعة، فما ينكره بعض الناس على الصوفية، من أنهم اخترعوا شيئاً غير الشريعة مخالفاً للشريعة سموه الحقيقة، فذلك افتراء على الصوفية، وليس صحيحاً.

والشريعة لم تأت بشيء ينافي الحقائق والعقول، بل كل ما جاءت به يوافق العقول والفطرة، ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

والله أقام الحجة على صحة دين الإسلام بأنه أمرٌ يُعقل، فأمرك بأن تعقل وتتفكر، وبين أن الذي أنزل الشريعة هو الذي خلق لك العقل، وأخبرك أنه سبحانه ما كلفك بالشريعة إلا من طريق العقل والمنطق السليم، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

وما يسمى عند الصوفية بعلم الحقيقة، كله راجع إلى حقائق العقائد، ولا يخالفها ولا يخرج عنها(١)، وإنما تميز الصوفية في ذلك بأن عامة المسلمين يعتقدون هذه العقائد في أذهانهم وعقولهم ويؤمنون بها، لكن لا يستصحبونها في أوقاتهم وأعمالهم، وأكثرهم لا يبنون عليها حياتهم، والصوفي هو من يسعى لأن يكون مستحضراً تلك العقائد، ويتعامل مع كل شيء على أساسها، وأهم تلك العقائد التي يبني عليها حياته: أسماء الله الحسنى، والإيمان بنبوة النبي، والإيمان باليوم الآخر.

فكانت الحقيقة ثمرة من ثمرات العمل بالشريعة والإسلام من هذا الوجه، فكثرة العبادة والحضور في الذكر والخشوع في الصلاة والتدبر في التلاوة والزهد في الدنيا وصحبة الصالحين وغير ذلك مما يحرص عليه الصوفية من أعمال الشريعة توصلهم إلى تمكن الحقائق مِن نفوسهم، حتى يكونوا من العارفين بالله، ومن أهل القرب من الله، ومن أهل الذكر والنباهة، كأنهم

---

(١) ومن هذا الوجه: فالحقيقة هي أصل ومبدأ للعمل الصالح وللتحقق بأعمال الإسلام.

يرون الله، مستشعرين أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ﴿ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٥]، وأنه ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ٢].

وحتى تَعلمَ العلاقة بين الحقيقة والشريعة فهذه أمثال تقرب لك الأمر:

١. الشريعة كأصل الشجرة، والحقيقة كالثمرة التي تنبت عليها، فأنت لن ترى جمال الشريعة، ولن تُحقِّقَ مَقصِدَها؛ حتى ترى ثمراتها وزهورها.

٢. الشريعة والحقيقة تتماشيان معاً، كما تمشي أنتَ بِرِجْلَين، ومقصودهما واحد، وغايتهما واحدة.

كما تنظر بعَيْنيك، فعَين واحدة ناقصة الرؤية، والعَيْنان تتعاونان لرؤية أمر واحد، والشريعة عين، والحقيقة عين، بهما تكتمل الرؤية عندك.

٣. الشريعة نصوص ظاهرة منقولة إلينا، والحقيقة إدراك عقلك وقلبك لمعانيها وعملك بها، فجمال النصوص بتطبيقها، وذلك روحها ومُرادها، كما أن البحر يحتوي على الصَّدَف وفيه الجواهر، فمن غاص في البحر وَجَدَ الصدف، فإن فتحه وجد الشيء الثمين، وإن لم يفتحه فقد تعب بلا نتيجة، وإن لم يغص فذلك الجاهل الذي لا يدري صدفاً ولا دُرّاً.

كما أنك تأتي بالبطيخة، التي تَحفظُها قشرتُها، فإن أبقيت على القشر؛ لم تصل إلى اللب المقصود، والشريعة فتحها إدراك معانيها والعمل بها، فتلك حقيقتها المقصودة.

٤. الشريعة كالحروف والكلمات، تتضمن المعاني، وليست الكلمات مقصودة لذاتها، وإنما هي مقصودة لما فيها من معاني، فالمعاني التي تحتويها ألفاظ الشريعة هي كالجواهر التي تحتويها الأصداف.

٥. الشريعة كالجسم، والحقيقة كالروح التي تقوم بالجسم وتعطيه حياته وحركته ونفعه.

ومن هاهنا يُعلَم أن الحقيقة ليست شيئاً غير الشريعة، فالحقائق مأخوذة من الشريعة نفسها، والطريقة الموصلة إلى التحقق بالحقائق، من خلال العمل بالشريعة، هي أيضاً من الشريعة ومستنبطة من الشريعة، فقول الصوفية: بأنه لا بد من الجمع بين الشريعة والطريقة

والحقيقة، وأنه لا يكتفى بالشريعة، لا يعني التناقض بينها، وإنما هو كذكر الخاص بعد العام، فالشريعة تشمل الطريقة وتشمل الحقيقة، ولا يجوز التناقض بينها.

فالشريعة الأوامر، والطريقة السلوك والتطبيق، والحقيقة الثمرات والنتائج، وكل ذلك عرفناه من الشريعة ونصوصها.

لو أن الناس ينظرون إلى الأمور بإنصاف وتجرد عن أهوائهم لما اختلفوا، فليست مشكلتنا في عدم وصول الحق إلينا، وإنما مشكلتنا وخسارتنا وانحرافنا في تحريفنا للكلم عن مواضعه، وفي صبغ الحقائق بأهوائنا، لنحقق شهواتنا ورغباتنا، ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

وقد سمى الناظم في هذه الأبيات علم التصوف بعلم الباطن[١] .

وقد بين أئمة التصوف من القديم معنى ذلك أنه: علم أعمال الباطن، وليس معنى هذه التسمية أنه علم باطن خَفيّ، لا يُدْرَك.

قال أبو نصر الطوسي رحمه الله: « إن العلم ظاهر وباطن، وهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة، **والأعمال الظاهرة** كأعمال الجوارح الظاهرة، وهي العبادات والأحكام، مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك، فهذه العبادات، وأما الأحكام؛ فالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض والقصاص

---

(١) بين الدكتور محمد الصادق عرجون أنه بعد القرن الأول ضعف اهتمام الناس بالإخلاص والمراقبة والإحسان والتقوى ومحاسبة النفس، ونحوها من المعاني الثابتة في الكتاب والسنة والتي كانت متحققة عند أهل القرن الأول، فقام بعض العلماء الصالحين بالتذكير بهذه المعاني، « ومن هنا نبع عندهم ما سموه **بعلم الباطن**، وهو عند أكابرهم من السابقين ليس إلا زبدة العمل بالشريعة، وثمرة المجاهدة في القيام بأوامر الله، وبه يفسرون قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، والتقوى لا تحقق إلا بالعلم، وهو علم الشريعة، فمن علم الشريعة وعمل بما علم؛ علمه الله علوماً كثيرة، وأفاض عليه معارف لا نهاية لها »، التصوف في الإسلام، ص ٩٢.

وغيرها، فهذا كله على الجوارح الظاهرة التي هي الأعضاء، وهي الجوارح، **وأما الأعمال الباطنة،** فكأعمال القلوب وهي المقامات والأحوال، مثل التصديق والإيمان واليقين والصدق، والإخلاص والمعرفة والتوكل والمحبة والرضا، والذكر والشكر، والإنابة والخشية والتقوى، والمراقبة والفكرة والاعتبار، والخوف والرجاء، والصبر، والقناعة والتسليم والتفويض، والقرب والشوق والوجد، والوجل والحزن والندم، والحياء والخجل، والتعظيم والإجلال والهيبة.

ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه وبيان وفهم وحقيقة ووَجْد، ويدل على صحة كل عمل منها من الظاهر والباطن آيات من القرآن وأخبار عن الرسول ﷺ، عَلِمَه مَن عَلِمَه، وجَهِلَه مَن جهله، فإذا قلنا: علم الباطن **أردنا بذلك علم أعمال الباطن**، التي هي الجارحة الباطنة، وهي القلب، كما أنا إذا قلنا: علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة، وهي الأعضاء، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠]، فالنعمة الظاهرة ما أنعم الله تعالى بها على الجوارح الظاهرة من فعل الطاعات، والنعمة الباطنة ما أنعم الله تعالى بها على القلب من هذه الحالات.

ولا يستغني الظاهر عن الباطن، ولا الباطن عن الظاهر، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣]، فالعلم المستنبط هو العلم الباطن، وهو علم أهل التصوف، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك »[١].

وَاْعْلَمْ رَعاكَ اللهُ مِنْ صَديقِ ... أَنَّ الوَرَى حَادُوا عَنِ التَّحْقيقِ
إِذْ جَهِلُوا النُّفُوسَ والقُلُوبا ... وطَلَبُوا ما لَمْ يكُنْ مَطْلُوبا
وَاشْتَغَلُوا بِعالَمِ الأَبْدانِ ... فَالْكُلُّ نَاءٍ لَيْسَ مِنْهُم دَانِ[٢]

---

(١) اللمع في التصوف، ص٢٥-٢٦.

(٢) ناء: مبتعد، دان: مقترب.

وأَنْكَرُوا ما جَهِلُوا وزَعَمُوا | أَنْ لَيْسَ بَعْدَ الجِسْمِ شَيْءٌ يُفْهَمُ
وكَفَّرُوا وَزَنْدَقُوا وَبَدَّعُوا | مَنْ إِنَّهُ هو اللَّبِيبُ الأَوْرَعُ
كُلٌّ يَرَى أَنْ ليس فَوْقَ فَهْمِهِ | فَهْمٌ ولا عِلْمٌ وَراءَ عِلْمِهِ
مُحْتَجِباً عن رُؤْيَةِ المَراتِبْ | عَلَّ يُسَمَّى عالِماً وَطالِبْ
هَيْهاتَ هذا كُلُّهُ تَقْصِيرُ | يَأْنَفُهُ الحاذِقُ والنِّحْرِيرُ
فَمَنْ يُرِدْ مَوارِدَ المَواهِبْ | فَكَيْفَ يَرْضَى هَذِهِ المَذاهِبْ

أيها الصَّدِيق الطالبُ للحق، هداك الله ورعاك، اعلم أن أكثر الناس ساروا على طرق غير مستقيمة، ولم يَبْنوا حياتَهم على الحق، والتَّحقُّق مما يجب عليهم، والتَّحقِيق فيما هو خير لهم، بل جهلوا عن نفوسهم أموراً كثيراً ومهمة، وجهلوا عن قلوبهم كيف يصلحون نياتها وخواطرها وأعمالها وأحوالها، واشتغلوا بأمور كثيرة لا يحتاجونها، يهدرون بها أوقاتهم وأعمارهم وجهودهم، فيجمعون من حُطام الدنيا ويَتْعَبون في ذلك، ثم يتركون ما خَوَّلَهم الله وراء ظهورهم، وقد قَصَّروا في الطاعات، وانشغلوا عن ذكر الله، ووقعوا في منكرات، ورغبوا في الفانيات، وزهدوا في الباقيات، وعمروا الدنيا أكثر مما عمروها، ومَدُّوا أبصارَهم إلى ما عند غيرهم، وغرتهم الحياة الدنيا، وجمعوا الأموال وعددوها، وحسبوا أن أموالهم تُخَلِّدُهم، وأحبوا المال حباً شديداً، وإذا ابتلاهم الله اتهموه، وإذا أكرمهم لم يشكروه، ولم يكرموا اليتيم والمسكين والضعيف، ولم يبذلوا أموالهم وأقوالهم وجهودهم ونفوسهم لنصرة دينهم، ولم يتذكروا آخرتهم ومآلهم وقبورهم.

أهملوا ما هو أنفع لهم، وأنكروه، وجعلوا حياتهم للأجساد، فلا يلتفتون إلى باطن ولا قلب، وأنكروا على من اشتغل لآخرته وسعى لرضوان ربه، واتهموا الصالحين الأولياء والأذكياء النجباء أهل الزهد والورع، الذين أدركوا قيمة الدنيا في جنب الآخرة، والذين عَمِلُوا لِما خُلِقُوا، اتهموهم بالجهل والانحراف والبدعة والزندقة والكفر، وأساؤوا الظن بهم.

وكُلٌّ يُعْجَبٌ برأيه، فيحتقر آراء الآخرين، ولا يحاول الاستفادة منها، ويحمل عِبارات الصديقين الربانيين ـ الذين عرفوا بالتقوى والولاية والكرامة ـ على المحمل السوء، بدلاً من أن يحملوها على أحسن المحامل، ليبرروا لأنفسهم ما هم فيه من غفلة وإدبار(١).

وحجبوا أنفسهم بطلب الجاه والدنيا والألقاب، فأكثر الناس يتوجهون نحو العلم الشرعي والهندسة والطب وغيرها، طلباً للدنيا وحباً بها، لا عِمارةً للدنيا على وجه يُصلح الآخرةَ ويُقيم العدل، فاخْتَلَّتْ أعمالُهم باخْتِلال نِياتِهم.

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لا يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ(٢) يَوْمَ الْقِيامَةِ»(٣).

أنى ينفعهم حالهم هذا وتقصيرهم، الذي يأباه الصادق الذكي المحقق الباحث عن الحق والخير والنفع، فإن كنت تريد العطاء من الله الوهاب فكيف ترضى بتلك الطرق الزائغة، التي تنكر على الحق، بدلاً من أن تتخذه سبيلاً رَشَداً، وقد حذرنا الله تعالى من ذلك: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧]، وعَلَّمنا ربُّنا سبحانه أن نجتنب الزَّيْغ والانحراف وندعوَه أن يحمينا منه، قال سبحانه: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

---

(١) ذكر الدكتور محمد الصادق عرجون أن قد ورد عن بعض أكابر الصوفية الذين حذروا من مخالفة الشريعة، عبارات وألفاظ خارجة عن نطاق أصول الشريعة، ورد هذا الأمر إلى ظاهرها يخالف الشريعة، ثم جعل مخرج ذلك إلى أحد أمرين: **الأول**: أن ذلك مما حمله عليهم من لم يَرْجُ لله فيهم وقاراً، تشويهاً لسلوكهم وتعويجاً لطريقهم، حتى ينقطع عنها السالكون، **والثاني**: أنها حالات يعذرون فيها، فهؤلاء الأكابر متعرضون لنفحات وفيوضات من الإشراق الروحي، « فإذا فاجأتهم لمعات الإشراق بقوة فيضها، ضَعُفَتْ تحت أشعتها المرسلة من شمس التجليات الربانية، قوةُ بشريتهم، وأُخِذوا عن حقيقتهم التكليفية، واندفعت ألسنتهم تعبر عن مشاهد الإشراق، فعجزت العبارة عن الأداء، فكانت منهم تلك الكلمات الجامحة في مقياس الشريعة والعقل، القاصرة في ميزان المشاهدة والمكاشفة»، انظر: التصوف في الإسلام، ص ٨٩-٩٠.

(٢) عَرْفُ الجنة: أي ريحها، وهو كناية عن عدم دخول الجنة والاقتراب منها، حتى رائحتها لا يشمُّها.

(٣) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٨٤٣٨ وأبو داود ٣٦٦٤ وابن حبان ٧٨، عن أبي هريرة ﷺ.

فَالعِلْمُ ما يُلْقَى إِلَيهِ حَدُّ — بَلْ ظاهِرٌ يَخْفَى، وَخافٍ يَبْدُو
والعِلمُ لَوْ كانتْ لهُ نِهايَةْ — يوقَفُ عِنْدَ حَدِّها أَوْ غايَةْ
مَا كانَ أَزْكَى مُرْسَلٍ وأَسْمَى — قِيلَ له: قُلْ رَبِّ زِدْني عِلْمَا
فَعِشْ بِما لَدَيْكَ ما حَيِيتَ — وَجَنِّبِ التَّعْنيفَ والتَّعْنِيتَ
وَالكُلُّ قد يُعْجِبُهُ الكَلامُ — فَالْزَمْ هُدَى نَفْسِكَ والسَّلامُ

فإذا كنت صادقاً فلا تجعل من علومك وما وصلت إليه مقياساً للحق، فالعلم ليس له نهاية وفوق كل ذي علم عليم، وسيد الأنبياء يعلمه الله أن يطلب مزيد العلم، فمن نحن حتى لا نَطلبَ المزيد، ونَظنَّ أن العلم محصور بما علمنا، وقد يَخفى على الأكابر بعضُ المسائل[1]، أفلا تخفى علينا، وقد يُدْرك الْمَغْمور والعامي من العلم الباطن وصلاح النفس، ما لا يدركه إمام يشار إليه بِالبَنان.

فخذ ما تعرف، واعمل به، ودع ما تنكر، واْسعَ لمعرفة ما لا تعلم، ولا تُنكِر ما لا ينتهي علمه إليك، ولا تنازع فيه، ولا تتطاول على مَن يتكلم فيه، ولا تنكرْ ما لم تَقْدِرْ على تحريره وفهمه ومعرفة صوابه مِن خطئه، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فأكثر الناس يُقْحِمُ نفسه بالحديث، فيما يعرف وما لا يعرف، فاشتغل بما ينفعك، ودع كلاماً تُسأل عنه، وتحاسب عليه، ولا تحكم على الناس، فيما لا تعلم، فالله أعلم بعباده.

قال الإمام مالك رحمه الله: « عليك بالذي لا تشك فيه، ودع الناس، ولعلهم في سعة »[2].

---

(١) كما خفي على عمر بن الخطاب ﷺ حديث الاستئذان، فعلمه إياه أبو سعيد الخدري ﷺ، أخرجه البخاري رقم ١٩٥٦، عن عبيد بن عمير.

(٢) ذكره الشيخ أحمد زروق، اللوائح الفاسية، ص ٩٨، ومن تطبيق هذه القاعدة، أن لا نبادر إلى إنكار شيء من الأوراد والأحزاب التي نسبت إلى الصالحين، إلا ما كان ظاهر البطلان لأهل العلم، وما كان محل شك فلا تترك الخير لأجله، فاقرأ من أدعيتهم الطيبة، ما تستحسن معانيه، وتَجاوَزْ عما تَشُكُّ فيه، أو تراه باطلاً، حتى تعلمَ صِحَّته.

الفصل الخامس

في فقراء العصر، ومتشبهة الوقت(١)

بعد أن بين الناظم رحمه الله أن من الناس من يُنكِر التصوفَ بلا علم، بَيَّنَ في هذا الفصل أن بعض الصوفية أو كثيراً منهم انحرفوا عن التصوف الحق، وانحرفوا عن الدِّين والكتّاب والسنة، وانحرفوا عن منهج أهل السنة، وانحرفوا عن طريق الإحسان وآدابه الراقية.

وانحراف هؤلاء ليس حجة على التصوف الحق، وليس حجة أن نترك طريق التزكية والإحسان والصديقية، بل هو حجة على من انحرف.

ومَن صار يتلقط كلام بعض الصوفية، مما فيه خطأ أو إيهام؛ فيجعله حجة على التصوف الحق والصادقين من الصوفية؛ فهو يفترى ويكذب، ومن يفتري على أهل الحق فهو يفتري على الحق، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [يونس: ٦٩].

وقد بين الناظم من خلال هذا الفصل من هو المريد الصادق ومن هو المريد الكاذب.

وإذْ عَلِمْتَ كيفَ كانَ الحالُ ... في الشَّيْخِ والتِّلْميذِ ثُمَّ حَالُوا(٢)
فَأَعْلَمْ بِأَنَّ أَهْلَ هذا العَصْرِ ... قدْ شُغِلُوا بِمُحْدَثاتِ الأَمْرِ
إِذْ أَحْدَثُوا بينَهُمُ اصْطِلاحا ... لَمْ أَرَ لِلدِّينِ بِهِ صَلاحا
وَصَنَّفُوا بينَهُمُ أَحْكاما ... أَكْثَرُها كانتْ لهمْ حَراما
وَانْتَهَجُوا مَناهِجاً مَنْكُوسَةْ ... وَارْتَكَبُوا طريقةً مَعْكُوسَةْ

---

(١) في فقراء العصر: أي فصل في صوفية زمانه، ومتشبهة الوقت: أي الذين يتشبهون بالصوفية وليسوا منهم، وما ذَكَرَه عما في زمانه فهو في زماننا أبلغ وأسوأ.

(٢) حالوا: أي حادوا وانحرفوا.

قَدْ كانَ تَاللهِ طَرِيقاً قاصِدا   وَالآنَ ما يَلْقَى عليه وَارِدا
وهَذِهِ طَرِيقَةٌ قَدْ دَرَسَتْ   وشَجَرٌ أَغْصانُها قَدْ يَبِسَتْ[1]

عَلِمْتَ فيما سبق من هو الشيخ المعتبر، ومن هو السالك المريد الصادق، وما هي أوصافهم وأعمالهم الصحيحة، وما هي صفات الصدق فيهم، فلتعلم أن كثيراً من الصوفية اليوم قد حادوا عن هذا الطريق وانحرفوا كثيراً، فوجدت فيهم بِدَعٌ وأعمال جعلوها سنناً وما هي من السنة، وقدموها وشغلوا بها أنفسهم عن السنة والواجب، وجعلوا لأنفسهم اصطلاحات لم تعرف في سلفهم، والاصطلاح والتوافق على أمر إن كان فيه خير فلا بأس، لكنهم توافقوا على أمور ليست نافعة في السلوك، وليس بها صلاح الدين، واختلت معرفة الأحكام الشرعية عندهم، فخالفوا الفقه والفقهاء، وربما وقع بعضهم في معصية وهو يستبيحها، وصار منهجهم مقلوباً فبدلاً من أن يقودهم إلى الإخلاص والزهد والاجتهاد، صار يقودهم إلى تقوية النفس وهواها وتعلقها في الدنيا وبَطالَتِها وكَسَلِها.

وقد كان الصادقون والراغبون في إصلاح أنفسهم يقصدون هذا الطريق لشرفه ونظافته، أما اليوم فلا تَجِدُ مَن يَطلُبه وينتمي إليه، لتَلَوُّثِ سُمعَتِه، فقد لَوَّثَها أدْعياءُ نَسبُوا أنفسَهم إليه، وشَوَّهوا حقائقَه.

فكادَتْ طريقةُ التصوفِ والإحسان أن تندرس وتمحي وتختفي، وتتغير معالمها وأركانها وتَجِفَّ، فلا يعلمها إلا القليل، ولا يسلكها أحدٌ إلا أَنْدَرَ النّادِر، ولا يكاد يجد طالبها معالم الحق فيه، لاختلاطها.

كانتْ إِذَنْ مَوارِداً شَرِيفَةْ   فَاسْتُبْدِلَتْ مَذاهِباً سَخِيفَةْ
قَدْ أُسِّسَتْ على صَحِيحِ العَقْلِ   وَأُسُّها الآنَ بِمَحْضِ الجَهْلِ
يُدْعَى الذي يَمْشِي عَلَيها سالِكْ   وَسالِكُوها اليَوْمَ حِزْبُ هالِكْ

---

(١) درست: مُحِيَتْ، ولم يبق لها أثر تعرف منه.

عاشَ بِها القَوْمُ بِخَيْرِ عِيشَةْ | فَصُيِّرَتْ بَعْدَهُمُ مَعِيشَةْ
كانتْ تُضاهِي الكَوْكَبَ المُنِيرا | والآنَ أَضْحَتْ حائطاً قَصِيرا
إِذْ صارَ لا يُعْلَمُ مِنْها إِلّا | أَكْلاً وَرَقْصاً وَغِنىً وَذُلّا
كانتْ على الإِنْصافِ والنَّصِيحَةْ | صارَتْ على الإِسْرافِ والفَضِيحَةْ
تُعْرَفُ بِالخُلْقِ وبِالإِيْثارِ | وَالآنَ بِالحِقْدِ وَبِالإِقْتارِ(١)
كانتْ أَجَلَّ غِبْطَةً وَخِطَّةْ | وَالآنَ فِيها بِدْعَةٌ وحِطَّةْ(٢)
كانتْ على مُجَرَّدِ الصِّيامِ | وَالآنَ فِي مُجَرَّدِ الطَّعامِ
وَفِي السَّماعِ كانَ غَلْقُ البابِ | وَالآنَ عِنْدَ جِفَنٍ جَوابِ(٣)

كان طريق التصوف مطلباً رفيعاً شريفاً نافعاً، فتَحَوَّل إلى مَذهب سَخِيف مُحْتَقَر، بما أَدْخَل عليه **مفسدون** وكذابون ومُدَّعُون ومُراءُون، مِن انحراف وهَوى وبِدَع وزَنْدَقات وغُلُو وتَشَدُّدات أو تَساهُلات.

١. كانت طريق التصوف مبنية على العلم والعقل والعقائد السليمة، صارت تبنى على الجهل، فتجد كثيراً من السالكين **لا يعلمون عقائدهم**، ولا يميزون مسائلها، ويخالفون الحق، ويقولون باطلاً ومُنْكَراً.

وبعض مشايخهم يُحَذِّرُ مِن دراسة عقائد أهل السنة ويستخف بها.

وبعضهم يقولون من قول خير الناس، ويمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

وبعضهم يتشدق بكلام الصالحين، وليس له نصيبٌ من التحقق به.

وبعضهم غلاةٌ مستكبرون، ينظرون إلى غيرهم وإلى العامة بالتحقير.

---

(١) الإقتار: المنع والبخل.

(٢) حطة: تذلل، والمقصود التذلل المذموم، في غير موضع التواضع المطلوب شرعاً.

(٣) جفن جواب: آنية الطعام الكبيرة.

وبعضهم يعتقد اعتقاد الجبرية، فيترك اتخاذ الأسباب والأعمال التي أمر بها الشرع، مدعياً أن التوكل يقتضي ذلك، فلا يُحسِن الجمع بين التوكل واتخاذ الأسباب(١).

وبعضهم لا يفرق بين معنى القيومية، وبين الحلول والاتحاد.

٢. كان طلاب التصوف يُسَمَّوْن سالكين، واليوم قد أصبحوا حزباً هالكاً بعيداً عن الحق، ومُفَرِّقاً عن الجماعة.

٣. عاش السالكون بطريقة التصوف عيشة صالحة زاهدة مخلصة بقلوب نقية طاهرة صافية، واليوم صارت وسيلة للتعيش وطلب الدنيا والمال والجاه.

٤. كان التصوف ممدوحاً عالي القدر كأنه الكوكب المنير من علوه ونوره، واليوم أصبح الناس يتطاولون على التصوف ويَذُمُّونه، لكثرة ما يَرَوْنَ مِن انحرافٍ وادعاء وتَكَبُّرٍ وتجاوز.

٥. استبدلوا العمل والاجتهاد والعبادة والذكر والزهد وقلة الطعام والعفة، بكثرة الأكل، والعناية بالأغاني والتراقص، وطلب المال والغنى، والتذلل بالسؤال لأهل الجاه والمال، والخنوع للظلمة.

٦. كانوا ينصفون في الحكم على بعضهم ويتناصحون لإصلاح بعضهم، فصاروا يُسرِفون في الكلام ويجاوزون الحدَّ ويبالغون ذماً أو مدحاً، ويفضحون المخطئ بدلاً من سَتْرِه ونُصْحِه وإصلاحه.

٧. كان الصوفية يُعرَفون بحسن الخلق والقول اللين وبالعطاء والإيثار، وقد كثر اليوم فيهم الحقد والاحتقار والبخل.

---

(١) مع التنبيه إلى أن بعض عبارات علماء التصوف قد تكون سليمة ويفهمها بعض الناس على وجه خاطئ، أو على وجه فيه إساءة الظن، فمثلاً ذكر الطوسي، في اللُّمَع في التصوف، ص ٣١٢ تفسير قول بعضهم: « (نحن مُسَيَّرون)؛ يريد بذلك تسيير القلوب، وسيرها عند انتقالها من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام »، وقد يظن بعض الناس أن القائل يريد إثبات الجبر ونفي الاختيار، وليس ذلك بمقصود.

٨. كان التصوف أفضل طريقة لإصلاح النفس، يغبطها الناس ويعظمونها، ويرون أهلها أفضل الناس، فصارت بدعة وانحرافاً، حقيرة في أعين الناس، حقيرٌ أهلها، مذمومٌ سالكوها، لمّا ابتعدَ كثيرٌ من منتسبيها عن الحق والمعالي وحسن الخلق وصفاء القلوب.

مع التنبيه إلى أن كثيراً مما يقال فيه بدعة في زماننا، ليس من البدع، فقد نشأ في زماننا غُلاةٌ لا يتقنون الفقه وأصوله، ولا يُحسنون فهم الكتاب والسنة، يفتون بلا منهج ولا أصول، ولا يرجعون إلى أئمة الدين المجتهدين، فأنكروا مسائل كثيرة، قد استقر عند أهل السنة جوازُها أو سنيتُها.

٩. كان السالك يكثر من الصيام ويقلل من الطعام، واليوم قل من السالكين من يفعل ذلك، بل صار الصوفية يعرفون بالسمنة وكثرة الطعام والرغبة بألوانه.

١٠. كانوا إذا أنشدوا أغلقوا الأبواب حتى لا يسمعهم من لا يفهم كلامهم ومصطلحاتهم، ويفتحون الأبواب عند الطعام، إكراماً وإحساناً إلى الناس.

أما اليوم يفتحون الأبواب للإنشاد فيعترض عليهم الناس، ويغلقون الأبواب عند الطعام بخلاً.

وَقَوْلُنا الشُّيُوخُ والإِخْوانُ ... هُمُ الَّذِينَ سَلَفُوا وَبانُوا(١)
مَاتُوا وَلَمّا يَتْرُكُوا مِنْ وَارِثْ ... إِذْ هَؤُلاءِ اليَوْمَ كَالْبَراغِثْ(٢)
فَكُلُّ ما اليَوْمَ عَلَيهِ النَّاسُ ... مِنْ مُدَّعِينَ الفَقْرَ فِيهِ بَاسُ
إِذْ نَقَضُوا الأُصُولَ وَالأَرْكَانا ... وَصَيَّرُوهُ فِي الوَرَى مُهانا

---

(١) سلفوا وبانوا: مَضَوا وانقطعوا عن زماننا.

(٢) البراغث: البعوض. وقد بين الشيخ أحمد زروق في اللوائح الفاسية، ص ٢٨٥ أنه شبههم بالبراغيث، ١. لأن البرغوث ينط، وهؤلاء ينطون وينتقلون، لأنهم لا يضبطون الأمور، فيتقلبون من رأي إلى رأي، وتتغير أحوالهم من وقت إلى وقت، ٢. والبرغوث يؤذي، وهؤلاء يؤذون من جاورهم بالغيبة لأهل الاستقامة والحق ولمن يظهر فسادهم، ٣. والبرغوث خسيس يسكن المزابل، وهؤلاء يبحثون عن أكلة حرام مع التظاهر بالمسكنة.

وَهَدَمُوا بُنْيانَهُ المُشَيَّدا وَصَيَّرُوهُ مُهْمَلاً وَمُحْمَدا
وَنَثَرُوا الفُرُوعَ وَالأُصُولا وجَعَلُوا مَعْلُومَها مَجْهُولا
وَاحْتَسَبُوا فِيها بِغَيْرِ حِسْبَةْ وَصَيَّرُوها ضُحْكَةً وَلُعْبَةْ
وجَعَلُوها لِلْغَنِيِّ مَغْرَما وَلِلْفَقِيرِ نُهْبَةً وَمَغْنَما
وافْتَضَحُوا وَاصْطَلَحُوا لَدَيْها فَصارَ ما كانَ لَها عَلَيْها
لَوْ عَلِمُوا ما جَهِلُوا ما صارُوا حَيْثُ انْتَهَوا تَرْمُقُهُمْ أَبْصارُ
لَوْ لَمْ يَكُنْ بَعْضٌ لِبَعْضٍ عاكِسْ ما لُقِّبُوا بِعُصْبَةِ الكَساكِسْ(١)
حَقٌّ لِمَنْ كانَ عَلَيْهِمْ مُنْكِرا إِذْ إِنَّما يُبْصِرُ مِنْهُمْ مُنْكَرا

وحينما نتحدث عن الشيوخ والإخوان السالكين؛ فإنما نتحدث عمن سلف ومضى، فليس لهم وارث متابع في أيامنا، إذ الموجودون كالحشرات والبعوض بالنسبة إلى أولئك، وعامَّةُ مَن يقول إنه من الفقراء والصوفية والسالكين اليومَ؛ عندهم اختلالٌ وما لا يرتضى، إلا من رَحِمَ الله.

وكلام الناظم هنا لا ينبغي أن يؤخذ على العموم المطلق، فإنه لا يخلو زمان من صالحين وصادقين وأكابرَ قائمين لله بحجة، ولا يخلو مِن سالكين صادقين، وإن قَلُّوا، وصَعُبَتْ مَعرِفَتُهم، أو لم يَعْرِفْهم الناس.

ثم تابع الناظم بيان ما الذي عليه الصوفية في زمانه:

١١. فقد خالفوا أصولَ الدينِ والتصوفَ الحق، أو أنقصوا منها، فهدموا أركانه وضيعوا حقائقه وجماله، حتى صار مُحتَقراً مهاناً مُتَّهَماً، خَمَدَ ذكره الحسن، فلا ينسب إليه إلا كلُّ قبيح، كالثياب التي لا تُلْبَسُ أو لا يُلْتَفَتُ إليها.

---

(١) الكساكس: نوع من الطعام في بلاد المغرب.

١٢. وفرقوا فروع الشريعة عن أصولها، حتى عادت مسائلُ هذا الفَنِّ غيرَ سَوِيَّة، حتى صارت لا تفهم، وما كان معلوماً منها وواضحاً صار مبهماً مجهولاً، حتى نشأ جيل من الصوفية ضُلّالٌ وجُهّال، ينفرون من دراسة العقائد والفقه، ولا يستطيعون إقامة الحجة على التصوف الصحيح.

١٣. وجعلوا من أنفسهم حكاماً على الناس، ومُحْتَسِبين آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، وليسوا أهلاً لذلك.

١٤. وصدرت منهم تصرفات وأفعال وأقوال، جعلتهم ضحكة عند الناس وموضع سخرية.

١٥. وجعل بعض الناس السلوك والطريق والتصوف سبيلاً للغنى، فادعى المشيخة، وأثقل على الأغنياء والفقراء، فحَمَّل الفقير ما لا يحتمل، واستخدمه فيما يضيع عليه دنياه، ولَبَّس على الأغنياء ليستخرج منهم أموالهم بغير حق، وأَوْهَمَ الحكامَ ليرفعوه درجة ويعطوه جاهاً.

١٦. ولما افتضح أمرهم وانحرافهم اصطلحوا على معاني، فتفاهموا على الانحراف، ولَبَّسُوا على الناس، فرَوَّجُوا بإعلام كاذبٍ وتوهيم وتمويه أن ما هو مذموم ممدوح، فجعلوا من معاني الحق النافعة أموراً باطلة صارفة عن الحق والسلوك الراقي.

١٧. وصار بعضهم يغطي على بعض عيبه ونيته الخبيثة وسلوكه الخسيس، بدلاً من أن يتناصحوا وينكروا.

١٨. وصار بين كثير من مشايخ التصوف اختلافُ قُلُوبٍ، وتنافرٌ، فكثرت الغيبة والاتهام، بدلاً من الستر والتعاون على الخير والتناصح، وكُذِّب الصادق، وصُدِّق الكاذب.

١٨. وصار يُطلِق عليهم بعض الناس: الأبالسة، من كثرة تلاعبهم، إذا صار بعضهم لا يَعرف معروفاً ولا يُنكِر منكراً إلا ما أُشْرِبَ من هواه، وأطلق على بعضهم: مشايخ السَّلْتات، لعنايتهم بالطعام، وحرصهم على عزائم الطعام، وبعضُهم اتُّهِمَ بالشهوات، حيث عَرَّضَ نفسَه للتُّهمة.

- لو أنهم كانوا عقلاء عالمين صادقين، ما صار حالهم على هذا الحال الذي يزدريهم الناس عليه.

- فمن رأى ذلك من الصوفية فلا يُلام أن يُنكِر عليهم، فإنما رأى منهم مُنكراً، فهُم قد شَوَّهوا التصوف وأفسدوا سمعتَه، حتى صُرِفَ الناسُ عن ذلك الطريق النافع العالي.

علوم الشيخ المؤهل في التصوف

عَارٌ بِمَنْ لَمْ يَرُضِ العُلُوما ... وَيَعْلَمَ المَوْجُودَ وَالمَعْدُوما
وَلَمْ يَكُنْ فِي بَدْئِهِ فَقِيها ... وَسائِرَ الأَحْكامِ ما يَدْرِيْها
وَالحَدَّ وَالأُصُولَ وَاللِّسانا ... وَالذِّكْرَ وَالحَدِيثَ وَالبُرْهانا
وَلَمْ يَكُنْ أَحْكَمَ عِلْمَ الحالِ ... وَلَا دَرَى مَقاصِدَ الرِّجالِ
وَلَمْ يُنَزِّهْ صِفَةَ المَعْبُودِ ... وَلَا دَرَى مَراتِبَ الوُجُودِ
وَالنَّفْسَ وَالعَقْلَ مَعاً وَالرُّوحا ... أَوْ يَدْرِ مِنْهُ صَدْرَهُ المَشْرُوحا
وَعِلْمَ سِرِّ النَّسْخِ وَالمَنْسُوخِ ... أَنْ يَتَعاطَى رُتَبَ الشُّيُوخِ

لا يصلح للمشيخة والتربية والإرشاد في التصوف إلا من تَعَلَّم وأتْقَن:

١. العقائد، ومسائلها، وعرف الواجب والمستحيل والممكن.

٢. الفقه، وأحكامه العملية.

٣. معرفة حدود التعاريف وضوابط المسائل، ليكون متحققاً منها، ومميزاً لها، ومُفَرِّقاً بين مُخْتَلِفِها، فلا يخلط ولا يتوه.

٤. معرفة أصول الطريق ومعالمه الكبرى، وهي صحة الاعتقاد، وإقامة الفرائض، واجتناب المحرمات، واتباع السنة، ولزوم الأدب.

٥. معرفة مصطلحات الصوفية، ومعانيها الصحيحة الموافقة للشريعة.

٦. معرفة القرآن، فيحسن قراءته، ويفهم تفسير آياته بشكل جيد، فلا يحرف معانيها، ويتعلم من ذلك ما يتعلق بالتصوف والتربية وإصلاح النفوس، على الأقل.

٧. معرفة السنة، بالقدر المتعلق بعلم التزكية والتصوف، وما يحتاجه من استدلال لنصرة الطريق، وبيان صحة السلوك والتصوف الذي يدعو إليه.

ويتعلم من علم السنة ما يكون به مميزاً بين الحديث المقبول الذي يُستَدَلُّ به، كالصحيح والحسن، والحديث المردود، الذي لا يجوز الاستدلال به، كالموضوع وشديد الضعف، والحديث المجبور، كالضعيف ضعفاً خفيفاً، والذي يمكن أن يُستدل به في الفضائل التي أيدتها نصوص عامة أو روح الشريعة.

فمما ابتلي به التصوف بمشايخَ لا يميزون ذلك، وكتبٍ يكثر فيها الحديث الموضوع وشديد الضعيف، مما نفَّر الناسَ من التصوف، وجعل لهم حجة عليه.

٨. علم البرهان والمنطق السليم، فيعلم من ذلك ما يعينه على سلامة العبارة والاستدلال والتفكير.

٩. علم الحال، فيعلم أحوال السالكين، وقد مر بها، ويعلم كيف يتعامل مع تحولات النفس، ويَقْدِرُ بالفراسة والنَّباهة على تمييز مقاصد الناس والسالكين، مَن يريد الحق ممن يريد الباطل، مَن هو من أهل الحق والإحسان والصدق والعدل، ومن هو على خلاف ذلك.

١٠. يعتني بعلم التنزيه، ويحرص على أن تكون عباراتُه منضبطةً في ذلك غيرَ موهمة، ويميز بين رتبة الإله والعبد، وبين رتبة الرب والمخلوق، ولا ينسب إلى الخالق ما لا يليق بكماله، ولا ينسب إلى الأولياء ما هو لله.

وهذا من علم العقائد، لكن ذكره الشيخ الناظم للتنبيه، لأنه اشتهرت في الصوفية عبارات ظاهرها البطلان، وتحتاج إلى تأويل كثير أو بعيد، وبعض الطلاب الجهلة يحملونها على ظاهرها، ويناصرونها بالباطل.

١١. معرفة النفس والعقل والروح والقلب والفؤاد والصدر، والتمييز بينها، وكيف تتكامل التربية من خلال إصلاحها جميعاً، وكيف يُربِّي العقل، وكيف يُنَوِّرُ الروح، وكيف يُصلح النفس، وكيف يعالج أمراض القلوب، وكيف يميز بين انشراح الصدر بالحق، وبين فرح النفس بهواها.

١٢. معرفة علم الناسخ والمنسوخ، حتى لا يستدل بنص تُرِك العملُ به، ولا يخالف إجماعَ الأمة بدعوى نص منسوخ.

فمن أتقن هذه العلوم العقلية والعلمية والذوقية، كان أهلاً للمشيخة، وإلا فمن العيب والعار والإفساد أن يمارس المشيخة أو يَدَّعِيها أحدٌ لم يتقن هذه العلوم.

وليس المقصود من تحصيل هذه العلوم أن يكون شيخ التربية والتصوف مجتهداً، وإنما أن يكون عنده منها ما يلزمه للتربية والإقناع بصحة التصوف، لا سيما ونحن في زمان وُجِد فيه مَن يُنكِر التصوف جملة وتفصيلاً.

من لا يصلح للمشيخة

يا عَجَباً مِنْ جاهِلٍ مَبْدَاهُ   فِي رُتْبَةِ الكَوْنِ وَمُنْتَهاهُ
كَيْفَ يَهدِّي وَهْوَ لَمْ يُهَدَّى   لَقَدْ عَدَى ظُلْماً وَقَدْ تَعَدَّى
مَنْ لَمْ يَنَلْ مَراتِبَ الإِرادَةْ   كيفَ يَوَطِّي لِلْهُدَى سِجَّادَهْ
كيفَ يَدُلُّ طُرُقَ الأَسْفارِ   مَنْ لَمْ يَزَلْ فِي جُحْرِهِ كَالفَارِ
أَتَكْتَفِي بِالوَصْفِ فِي المَسِيرِ   فَالوَصْفُ لا يُغْنِي عَنِ الخَبِيرِ
أَلَيْسَ هَذا كُلُّهُ مُحالُ   لَمْ يَسْتَقِمْ منه لِشَخْصٍ حَالُ

كيف يكون شيخاً ومربياً من لا يَعْرِفُ رُتَبَ النفسِ الإنسانية، أدناها وأعلاها، وما تمر به، وفاسدها وصالحها، وما بينهما.

كيف يَهْدِي غيره، وهو لم يهتدِ بَعدُ ! كيف يَنْشَغل بغيره قبل صلاح نفسه ! كيف يأمر الناس بالبر، وينسى نفسه فلا يأمرها بالبر !

كيف يتعدى ويجعل من نفسه معلماً مربياً، وحقه أن يكون طالباً تلميذاً !

كيف يكون مُرشِداً، وليس له نور يمشي به في الناس ! كيف يُخرِج الناس من الظلمات إلى النور، وهو في الظلمات ليس بخارج منها !

كيف يُعَلِّمُ الناس الإرادة ويرتقي بإرادتهم، وهو لا يملك إرادة ليقوم الليل ويجتهد في الصلاة ويتذلل لله ﷻ !

كيف يُعَلِّم السيرَ إلى الله، وهو لم يَمُرَّ بهذا الطريق ولا عَرَفه، ولا خرج من كَسَلِه وبُعْدِه وجهله !

كيف تكتفي بقراءة الكتب، من غير أن تصحب مرشداً، فالسلوك لا يغني فيه العلم عن الخبير المجرب العارف المتحقق، كما أن علوم الهندسة والطب والنجارة والحدادة، لا تغني فيها القراءة عن صحبة الْمُعَلِّم العامل المتخصص.

كيف يستقيم حالُ شيخٍ هذا حاله؟ وكيف يستقيم حالُ سالكٍ عند شيخٍ هذا حاله؟

يا قاصداً عِلْمَ الطَّريقِ السّالِفْ — لا تَقْتَدِهْ بِهذِهِ الطَّوائِفْ
ما مِنْهُمُ مَنْ عَلِمَ المَقْصودا — مِنْهُ ولا الوارِدَ والمَوْرُودا
لَمْ يَعْرِفُوا حَقيقَةَ الطَّرِيقَةْ — فَالقَوْمُ جُهّالٌ عَلَى الحَقِيقَةْ
فَاْحذَرْهُمُ خَشْيَةَ يَفْتِنُوكا — وَاْتْرُكْ سَبِيلاً لَمْ يَزَلْ مَتْرُوكا

إن كنت صادقاً تريد طريق التصوف الذي سار عليه السلف الصالحون، فلا تقتدِ بمن لم يكن أهلاً، ولا تصحب من لم يَفْقَهْ حقيقةَ السلوك ومقصدَه، ومَدْخَلَه ومَخْرَجه، وعلومه وأعماله وأحواله.

واحذر أن تصحب من هذا شأنه، فإنه يفتنك عن الحق والهدى، فتكون من الذين ضلوا وهم يَظُنُّون أنهم يُحْسِنون صُنعاً.

تمييز السالك الصادق من السالك الكاذب

فَإِنْ غَدَا الأَمْرُ عَلَيكَ مُشْكِلا وَشِئْتَ أَنْ تَعْلَمَهُ مُفَصَّلا
فَسَوْفَ أُلْقِي لَكَ قَوْلَ حاذِقِ يَفْصِلُ بينَ المُدَّعي وَالصّادِقِ

من أهم مسائل التصوف والسلوك إلى الله، التمييز بين الصدق والكذب[1]، لِيَنْجُوَ السالكُ من أن يَغْلِبَه الهوى عليه، أو يُلَبِّسَ عليه شيطان من شياطين الإنس أو الجن.

والله تعالى ابتلانا بذلك، فيُجري علينا ظُروفاً مختلفة وأحوالاً متنوعة ومصائب متفاوتة ليختبرنا.

قال تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال: ٣٧]،

وقال سبحانه: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]،

وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣]،

وقال تعالى: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ١١].

والشيخ الناظم رحمه الله مُدَقِّقٌ عارفٌ بأحوال الصوفية، فلم يجعل نصيحته عامة هنا، بل حرص على أن يُفَصِّل، لِيُزِيلَ كلَّ إشكال، فذكر عدداً من الأمور التي يستطيع الإنسان أن يُمَيِّزَ بها بين الحق والباطل، وبين الصدق والكذب، في نفسه وفي سلوكه.

---

(١) للإمام عبد الوهاب الشعراني كتاب في ذلك: الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق.

قَوْلُ الفَقِيرِ: إِنَّنِي فَقِيرُ — فَلِلظُّهُورِ أَبَداً يُشِيرُ
وَبَسْطُهُ إِنْ كانَ غَيْرَ عارِفْ — سَخافَةٌ لَيْسَتْ مِنَ المَعارِفْ
وَقَبْضُهُ وَلَيْسَ ذَا إِرادَةْ — فَهْوَ عَلَى غَيْرِ طَرِيقِ السَّادَةْ
وَأَخْذُهُ مِمّا بِأَيْدِي النّاسِ — دُوْنَ اضْطِرارٍ، فَهْوَ ذُو إِفْلاسِ
وَلُبْسُهُ ما كانَ ذا اشْتِهارِ — فَسِرُّهُ عارٍ عَنِ الأَسْرارِ
وَأَكْلُهُ مِنْ سائِرِ المآكِلْ — دُونَ انْتِهاءٍ، فَهْوَ غَيْرُ واصِلْ
وسَمْعُهُ مَواقِعَ الأَلْحانِ — بِغَيْرِ مَوْتِ النَّفْسِ، فَهْوَ عانِ
وحُبُّهُ السَّماعَ لا مَحالَةْ — بَقِيَّةٌ فيه مِنَ البَطالَةْ
ورَقْصُهُ فيه بِغَيْرِ وَارِدْ — يَسْلُبُهُ عَنْهُ، فَقِيرٌ وَارِدْ
وأَخْذُهُ الخِلْعَةَ بَعْدَ الخَلْعِ — بُعْدٌ عَنِ الحَقِّ بِعَيْنِ الجَمْعِ
وَحَطُّهُ الرَّأْسَ بِغَيْرِ جُرْمِ — عَلَى أَخِيهِ، غَيْرُ فِعْلِ القَوْمِ
وَقَدْ ذَكَرْنا حُكْمَ الاسْتِغْفارِ — أَعْنِي القِيامَ، لَيْسَ عُرْفاً جارِي
ومَيْلُهُ لِلعُرْبِ وَالأَعاجِمْ — عِلَّةُ نَفْسٍ، وَهْوَ فِيهِ آثِمْ
سَفَرُهُ إِنْ لم يكنْ إِلَيهِ — مِنْهُ، فَلا حَقِيقَةٌ لَدَيْهِ
وإِنْ أَشارَ لِلْمَرامِ الأَوَّلِ — وَجَهِلَ العَقْلَ فَعَنْهُ فاعْدِلِ
أَوْ قالَ بِالظُّهورِ والحُلُولِ — فَبِدْعَةٌ تَقْدَحُ في الأُصُولِ
وقَوْلُهُ: أَنا الذي أَهْواهُ — قَبْلَ الفَنا عَنْهُ، فَما أَقْصاهُ
أَوْ يَدَّعِي فِي عِلْمِهِ اللَّدُنِّي — بِلا تُقًى، فَذاكَ غَيْرُ سُنِّي
وَحُكْمُهُ إِنْ كانَ فَوْقَ الحالِ — فَذاكَ مَقْطُوعٌ عَنِ الرِّجالِ
أَوْ قالَ: إِنِّي الشَّيْخُ فَاتْبَعُونِي — بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَهْوَ ذُو جُنُونِ

أَوْ قالَ: صُوفيٌّ أَنا، ولَمّا يَعْلَمْ حُدُودَ النَّفْسِ، فَهْوَ أَعْمَى
وَحُبُّهُ القَوْمَ بِلا اتِّباعِ لَيْسَ لَهُ فِيهِ مِنِ انْتِفاعِ
وَفِعْلُهُ ما في عُمومِ الشَّرْعِ يَمْنَعُهُ النَّصُّ فَفِعْلُ بِدْعِي
وإِنْ تَشَيَّخَا بِغَيرِ إذْنِ مِنْ شَيخِهِ بَاءَ بِكُلِّ غَبْنِ(١)

١. لا ينبغي للصوفي: أن يقول إنني صوفي أو فقير أو سالك، فذلك فيه حظ نفس، وكأنه يريد من الناس أن يعظموه أو يكرموه، فليس ذلك من الصدق.

٢. إذا كان السالك في حال من البسط والفرح، فذلك فَرَحُ النَّفْسِ، وناشئٌ عن غُرور النَّفس، وعن نقصٍ في الخوف من الله، وعن أمنٍ مِن مَكْرِ الله، فلا ينبغي أن يَغْتَرَّ بذلك.

أما العارف بالله فإذا فرح فيفرح بالله، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ [يونس: ٥٨]، وهو عارف باسم الله الباسط وآثاره وتجلياته، فيرى البسط من فعل الله، فيكون شاكراً لله، لا معظماً لنفسه.

٣. إذا أصاب السالكَ قبضٌ وانزعاج وضِيْقُ نَفْسٍ، فأَثَّرَ على إرادته وهِمَّتِه وأعمالِه، أو امتعض من ذلك، فاعترض على الله، فذلك نقص وضعف، وذلك يدل على بقيةٍ من هوى النفس وتأثيرٍ من الشيطان، وإن لم يؤثر على اجتهاده وذِكْره وعمله الصالح وتعلقه بالله وحبه لله ورضاه عن الله؛ فذلك الصادق العارف.

فالبسطُ إن جاء فهو من الله، والقَبْضُ إن جاء فهو من الله، والعارفُ يَرْضَى بما يُجْرِيه اللهُ عليه، ويَفرح بما يأتيه من الله وافق هواه أو خالفه.

٤. أخذ السالك للصدقات، ورغبته في العطايا، وهو مُستغْنٍ أو قادرٌ على العَمل وغيرُ محتاج، فذلك راغب في الدنيا، بَطّالٌ عن الْمَعالي، ليس له نصيب من السلوك.

---

(١) غبن: خداع، والمغبون: المخدوع.

٥. لُبْسُ لِباسِ الشُّهْرة[١]، الذي يميزه عن أهل بلده وأعرافهم، كأنه يشير به إلى نفسه، وكأنه يقول: إني صوفي وصالح وزاهد، فذلك مُنْحَرِفٌ قَلْبُه عن الله، ونيته خبيثة، ووجهته مائلة، يطلب الدنيا بالدِّين، ليس في قلبه ما في قلوب الصالحين الصادقين من صفاء وصدق ونية صالحة.

ومثله الذي يَلْبَسُ لباسَ العلماء والمرشدين، وهو لم يتأهل لذلك، ولا هو مأذون فيه.

٦. السالك الذي يأكل كلَّ طعامٍ يُقَدَّمُ إليه أو يُهْدَى إليه، فلا شك أنه لا تقوى لديه ولا وَرَع، فالسالك لا يرضى أن يأكل طعاماً حراماً، ولا يأكل طعام الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ولا يأخذ من أموالهم، ويتحرى فيما يُعرَض عليه، فلا يأكل ما فيه شبهة، ويتورع عنه ولو لم يَتأكدْ مِنْ حُرْمَتِه.

فالصالح العارف بالله لا يقبل أن يأكل سُحْتاً يُوجِبُ عليه عذاباً، ويَذْهَبُ بِنُورِ قلبِه.

٧. استماع السالك للألحان والأغاني، ورغبته بها، وتَتَبُّعه لها، إن كان فيها معاني منحرفة أو معازف محرمة أو تُغنِّيها نِساء؛ فذلك ليس من السالكين، بل هو من العصاة، وإن كانت سليمة المعاني والأداء، لكنه يميل إلى الألحان والطرب، ولا يلتفت إلى المعاني الشريفة، فذلك يَتْبَعُ هَواه وشَهوتَه، ويُلْبِسُها لباسَ الدِّين.

وكذلك مَن يُكثِر من السماع، بحيث يقدمه على الواجبات أو المندوبات، فذلك لم يتطهر مِن هوى النفس وكَسَلِها، ولا زالت نفسه مريضة تغلبه.

وإذا كان يتراقص للألحان ويتمايل للطرب، فذلك مُنتسِب مُتسلِّق مُدَّعٍ ليس بصادق، أما إذا كانت تؤثر فيه المعاني الطيبة فتحرك حاله؛ فلا حرج، والسكون والتمكين دائماً أعلى وأفضل.

---

(١) وقد نهى النبي ﷺ عن لباس الشهرة، قال ﷺ: «من لَبِسَ ثوبَ شُهْرة في الدنيا؛ ألبسه الله ثوب مَذَلَّة يوم القيامة» حديث حسن، أخرجه أحمد رقم ٥٦٦٤ ونحوه أبو داود رقم ٤٠٣٠ والنسائي رقم ٩٥٦٠ وابن ماجه رقم ٣٦٠٦ عن ابن عمر رضي الله عنهما، وروي بلفظ: « في الآخرة » بدل « يوم القيامة » وبعضهم زاد: « ثم ألهب فيه ناراً ».

٨. أخذُ السالك لِعَباءةٍ أو حَطَّةٍ أو ثَوبٍ سقط عن صاحبه، ولم يُهْدِه إياه، فذلك من التعدي، ظاهره الحبُّ ووَحْدَةُ الحالِ والرَّغْبةُ بالبركة، وحقيقته سوء أدب وطمع وأخذ مال بالباطل.

كما أن الذي يَخْلَعُ على غيره خِلْعةً، أو يُهدِيه مسبحة أو نحوها، ثم يتراجع في ذلك فليس من الصادقين، فالسالك لا يتردد في خير، ولا يحزن على فَقْدِ دُنْيا، ولا يَرْجِعُ في هِبَتِه.

٩. الانحناء للسالكين والتذلل المصطنع، ليس من شأن الصوفية الصادقين، إنما يتواضع المسلم للمسلم بقلبه، وبالصور التي شُرِعَت، من اللين والرفق والعفو ونحو ذلك، لا بتكلف زائد ولا بخنوع.

ولا يخترع الصادقون مَظاهر مِن التَّكَلُّفِ في التعامل، كالوقوف بين يدي مَنْ أَسأْتَ إليه عند طلب المسامحة منه.

١٠. ليس من الصادقين مَنْ يتعلق بالجمال الخَلْقِي، لجميل أو وَسِيمٍ، عَربيٍّ أو عَجَميٍّ أو أبيض أو أسمر، فذلك شهوة محرمة، وفيها إثم كبير، وخطر على السلوك، وهي دليل مرض قلبي متمكن.

وأخطر من ذلك المَيْلُ إلى النساء وجمالهن، واستباحة النظر إليهن، وكذلك الميل إلى المُرْدَان، ممن قارب البلوغ وفيه جمال مُلْفِتٌ، فالصالحون يَغُضُّون البصرَ عن هؤلاء كما يغضون البصر عن النساء، ويحذرون من مُخالطتهم أو الخلوةِ بهم.

إنما يميل الصادقون إلى الجمال المعنوي، فيُحِبُّون الرجلَ لصفاته الصالحة، فيحرصون على مجالسته والانتفاع منه، وتأتلف أرواحهم مع الأولياء والمباركين.

١١. رغبة السالك في الأسفار، لغير مقصد شرعي، وبغير رجوع إلى حكم الشرع، فهو من الهوى والشهوة، وهي دليل على عدم فهمه للسلوك وغاية الحياة، وقد يتظاهر بعضهم بالطاعة والرغبة بالحج، وهو يقصد الترفه والتسلي، أو الجاه والمدح.

إنما يسافر الصادقون إذا كان السفر مشروعاً، وفيه خير، ويعينهم على القرب من الله، فيسافرون لفريضة حج، أو طلبِ علمٍ، أو لجهادٍ في سبيل الله، أو فراراً من الفتن[١]، أو توبة[٢]، أو نحو ذلك، مما لهم فيه نية صادقة، وتحقيقٌ لواجب أو مندوب، مِن غيرِ إخلال بالواجبات والقُرُبات، ولا تَضْييعٍ للحقوق والأهل.

١٢. يَستعملُ بعضُ المشايخ والسالكين مُصطلحَ **المرامِ الأوَّلِ** أو **العقلِ**، على معنى باطل، وذلك انحراف عن الإسلام فضلاً عن التصوف، وقد بين الشيخ أحمد زروق أنه أشار (بالمرام الأول) تنبيهاً على من قال بقول الفلاسفة في اعتبار العقل الأول، ويسمونه الفعال، وهو مذهب فاسد، خارج عن حدود المعقولات، لما تضمَّنه من قِدَم العالَم، والقولِ بحوادثَ لا أولَ لها، وإليه أشار بقوله: (جهل العقل)، يعني جهل حقيقته، حتى سماه بغير اسمه، وحكم له بغير حكمه.

وكذلك كل من اختلت معرفته وعقيدته باعتقاد فاسد منكر، فليس بسالك ولا بشيخ، فاحذر منهم وابتعد عنهم.

١٣. من أخطر العقائد التي دخلت على التصوف، وقال بها بعضهم، **القول بالوحدة المطلقة، والحلول والاتحاد**، حتى قال الإمام الرفاعي[٣]: « لفظتان ثُلْمَتان[٤] في الدين: القولُ

---

(١) قال تعالى ذاكراً قول موسى ﷺ: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ [الشعراء: ٢١]، وقال ﷺ: « يفر بدينه من الفتن » أخرجه البخاري، وسبق تخريجه، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٧].

(٢) كالذي قتل تسعة وتسعين، ثم أكمل المئة، ثم سافر وهاجر طلباً للتوبة، وبُعداً عن موضع المعصيةِ وأرضِ السُّوء، وعن دَواعي تكرار المعصية، أخرجه البخاري رقم ٣٢٨٣ ومسلم رقم ٢٧٦٦، عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) حِكَم الإمام الرفاعي، الحكمة ٧. وقال الإمام الرواس (ت ١٢٨٧هـ): « وقد طرأ على طريق القوم ومناهجهم منذ قرون: العجائب من الأقوال والعادات، حتى كادت تدخل عند الكثير من أتباعهم في العبادات، وأقبحها ـ والعياذ بالله تعالى ـ القول بوحدة الوجود المطلقة، والازدلاف عن وهم إلى مشارب أهل الحلول، والأخذ بالتبجح والشطحات، ونسبة التأثير إلى المخلوق استبداداً، وكل ذلك من المفاسد التي تضُرُّ بالدين، وتدخل صاحبها في زمرة المخذولين، ولا عدوان إلا على الظالمين »، مراحل السالكين، ص ٨.

(٤) الثلمة: الجرح الغائر.

بالوحدة، والشطح المجاوز حَدَّ التحدث بالنعمة »، والوحدة المطلقة: ادعاء أن الله وخلقه شيء واحد، وذلك باطل عقلاً وشرعاً، والحلول: أن الخالقَ يَحلُّ في خَلْقِه، ويظهر فيهم، وتَحلُّ ألوهيته في بعضهم، أو أن الخلق يَحلُّون في الخالق، فهو يسيرهم بلا إرادة لهم ولا اختيار، وإنما هو يظهر بمظهر الخلْق والْمُحْدَث، وكل ذلك مردود باطل، عقلاً وشرعاً، ومن اعتقد ذلك فهو كافر.

أما إذا كانت عبارةُ بعضِهم تُوهِمُ ذلك؛ فلا نسارع إلى التكفير، ونحسن الظن بكل مسلم، لكن من واجب كل مسلم أن يحذر ويبتعد عن كل عبارة تحتمل معنى باطلاً[١].

والعارف ـ وكل مسلم ـ لا يخلط بين الإله والعبد، وبين الخالق والمخلوق.

ويرى بعض العلماء أن من واجبنا عند العبارة الموهمة أن ننكر المعنى الباطل، مع عدم الحكم على قائلها، فلعل له عذراً، أو تأويلاً، أو رجع عنها[٢].

١٤. من الناس من يقول إنه يحب الله، وهو لا زال مُتعلِّقاً بالخَلْق، ويَغْفل عن الخالق، ويؤثر المخلوق على الخالق، ويؤثر شهواته على مُراد الله، ويضحي بوقته وماله وجهده وفكره ليبني بيتاً وقصراً ما لا يُضحي ولا يَبْذُلُ في طاعةِ الله ونصرةِ رسولِه ودينِه، ويخاف على تجارته أكثر من خوفه من فوات جنته وفريضته، ويُقَدِّمُ أعراف عشيرته على شريعته، ويحب أباه وأخاه وولدَه وزوجتَه ما لا يُحِبُّ ربَّه ورسولَه، ويعيش لهم ما لا يعيش لربه[٣].

---

(١) وقد رجح الشيخ أحمد زَرُّوق أن من اتُّهِم من الصوفية بالقول بالحلول، كالششتري وابن عربي والحلاج وابن الفارض وابن سبعين؛ لا يعتقدونه، وقال: « والظن بهم البراءة مما رُمُوا به، ولكنهم ضاقت عليهم العبارة عن حقائقِ دقائقِ صريحِ العلمِ، فأدّت بظاهرها ما يُوهِم، وهم بَراء منه، هذا معتقدنا فيهم، وعند الله الموعد » اللوائح الفاسية، ص ٣٠٤.

(٢) انظر: اللوائح الفاسية، ص ٢٧١، فقد ذكر أن أبا زُرْعَة العراقي مال إلى أنه يُعتَرَض على الكلام، ويترك القائل لاحتمال تَوَقُّفه ونحوه.

(٣) قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

ومَن كان هذا شأنُه فليس بصادق في حب الله، فإذا أحب ربَّه فوقَ كلِّ حُب، حتى دام ذكره وتعظيمه، واشتدَّ تَعَلُّقُه، وقَدَّمَ أحكامَ شريعته، حتى لم يَرْضَ مخالفةً لأمره، وإذا ابتلاه الله بشيء مما يستهوي النفوس آثر الله على غيره، فعندئذ يكون صادقاً في دعواه وحبه، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومِثْل ذلك يجب أن يكون حب النبي ﷺ أعظم من حب النفس والأهل والناس والأموال، قال ﷺ : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »(١)، وروي بلفظ: « لا يؤمن الرجل حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين »(٢)، وقال ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ : « حتى أكونَ أحبَّ إليك مِن نفسك »(٣).

١٥. من يدعي أنه مؤيد بعلم رباني، أو إلهام مُسَدَّد، أو كرامة، ثم لا تراه مستقيماً على شريعة الله، فيقصر في فريضة أو يقع في معصية، فذلك ليس من أهل السنة، ولا يكون الصوفي صوفياً إلا أن يكون على منهج أهل السنة، حتى قال أئمة أهل التصوف: « الكرامة هي الاستقامة »، وقالوا: « إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء، فلا تغتروا، حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة »(٤).

١٦. مَن يتكلم في شيء مِن علوم القوم العالية، وهو لم يتحقق به، فهو يوهم الناس بما ليس عنده، فذلك ليس من الرجال والأكابر، أما الصادق فإنه لا يتكلم بكلام إلا أن يكون حاله أعلى من ذلك.

١٧. من ادعى المشيخة، وليس هو من أهل العلم الذي يُحتاجُ إليه في السلوك، فذلك مَغرورٌ مُستكبر.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١٥ ومسلم رقم ٤٤ عن أنس ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٤٤ عن أنس ﷺ، وروي بلفظ عبد بدل الرجل.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٦٢٥٧.

(٤) روي هذا عن الإمام المجتهد الليث بن سعد رحمه الله، ثم تناقله الشافعي والأئمة من بعده.

١٨. من ينسب نفسه إلى التصوف، وهو لا يعلم درجات النفس بين التدسية والتزكية، والانحطاط والترقية، ولا يعلم ما يضر النفس وما ينفعها؛ فهو لا يدري شيئاً عن التصوف، ولم يبصر حقيقته[١].

١٩. من يرافق القوم ويدعي حبهم، ثم لا يتبعهم في طريق الإحسان، فحظه من الانتفاع قليل، إذ علامةُ الحبِّ الاتباعُ فيما يَقْدِرُ عليه[٢]، فإنْ لم يقدرْ نفعَه حبُّه بِقَدْرِ إدراكِه للصفات الراقية في المحبوب، ورغبتِه في التَّشبه بها والاقتداءِ بها، قال ﷺ : « أنت مع من أحببت »[٣].

وتجد كثيراً من الصوفية اليوم يجالسون الصوفية ويحبونهم، لكن قَلَّ فيهم مَنْ يَسيرُ سَيْرَهم، ويُجاهدُ مُجاهداتهم، ويَصل إلى صفاتهم.

٢٠. يتمسك بعض الجهلة من الصوفية في بعض المسائل بنصوص عامة، في مسألة ورد فيها دليل خاص، وهم يجهلون ذلك، فيستدلون بنصوص عامة استدلالات باطلة، وهذا ناشئ عن الجهل من جهة، وعن عدم الرجوع إلى أئمة الفقه والهدى من مجتهدي هذه الأمة.

وأحياناً يستدلون بقواعد عامة لها استثناءات، وينزلون القواعد في غير مواضعها.

---

(١) ومن معرفة حدود النفس، ما قاله الشيخ أحمد زروق رحمه الله في اللوائح الفاسية، ص ١٠٥: « ثم اعلم أنا ندرك من نفوسنا تفصيلاً في القلوب، فنسمي لكل وجه معنى، فنقول: أدرك بعقله، وفهم بقلبه، وعلم بسِرِّه، واشتهى بطبعه، وهوى بنفسه، وشاهد بروحه، ثم لا ندري: هل ذلك واحد يتنوع أو متعدد؟ إذ لا اطلاع لنا على أصل النشأة، فاعرف ذلك ».

(٢) ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ووجود بعض الضعف أو المعاصي لا ينفي أصلَ الحبِّ كلَّه، ولا ينفي وجود فائدة من هذا الحب، كما في حديث الذي كان يُلَقَّب حماراً، وكان يُضحِك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في شرب الخمر مراراً، فقال رجل من القوم: اللهم الْعَنْهُ، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: « لا تلعنوه فوَالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله » أخرجه البخاري رقم ٦٣٩٨، عن عمر بن الخطاب ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٣٤٨٥ ومسلم رقم ٢٦٣٩ عن أنس بن مالك ﷺ.

ومن هنا يقع بعض السالكين في البدعة، فينسبون إلى الشريعة ما ليس منها[(١)].

٢١. لا يجوز التشيخ والتمشيخ وارتقاء رتبة الإرشاد والتربية إلا بعد الإذن ممن سبق من المشايخ، ممن أقر لهم مشايخهم بالأهلية، وهكذا يجب في كل جيل أن لا يتولى المشيخة إلا من أقر له مشايخ الجيل السابق بالأهلية.

قال ﷺ: « لا يَقُصُّ على النّاسِ إلا أميرٌ أو مَأْمورٌ أو مُخْتالٌ »[(٢)].

وروى البخاري في قوله تعالى: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤] قال: « نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا من بعدنا »[(٣)]، وقد كان السلف لا يجلسون إلى التعليم إلا بعد إذن مشايخهم، كما روي عن الإمام مالك رحمه الله أنه لم يجلس للتعليم والتحديث حتى أذنه بذلك سبعون من مشايخه.

ومن جعل من نفسه شيخاً وهو غير أهل، فإنه يُفْضَحُ ويصير أُضحوكة، يُغْرِي به الناس، لما يرون من تخليطه وأخطائه، ولأنه لا يستطيع أن يقوم بحق ما تَصَدَّرَ له، فيورط أتباعه ولا يعينهم، وهو ينشغل عن إصلاح نفسه، فيزداد تراجعاً.

فَهَذِهِ وَشِبْهُها مَوانِعْ وَهْيَ عَنِ الطَّرِيقِ كالقَوَاطِعْ
هَلْ هِيَ إِلّا عِلَلٌ في الفَقْرِ جَالَدَها كُلُّ جَلِيدٍ صَقْرِ[(٤)]

---

(١) قال ابن عجيبة: « فِعْلُ ما يمنعه النص في عموم الشريعة حرام، إلا لضرورة، فإن الضرورات تبيح المحظورات، فإنْ فَعَلَ الفقير شيئاً من ذلك فهو بِدْعِيّ، وأما ما لم يرد نص في تحريمه، ولا تحليله، فإنْ فَعَلَه بنية القربة، فهو بدعة أيضاً، لتغييره أحكام الشريعة، وإنْ فَعَلَه استراحة للنفس، أو جلباً لمال، أو لدواءِ مرضٍ أصابه، فهو مطلوب »، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، ص ٤٥٧، مطبوع مع إيقاظ الهمم شرح الحكم (العطائية).

(٢) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٣٦٦٥ وأحمد رقم ٢٤٠٢٠، عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ، وأخرجه أحمد رقم ٢٤٠١٨ بلفظ: « أو متكلف »، وأخرجه ابن ماجه رقم ٣٧٥٣ وأحمد رقم ٦٦٦١ بلفظ: « أو مُراءٍ »، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ.

(٣) ذكره البخاري في عنوان بعد حديث ٦٨٤٦. ولم يبين من القائل، وبين ابن حجر في فتح الباري ٢٥١/١٣ أن القائل مجاهد رحمه الله، تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) علل: أمراض، جالدها: جاهدها، جليد: صبور، صقر: كناية عن أنه ذو همة عالية يترفع عن الباطل والسفاسف.

حَتّى إذا جَدَّهَا صَرِيْعَةْ　　لَمْ يَتَوَقَّعْ بَعْدَها وَقِيْعَةْ(١)
يَا صَاحِ لَا يفْتِنَكَ الزَّمانُ　　فَها لَدَيْكَ الشَّرْحُ وَالبيَانُ
فَالحَقُّ لَا يعْرَفُ بالرجالِ　　وَالعيْنُ لَا تَصْلُحُ بِالمُحَالِ
وَالحَقُّ فِي كُلِّ الأُمُورِ أَوْلَى　　لَوْ رَامَهُ البَاطِلُ لَاضْمَحَلّا(٢)
وَإِذْ عَلِمْتَ سَنَنَ الأَقْوامِ　　فَها لَدَيْكَ القَوْسُ والمَرَامِي(٣)

فهذه نماذج من الانحرافات التي دخلت على التصوف والصوفية، وهي تفسد السلوك، وتقطع طريق التقرب إلى الله، وتمنع المريد من الخير، فهي أمراض واختلالات في طريق الفقراء السائرين(٤).

ولا ينتفع الإنسان من التصوف، ولا يتم السير إلى الله، إلا بمجاهدة هذه الأمور وأمثالها والتخلص منها، فمن جاهدها بحزم وهمة، فأصلح نفسه اعتقاداً وسلوكاً، وترفع عن الباطل والخطأ، ولم يُبْقِ لنفسه حَظّاً مهما كان صغيراً؛ فذلك الذي يُكرِمه الله بصفاء قلبه، ويتولاه، « فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض »(٥)، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فقد تكفل الله بهداية من جاهد في الله ولله، فوقف عند أحكام الله، ولم يطع هواه وشيطانه، ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ

---

(١) جدلها: قطعها، صريعة: ملقاة ميتة، وقيعة: فتنة.

(٢) رامه: قصده، والمعنى أراده بسوء، اضمحلا: تلاشى وزَهَق.

(٣) سنن القوم: طريقهم.

(٤) بين الشيخ أحمد زروق رحمه الله أن العاصم من القواطع:
١. لزوم ظواهر الشريعة علماً وعملاً، فمن رأى الحقيقة توجب خلاف ذلك فقد زل وضل.
٢. التزام المبادئ في العقائد والحقائق، وأن لا يحيد عنها، ولا يزيغ قليلاً ولا كثيراً.
٣. ترك التأويل الناشئ عن الهوى، والمفضي إلى الزيادة، أو النقص، أو الترخُّص في غير موضعه، أو التبرير لما لا حجة له.

(٥) جزء من حديث أخرجه مسلم، وقد سبق ذكره.

يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

انتبه أيها الصادق، واحذر من الفتن ظاهرها وباطنها، فقد ظهر لك الحق، وبان لك الطريق، فالزم الصواب، ولا تغتر برجال ظننت فيهم خيراً، فإنما يُعرَف الرجالُ ويُقَدَّرون باتباعهم الحق، ولا يُستَدَلُّ على الحق بالرجال، فالحق أحق أن يُتبع.

والحق لا يعرف بالرجال، فإذا عَرَفْتَ مِيزان الحقِّ، عَرَفْتَ مَنِ هم الرجالُ، ومن هم الأكابر، ومن هم أهل الاستقامة، ومن هم أهل التصوف السُّنِّيِّ، ومَن يَصلُحُ للمشيخة والتربية.

فإذا رأيت باطلاً على رجل نثق به وتحسن الظن به، فلا تُكَذِّبْ نفسَك، فتجعلَ الباطل حقاً لأنه صَدَرَ عن فلان، فالعين لو أبصرت أمراً مستحيلاً، واجبها أن تُؤَوِّلَ ما رأت، لا أن تُثْبِتَ المستحيل، فالمستحيل لا يكون.

ولا تُكَذِّبْ عَيْنَيْك ما تراه من الضلال والفساد، فَتَغُشَّ نفسَك وتخدعَها وتغالطَها، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ ﴾ [البقرة: ٩].

وقال سبحانه: ﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٤-١٥].

فاجعل الحق مقصداً لك، تبحث عنه، وتعمل به، ولا تَدْخُلْ في أمر لا تدري فيه الحق من الباطل، حتى تعرف الحق وتميزه، وتجد البرهان والدليل.

والباطل مهما علا وانتفش، فإنه ضعيف مهزوم أمام الحق، قال عز وجل: ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال سبحانه: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فإذا عرفت طريق التصوف الحق، فاسلك ذلك الطريق، فقد عَرفتَ مِن العلم ما يكفيك لتتبين معالمه المستقيمة، ولتدرك منهجه القويم، وملكت ميزاناً دقيقاً، فما بقي عليك إلا الاجتهاد في السلوك والعمل والتقرب إلى الله، فليس لك حجةٌ أن تسير على باطل، أو تتأخر عن حق.

قال ﷺ: «إن الدين يُسر، ولن يُشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، **فسَدِّدُوا وقارِبوا**، وأبشروا، واستعينوا بالغَدْوة والرَّوْحَة وشَيءٍ مِن الدُّلْجة»(١).

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٩، عن أبي هريرة ﷺ. (الغدوة): أول النهار إلى الظهر، (الروحة): من الظهر إلى آخر النهار، (الدلجة): الليل أو آخر الليل، والحديث كناية عن السير إلى الله بالاجتهاد بالعمل الصالح في أول النهار وآخره وشيء من ليله، وقال ﷺ: « قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله ... » أخرجه البخاري رقم ٦١٠٢، عن عائشة رضي الله عنها، ومسلم ٢٨١٦، عن أبي هريرة ﷺ.

خاتمة

هَذا هُوَ الطَّرِيقُ فَاقْصِدْ جُلَّهْ فَقَدْ جَمَعْنا لَكَ مِنْهُ جُمْلَةْ
وَقَدْ ذَكَرْنا كُلَّ مَا اشْتَرَطْنا وَهَا عَلَى آخِرِهِ أَتَيْنا
وَفَّقَنا اللّٰهُ إلى التَّوْفِيقِ وَقَادَنا لِقَادَةِ التَّحْقِيقِ
وَبَعْدَ هَذا فَصَلاةُ اللّٰهِ تَتْرَى عَلَى الهادِي العَظِيمِ الجَاهِ
مَا غَرَّدَتْ وَرْقاءُ[1] في الأَغْصانِ وَحَنَّ مُشْتاقٌ إِلى الأَوْطانِ
وَالحَمْدُ لله الذِي خَتَمْنَا بِحَمْدِهِ كَمَا بِهِ بَدَأْنا

وبعد، فهذا طريق التقرب إلى الله، وفَنُّ السلوك والسير إلى الله، فقد عرفت منه مسائل كثيرة ومهمة، فإن لم تحصل كل خير فيه؛ فاحرص على أكثره، وقد وفى الناظم فبين لك حقائق التصوف، وأتمَّ ما وَعدَ به من فصول ومباحث ومسائل.

نسأل الله أن يوفقنا إلى الحق، وأن يَدُلَّنا على أهل الحق، وأن يهدينا لمعرفة ساداتهم من العلماء المرشدين المحققين، والعاملين الصادقين، والأولياء الربانيين، والْمُرَبِّين المؤهلين الْمُسَدَّدِين، حتى نأخذ عنهم، ونتعلم منهم، ونستفيد مِن تحريرهم للمسائل وعلمِهم بالضوابط وخِبْرَتِهم بالْمَعالِم، ونصحبهم، ونقتدي بهم، وننال من بركات صحبتهم.

وصلى الله تعالى على نبيه محمد صاحب القدر العظيم الهادي إلى صراط الله المستقيم صلاة دائمة لا تنقطع.

والحمد لله أولاً وآخراً[2].

---

(١) ورقاء: حمامة، سميت بذلك للونها الأسمر.

(٢) وتم هذا الشرح بفضل الله تعالى وتوفيقه في الرابع عشر من شوال سنة ١٤٣٩ هجرية، الموافق للثامن والعشرين من حزيران سنة ٢٠١٨ ميلادية، ونستغفر الله لما قصرنا أو أخطأنا، ونشكر الله لما سَدَّدنا وهدانا.

مراجع

القرآن الكريم.

الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

الأساس في السنة وفقهها، العقائد الإسلامية، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

الأعلام، خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، ناصرالدين، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار الفكر، بيروت.

إيقاظ الهمم في شرح الحكم (العطائية)، ومعه **الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية**، كلاهما تأليف: أحمد بن محمد ابن عجيبة الحسني (ت١٢٢٤هـ - ١٨٠٩م)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بلا تاريخ ولا طبعة.

البرهان المؤيد، الإمام أحمد الرفاعي، نسخة إلكترونية.

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

تربيتنا الروحية، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، مصر، ط٧، ٢٠٠٤م.

التزكية على منهاج النبوة، معاذ حوى، دار النور المبين، عمّان، الأردن، ط١، ٢٠١٨م.

التصوف في الإسلام، منابعه وأطواره، محمد الصادق عرجون، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٦٧م.

التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر بن الحجاج المروزي (ت ٢٩٤هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٦هـ.

تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، (ت٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الجامع لأحكام القرآن المبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، (ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

جولات في الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما، سعيد حوى، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط٢، ١٩٨١م.

حاشية الشيخ زكريا الأنصاري على الرسالة القشيرية في علم التصوف، مطبوع بحاشيتها، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان. ط ١٩٥٧م.

حالة أهل الحقيقة مع الله، الإمام أحمد الرفاعي، تعليق: محمد نجيب خياطة، مكتبة بسام، الموصل.

حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى، نسخة إلكترونية، موقع الطريقة الشاذلية الدرقاوية، ط ٢٠٠١م.

حكم الإمام أحمد الرفاعي، نسخة إلكترونية.

الرسالة القشيرية، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، نسخة إلكترونية.

سنن أبي داود، أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

سنن الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر البغدادي الدارقطني، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦ﻫ ، ١٩٦٦م.

سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبدالرحمن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٧ﻫ .

السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١ﻫ ، ١٩٩١م.

سنن ابن ماجه، ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، أ. د. صلاح أبو الحاج، ومعه تحقيق مخطوط: أحكام السياسة، لدده أفندي (ت ٩٧٥ هـ)، دار الفاروق، عمّان، ط١، ٢٠١٩م.

سير أعلام النبلاء، حمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٣ﻫ ، ١٩٨٣م.

شرح الكوكب المنير المسمى بمختصر التحرير، أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار (ت ٩٧٢هـ)، وأصل الكتاب لعَلِيّ بْنِ سُلَيْمَانَ الْمِرْدَاوِيِّ الْحَنْبَلِيّ (ت ٨٨٥هـ)، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط٢، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي، (١٠٨٩هـ)، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٦هـ.

صحيح البخاري الجامع المسند الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير واليمامة، دمشق وبيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٩٣م.

صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي.

صحيح مسلم بشرح النووي، يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ.

فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، رقمه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، تصوير عن المطبعة السلفية.

قواعد التصوف، على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة، ويصل الأصول والفقه بالطريقة، أحمد زرُّوق البرنسي الفاسي، (ت ٨٩٩هـ)، تحقيق وعناية: عثمان الحويمدي وحسن السماحي سويدان، دار وحي القلم، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠٤م.

الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١٤٠٩هـ.

لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت.

اللمع في التصوف، أبو نصر عبد الله بن علي السَّراج الطوسي (ت ٣٧٨هـ)، ضبطه وصححه: كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٣.

اللوائح الفاسية في شرح المباحث الأصلية على جملة الطريقة الصوفية، أحمد زروق الفاسي (ت ٨٩٩هـ)، تحقيق: د. محمد عبد القادر نصار و أ. عبد الله جمال حَمَدْنا الله، دار الإحسان، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٥م.

المجتبى من السنن (السنن الصغرى)، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي (ت ٧١٠هـ)، نسخة إلكترونية.

مذكرات في منازل الصديقين والربانيين، من خلال النصوص، وحكم ابن عطاء الله السكندري، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، مصر، ط٥، ٢٠٠٤م.

مراحل السالكين الموصل لمعراج القلوب إلى حضرات الغيوب، محمد مهدي بهاء الدين بن علي الصيادي الحسيني، الشهير بالرواس أو الرفاعي الثاني، مؤسسة الإمام الرواس التجارية، ط١، ١٩٨٥م.

المستدرك على الصحيحين، الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبدالله النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

المسند، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر.

مسند الشاميين، سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٤م.

المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ.

المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط ٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م.

معراج التشوف إلى حقائق التصوف، أحمد بن محمد ابن عجيبة، ضبطه وعلق عليه: محمود بيروتي، دار البيروتي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

مقدمة ابن خلدون، وهو الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٤، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

موطأ الإمام مالك، أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر.

النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوَى ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

فهرس